1466

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران - السانية

كلية الآداب ، اللغات والفنون قسم اللغة العربية وآدابها

بلاغة الالتفات في الخطاب القرآني

قراءة في أوجه الدلالة واستنباط الأحكام

بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير

إعداد الطالب :

إبراهيم فواتيح عبد الرحيم

إشراف الأستاذ الدكتور : سليمان عشراتي

الأستاذ مساعد المشرف : عبد القادر بوزربوجة

السنة الجامعية : 2005 / 2006 م

الإهداء

إلى والدي الكريمين ، مثال الحب والتضحية .

إلى الأب الروحي الشيخ سليمان عشراتي الذي حفني بأخلاقه قبل علمه .

إلى الأستاذ عبد القادر بوزربوجة ، المحفز والمرقب ، الذي ما انفكت المسائل

تعرض عليه إلا وفتح مغالقها بابتسامة الانفكاك عنه .

إلى من رافقني طيلة أيام البحث وعلمني كيف أجعل من العويص هيناً يسيراً ،

الأخ العزيز عبد الناصر بن شريف

إلى كل من ساهم في هذا البحث

إلى كل هؤلاء أسدي شكري عدة ، لا أوفي بها حقهم علي ، وأنهج به ما حييت ، لأن

مؤداه إلى شكر الله ، وبه تحصل الزيادة لجاري فهم العلم في صقع أخرى

إن شاء الله تعالى

إبراهيم فواتيح عبد الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبعد ؛ إنّنا نحسب أنَّ الالتفات بوصفه شكلاً تعبيرياً لا يَكْمُنُ في تلك النظرة السطحية التي نَعَتَهُ بها السابقون من أنَّ سرَّه البلاغي يقتصر على عملية تجديد نشاط السامع وأريحيته بَدَلاً من السَيْرِ على ضربٍ واحد من الكلامِ ، ونَمَطٍ رتيبٍ من القولِ .

حقًا لقد نَعَتَهُ بَعضُ القدامى بأنَّه بديعُ البديعِ . إلاّ أنّ جُلَّ الدراسات لم تَفه أسرارَ بلاغته و وُجُوهَ حُسْنِه حَقَّها استقراءً واسْتِنْباطاً وتقعيداً كما نعتقد ، بل إنَّ مَنْ يطّلِعُ على تلك الدراسات التي قامت حول الالتفات سَيَجِدُ بينها تشابُهاً لافتاً ومُحَيِّراً حيث يرى نفس الشواهد ، ونفس الأحكام تدور في الدراسات القديمة لا تكاد تخرج عنها ، الأمر الّذي يجعل الفكر يدور حول نفسه حاداً من إمكانية توّسيعِ مساحة الاستقراء بِما يعود على موضوع الالتفات بفوائد جديدة على صعيد استكشاف مزاياه البيانية والحُكْمية .

وعليه فسنُباشِر المقاربة باقتحام صعيد جُملة من التساؤلات التي نعتقد أنَّها ستهيئ لنا إمكانية التعرُّف على كُنْهِ هذه الظاهرة الخطابية التي شاعت فِي المتن القرآني ، والتي أخذت مظاهر عِدّة سنعرض لها .

كانت الحادثة الشعرية ذاتُها تَتَقَوّى وتتعزّز كلّما عرض للشاعر موقفٌ أمكنه فيه أنْ يَميل إلى وجهة القول ميلاً التفاتياً .

هناك مستويات للالتفات تبدأ بصورة بسيطة من خلال تَحَوُّل الكلام في الجملة القرآنية ، ولعلَّ في اشتمال سورة الفاتحة وهي أمُّ الكتاب على أسلوب الالتفات ، ما يُوعِزُ لنا بأنَّ الالتفات يندرج ضمن خصوصية أشْمَل ، تَحَلى بها القرآن وتجلّى جمالُه ، هي خصوصية الإعجاز .

و إذا كان الإعجاز هو هذه الحيرة الكبرى التي تَجعلنا نقفُ وجهاً لوجه مع ميتافيزيقا الجمال القدسي ، إذْ مُحَالٌ أنْ نُقيِّدَ إعجاز القرآن بإحالات حصرية ومقالات قصرية في الجمال إطلاقاً وكلّيةً .

لكنّنا سنُحاول على كلّ حال استبانة حقيقة النموذج الالتفاتي بوصفه مظهراً يَعْكِسُ الْجَمَالِيَة الإعجازية ويُجسِّدُ بنيةً خطابية تتأدى بِها الْمَعَانِي ، وتَكتسِبُ حظوظاً مشرقة ، يُثَمِّنُها الدرسُ البلاغي ، ويعتبرها تجليات تعلو بالأسلوب حُسناً و دلالةً .

هناك أسرارٌ تتضمّنها الحيثية البيانية للالتفات في القرآن الكريم ، فهل من سبيل إلى استشفافها من خلال الدرس البلاغي الكلاسيكي وحدهُ ؟ أمْ أنّ هناك مستجدات و منجزات اُستُحدِثَتْ على مستوى علم الأسلوبية ، ونظرية القراءة و النّص ، وعلم اللسانيات ، وعلوم تحليل الخطاب ، و من خلال مناهج التفكيك و البنيوية ، ونظرية القراءة و ما إلى ذلك ؟.

إنّ هذه العلوم وغيرها تندرج ضمن منظومة الإنسان المعاصر ، وقد كان لها الإسهام الحقيقي على صعيد ترسيخ علم الجمال بمختلف مظاهره سواء النَّصي منها أو التشكيلي . وحيث أنّ الخطاب القرآني هو في هويّته خطاب تعبيري يُوظِّفُ الكلمة لكنّه يُفاعِلُها برؤية التشكيل ، فسنُحاوِلُ التعويلَ على مكتسبات العلوم النّصية ونظرية الإبداع ، وفقه الخطاب المعياري (النحو والصرف والبلاغة) والنظرية التركيبية (التوليد) ، من أجل أن نقرأ أشكال الالتفات في القرآن على أكثر من مستوى .

سنتعرّف على طبيعة الالتفات في القرآن من حيث هو(Syntaxe Et lexique) ، يعني مفردات تركيبية ، من حيث أنّه قاعدة أدائية تعبيرية ، من حيث أنّه بنية جمالية ، ومن حيث أنّه شاهدٌ بياني ترسَّختْ به زخرفية القرآن القائمة على البعد التبليغي العضوي ؛ إذْ لا مجال للزيادة والحشو والمجانية في بنية القرآن .

مِنْ هُنا جاءت فكرة اختياري هذا الموضوع مجالاً للبحث علَّنِي أُوَفَّقُ في إِثْراءِ الدرس اللُّغَوِي الجمالي في حقلِ القرآن الكريم ، من خلال التنبيه على ما يمكنُ أنْ يفيده درس الخطاب القرآني الفقه الإسلامي من خلال تعميق المباحث البلاغية في القرآن وعلوم التفسير .

لقد عَنْوَنْتُهُ : " بلاغة الالتفات في الخطاب القرآني قراءة في أوجه الدلالة و استنباطِ الأحكامِ . حَصَرْتُ بالبحث في أربعة فصولٍ ، و مقدمة و خاتمة .

الفصل الأوّل عقدته حول نظرة العلماء إلى أسلوب الالتفات كظاهرة لغوية شاعت في لغة العرب ، وتجسّدت في القرآن الكريم .

الفصل الثاني فصلٌ تحليلي استقرائي تناولتُ فيه بالتمثيل والاستخراج ما أمكن من أساليب الالتفات ووجوهه من خلال مدونات التفسير ، وعرضتُ فيه أقسام الالتفات بالضمائر (التكلُّم ، الخطاب والغيبة) لاعتبار هذا الضرب من الالتفات أشهر وأشمل للأنواع الأخرى .

الفصل الثالث : هو مكمِّل للفصل الثاني من حيث أضرب الالتفات ، وفيه ضربان ؛ الالتفات بالأفعال وبالأعداد ، ونجدهما يتداخلان مع الالتفات بالضمائر .

الفصل الرابع : خَصَّصْتُه لكيفيات استثمار الالتفات في العلوم الشرعية لاستنباط الأحكام الفقهية والبيانية ، حسب ما أسَّسَهُ الفقهاء البيانيون والفقهاء الشرعيون من قواعد فقهية تتماشى وهذا الأسلوب ، ودليلنا في ذلك هو جهودُ علماء البلاغة و الإعجاز الذين عرضوا لظاهرة الالتفات في القرآن العظيم .

ولا يَخْفَى ما في اتجاهِ البحث من أهميّةٍ ، وفي ذلك أَجِدُ هذا الموضوع القرآني بشقيه البياني الدلالي والمعياري الشرعي من الحوافز ما يَدفَعُني إلى اِسْتِقْصاء جوانبه ، وارتياد عوالمه .

وحتماً قد توَّجْنا الخاتمة بما توصَّلْنا إليه من نتائج أَلهَمَتْنا بها المقاربة واحتكاكنا بالمصادر والمدونات بشتى مستوياتها لا سيما التفسيرية ، وتلك التي نَحَتْ منحًى إعجازياً دون أنْ نُغْفِلَ كُتُبَ الأصوليين مِمَّنْ قرأوا الخطاب القرآني ، جمعتْ كتُبُهم بين المدلول البلاغي ، والمضمون الفقهي التشريعي .

فالالتفات في اللّغة العربية أسمى من حصره في مجموعة أصناف تعبيرية ، إنّما هو جزء من أسرار الإعجاز القرآني ، التي لم ولن يبلغ الإحاطة بها بشر ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف : 109]

ولا بأس أن أشير إلى أنّني اعتمدت في بعض المصادر على نسختين مختلفتين في الطبعة ، كتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، فالأولى تقع في أحَدَ عَشَرَ جُزْءاً ، والتي ينقصها الجزء السابع ، فَوَثَّقْتُ بياناته من الجزء السادس من النّسخة الثانية الّتي تقع في عشرة أجزاء .

كمـــا اعـــتمدت في توثيق بعض الأبيات الشعرية ، الّتي لم أعثر على دواوين قائليها ، على الموسوعة الشـــعرية (قـــرص مضغوط) ، للمجمع الثقافي السوري ، وقد أشرف على هذه الموسوعة الدكتور "محمـــد أحمد السويدي " ، وراجعها جماعة من الدكاترة هم على التوالي : محمد رضوان الدايه ، أحمد راشد الثاني ، حاتم الضامن ، سعيد الفاضلي ، عبد الله السريحي ، قاسم حداد ، نوري الجراح .

ولا يفوتنـــي فـــي ختام هذا البحث أن أتوجّـــه بـــجـــزيل شكري وخالص امتنانـــي إلـــى كلِّ مـــن أَسْـــهَـــمَ مـــن قـــريب أو بعيد فـــي هذا البحث من أساتذة وزملاء ، لم يُؤْلُـــوا جُهداً ، ولم يَـــدَّخِرُوا نُصْـــحـــاً عملاً منهم علـــى خدمـــة القرآن العظيم ولـــغـــتـــه .

وأســـــأَلُ اللّـــــهَ فـــي ذلـــك الـــتـــوفـــيـــقَ والـــسَـــدَادِ .

مدخل

مدخـــل

يقـــول بعض أهلُ البلاغة إنَّ الالتفاتَ هو خلاصةُ علم البيان ويرى فيه بديعَ البديعِ لما فيه مـــن انصراف الخطاب من حالة إلى أخرى ومن وضعية إلى غيرها ؛ ممَّا يتلاءم مع نفسية المتكلم أوحـــال الســـامع أو جماعهما. فالمتكلم يتنقل عبر أنساق الكلام المختلفة بما يُحرِّره مما في النسق الـــواحد مـــن الرتابة ، وبما يبرّر قدرته على تصريف القول وهذه الدراسة تتّجه إلى توضيح ذلك وبيان ما يكون عليه التصريف من وجوه وما ينحو إليه من تلوين لمعنى الخطاب ؛ إذْ الخطاب هو قاعدة المساجلة المفيدة بين باث و متلقٍ تربطهما علاقة مفاعلة .

والالتفات من الأساليب العريقة في اللغة العربية ، فقد جاء في كتب السكاكي (ت 626 هـــ) فـــي ســـياق حديثه عن مصطنعي القول المبين ،قوله : " أَفَتَرَاهُمْ يحسنون قِـــرَى الأشباح (1) فـــيخالفون فـــيه بـــين لون ولون ،وطعم وطعم ولا يحسنون قِـــرَى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد ." (2) لذلك كان اعتناؤهم بـــهذه القِـــرى أكثر واهتمامهم فيه أوفر .

مفهوم الالتفات

ومـــرجع التلوين المذكور إلى تغيير الأسلوب من صيغة التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ ،شرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، فمثلاً قول الله تعالـــى ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه : 72، 73] ، نجد أنَّ الضمير (أنت) في الجملة الأولى للمخاطب ، وأنَّ الضمير في (إنَّا) في الجملة الأخيرة للمتكلم وفي هذا انتقال من الخطاب إلى التكلّم ومع ذلك لا يُسمّى التفاتا لأنّ المراد ليس واحدا.

ولقيمة الالتفات في البلاغة العربية أطلق العلماء عليه "شجاعة العربية"(3) لأنّ الشجاعة هي الإقـــدام ، و أنَّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ، ويتورّد ما لا يتورّده سواه (4).

---

(1) القرى = ما يُـــقدَّمُ للضيف .انظر المنجد في اللغة والأعلام . ص : 626 . ط 27 – 1984 م – دار المشرق . بيروت . لبنان .

(2) السكاكي . "مفتاح العلوم " ص : 199 . الطبعة الثانية – 1407هـ/ 1987م – دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

(3) انظر نجم الدّين بن الأثير . جوهر الكـــنز : ص : 118 منشأة المعارف بالإسكندرية .جلال حزي وشركاه .

(4) ضياء الدين بن الأثير . المثل السائر : 2 /3. : 1420هـ / 1999م . المكتبة العصرية .صيدا .بيروت .

فـتحمله شجاعته في الحرب على التقدم والتأخير والقرب والبعد ، والإقبال والإدبار ، وقَلَّ ما يكـونُ آخذًا في موقفِ الحرب إلى جِهَةِ اليَمينِ حتّى يأخُذَ جانبَ الشِمَال وبالعكسِ ، أو مواجهة بالقتال حتىّ يلتفت وراءه ، مُنَاوِشاً من يقاتله .

فالالْـتِفَات مَظْهَرٌ من مظاهر الشجاعـة العربية وقدرتها على تفتيق الكلام وتشقيقه والذهاب به إلى حيث يريد مُرسِلُ الخطاب منه لإيصال فكره ووجدانه ،والتأثير به على القارئين أوالسامعين .

كمـا يفـتح مختلف الدروب برفقة لغته الشجاعة التي تكون معه فلا تتخلى عنه ولا تخذله ، بل تسبقه إلـى وجهته الجديدة لتمنح الحكمة وفصل الخطاب (1).

وقد خَلُصَـتْ معظمُ الدراسات البلاغية إلى أنّ الالتفات يدخل تحت أضربٍ ثلاثة ؛ وتتفرّع عن كلُّ ضربٍ أقسام عدّة :

- الضرب الأوّل : الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة .
- الضرب الثانـي : الرجوع من فعل المضارع إلى فعل الأمر. (2)
- الضرب الثالث : الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد أو من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع .

أما الضرب الأوّل فقد قسّمه علماء البلاغة إلى ستّة أقسام حسب مـدارات الضمائر :

الأوّل : الـتفات مـن الـتكلم إلى الخطـاب ،كقـولـه تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 22] أي : (وإليه أَرجِعُ) ، فالتفت من التكلّم إلى الخطاب .

الثانـي : الـتفات من التكلُّم إلـى الغيبة ، كقولـه تعالـى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر 1، 2] أي : (فصلِّ لنا) ، فالتفت من التكلُّم إلى الغيبة .

الـثالث : الـتفات مـن الخطـاب إلى التكلُّم كقوله تعالـى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ . [يـونس:21] علـى أنّه سبحانه و تعالـى نزّل نفسه منـزلة المخاطب ، فالضمير فـي (قل) للمخاطب ، وفي (رسلنا) للمتكلّم . " وقد زعم أحـد الباحثين أنّهُ لم يعثر له على شاهد ".(3).

---

(1) د.عبده عبد العزيز قلقيلة ، البلاغة الاصطلاحية ، ص : 316 . ط.4 – 2001 – دار الفكر العربي . القاهرة – بتصرف –

(2) من العلماء مَنْ يُدخِل هذا الضرب في باب " الخروج عن مقتضى الظاهر " ولا يعدُّهُ من أنواع الالتفات . انظر :عروس الأفراح :1 / 386 . تحقيق الدكتور خليل إبراهيم خليل – الطبعة الأولـى – 1422هـ/ 2001م . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

(3) حفني شرف . الصور البديعة . 2 / 126 نـهضـة مصر . عن فن البلاغة لعبد القادر حسين . ص : 281 . مطبعة الأمانة .مصر .

الـرابع : التفات من الخطاب إلى الغيبة ؛ مثل قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف :70، 71] فانتقل من الخطاب إلى الغيبة ولم يقل (يُطاف عليكم).

الخـامـس : الـتـفـات مـن الغيبة إلى التكلم ؛ كقوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [فصلت :12] . فانتقل من الغيبة (أوحى) إلى التكلم (زيّنا) ولم يقل (وزيَّـن) .

الـسـادس : التفات من الغيبة إلى الخطاب ،كقوله تعالى :﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان :21، 22] فانتقل من الضمير (هم) إلى الضمير (كم) .

أ – أما الضرب الثاني فينقسم إلى أربعة أقسام : 1 – الرجوع من الفعل المضارع إلى فعل الأمر ؛ كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود : 53، 54] . " فإنّه إنّما قال (أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا) " ولم يقُلْ (وأُشْهِدُكُم) ليكون موازناً له وبمعناه لأنّ إشهادَهُ اللهَ على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلاّ تهاون بهم ، ودلالة على قلّة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عَدَلَ به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما ، وجيءَ به على لفظ الأمر "(1) وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: 93، 94].

2 – الرجوع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر ، لِمَكَانِ العناية بتحقيقه ؛ كقوله تعالى :﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : 29] .وتقدير الكلام (بإقامة وجوهكم عند كلّ مسجدٍ) فعَدَلَ عن ذلك إلى فعل الأمر .

---

(1) المثل السائر : 2 / 12 .

(2) انظر جلال الدّين السيوطي . المزهر في علوم اللّغة وأنواعها : 1 / 334 – دار الجيل – بيروت . لبنان .

3 - التعبير عن الفعل الماضي بلفظ المستقبل(2) ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر : 09] قال (فَتُثِيرُ) بلفظ المضارع الذي يدلُّ على الحال ولم يقُلْ (فأثارت) ، وهو ما يقتضيه ظاهر الكلام لأنّ قبله وبعده فعلاً ماضيًا، فحَقُّ التعبير أن يكون بلفظ الماضي أيضاً ولكنّه عبَّر بالمضارع مبالغة في استحضار صورة إثارة الرِّياح للسحاب لتتصوّرها النفوس وتستقرّ في القلوب . و كقوله تعالى أيضاً على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ .[الصافات : 102] .فقال (أرى في المنام) بلفظ المضارع ولم يقل (رأيت) وهو ما يقتضيه ظاهر الكلام لأنّ رؤيا إبراهيم عليه السلام للحلم كانت قبل زمن التكلُّم إلا أنّه عدَلَ عن التعبير بالماضي لأنّه يستحضر صورة الرؤيا التي لا تفارق خياله ؛فهو يراها ماثلة أمام بصره ، وتتجدَّدُ المرّة تلْوَ المرة ، والأليق لهذه الصورة هو التعبير بالفعل المضارع .

4 - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي : كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .[النمل : 87] ، قال (فَفَزِعَ) بلفظ الماضي بدلاً من (يَفْزِعُ) بلفظ المضارع ، وذلك لأنَّ الفزع عند النّفخ في الصور أمرٌ مُحقّقٌ لا شكَّ فيه ؛ ولمّا كان أمراً مُحقّقاً لا يَصِحُّ أنْ يُنازِعَ فيه أحدٌ عبَّر بلفظ الماضي الذي يدُلُّ على تحقُّقِ حدوث الفعل .والأمثلة من القرآن الكريم في هذا الضرب كثيرة سنقف عند بعضها في الفصل الثاني من هذا البحث .

الضرب الثالث (1) : الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد . ومن خطاب الواحد إلى خطاب الجمع ، و هذا الضرب مثل الأوّل ينقسم إلى ستّة أقسام :

الأوّل : الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين ؛ كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس : 78] التفت من خطاب الواحد (أنت) إلى خطاب الاثنين (أنتما).

---

(1) هذا الضرب عدّهُ صاحب عروس الأفراح قريباً من الالتفات لما فيه من انتقال من أحد الأساليب الثلاثة إلى آخر ، وليس التفاتاً – على حدّ قوله – لأنّ الالتفات هو انتقال من أحد الأساليب الثلاثة السابقة و هي :التكلّم والخطاب والغيبة إلى غيره – انظر عروس الأفراح :1 / 393

الثانـــي : الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع ؛ كقوله تعالـــى : ﴿ يا أيها النبيّ إذا طلّقتُمُ النساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصُوا العدّة ﴾ [الطلاق : 01].

الـــثالث : الانـــتقال من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد : كقوله تعالـــى : ﴿ قال فمَنْ ربُّكما يا موسى ﴾ [طه : 49] .

الرابع : من الاثنين إلـــى الجمع ؛ كقوله تعالـــى: ﴿ وأوْحَيْنَا إلى مُوسَى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصرَ بُيوتاً واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً وأقيمُوا الصّلاةَ وبَشّرِ المُؤمنينَ ﴾ [يونس : 87] .

الخامس:من الجمع إلى الواحد ؛كقوله تعالى في الآية السابقة ﴿ وأقيموا الصلاة ، وبشّر المؤمنين ﴾ [يونس:87]

السادس : من الجمع إلى التثنية ؛ نحو قوله تعالـــى : ﴿ يَمعْشَرَ الجنّ والإنس إن استَطَعْتُمْ أن تنفُذُوا من أقْطَارِ السّمَاوَاتِ والأرْضِ فانفُذُوا لا تنفُذُونَ إلاّ بسُلْطَانٍ * فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبَانِ ﴾ [الرحمن :33 ، 34] .فانتقل من التعبير بضمير الجمع (إنْ استطعتم أنْ تنفذوا) إلـــى ضمير التثنية ﴿ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ﴾ .(2)

هـــذا وإنّ هناك ضرباً آخر من ضروب الخروج عن مقتضى الظاهر ، وهذا الضرب هو أشبه بالضـــرب الـــثالث المذكور آنفاً ؛ وهو التعبير بواحد من المفرد والمثنى والجمع ، والمراد الآخَر ، والفرق بين الضربين هو أنّ الأوّل لم يعبّر فيه بمفرد عن جمع أو تثنية ولا عكسه ، بل استُعْمِلَ كلٌّ في معناه، ثمّ انتقل عنه لغيره (1) وهو أقسام أيضاً (2) .

---

(1) المصدر السابق : 393 .

(2) انظر عروس الأفراح : 1 / 393 و ما بعدها .

فوائد الالتفات و أسبابه :

يرى علماء البلاغة في الالتفات تجديدا لنشاط السامع وتطرية له من أنْ يسير على ضرب واحد من الكلام ووتيرة واحدة من الأسلوب فيمَلَّ سماعَهُ ، وهذا ما قال به الزمخشري (ت 538 هـ)، والسكّاكي (ت 626 هـ) .(3)، ولابن الأثير (ت 637 هـ) رأيٌ آخر يُخالف فيه الزمخشري وغيره ، وقد سبقه بهذا الرأي ابن جنّي (ت 392 هـ) .

يقول الزركشي (ت 794 هـ) في البرهان :" اعلم أنَّ للالتفات فوائد عامة وخاصة ؛ فمن العامة ، التفنُّن والانتقال من أسلوب إلى آخر لِمَا في ذلك من تنشيط السامع ، واستجلاب صفائه ، واتساع مجاري الكلام وتسهيل الوزن والقافية ."(1).

وذهب حازم القرطاجني إلى : " أنَّهُمْ " يسأمون الإستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير متكلم أو مخاطب لا يستطاب وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض " (2).

فالنفوس تسأم التمادي على حال واحدة ، وتُؤثِرُ الانتقال من حال إلى حال لاستزادة النشاط ، وقهر الملل.

هذا من فوائد الالتفات العامة أمّا الفوائد الخاصّة للالتفات فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الاختصاص ،كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 09] فعدل عن لفظ الغيبة (أرسل) إلى ضمير المتكلم (سقناه) . لإبراز القدرة على إرسال الرياح ، وإثارة السحب وإحياء الميّت ، وهذا خاص بالله سبحانه وتعالى وحده .

ومن فوائده التوبيخ ، كقوله تعالى :﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ [مريم :88، 89] فعدل عن الغيبة في (قالوا) إلى الخطاب في (جئتم) ،لأنه من يزعم اتخاذ الرّحمن ولدا لا شكَّ أنّه

---

(1) انظر الزمخشري . الكشاف : 1 / 64 . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت . لبنان ، و مفتاح العلوم : ص : 199 .

(2) الزركشي : البرهان في علوم القرآن : 3 / 325 – منشورات المكتبة العصرية – صيدا . بيروت .

(3) حازم القرطاجني . منهج البلغاء ، ص 348 ــ ط 3 _ 1986 ــ دار الغرب الإسلامي ــ بيروت .

مفتون في دينه . ويستنكر منه هذا القول الآثم وينبغي أن يُوبَّخ عليه . وتوبيخ الحاضر أشدّ نكاية وألَمًا من توبيخ الغائب وهذا سر الالتفات في الآية الكريمة .

وللالتفات فوائد وأسرار خاصة تعرف في مواضعها حسب سياق الخطاب كالمبالغة في التعجّب أو تعظيم شأن المخاطب أو الرّفق بحال المخاطب وغير ذلك من الأسرار . وسنجعل لذلك فصلاً كاملا في هذه الرسالة نتتبّع فيه أسرار الالتفات في الخطاب القرآني .

شروط الالتفات :

نظراً لتداخل أسلوب الالتفات مع غيره من الأساليب الأخرى كالاعتراض والتجريد والاحتراس وغيرها ، وضع العلماء شروطا أساسية تضبط أسلوب الالتفات ، و اتّفقوا على أن الشرط الأساسي فيه أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقل عنه . وإلاّ يلزم عليه أن يكون في (أنت صديقي) التفات . وكأنّه الْتَفَتَ من ضمير المتكلّم إلى المخاطب .لكنَّ الشرط هو أنْ يكون الملتَفَتُ عنه والملتَفَتُ إليه واحداً ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر : 1، 2] فالمُصَلَّى له هو نفسه الذي أعطى الكوثر، ومقتضى الظاهر أن يعبِّر بلفظ المتكلّم (فصلّ لنا نحن الذين أعطيناك الكوثر). لذلك لم يروا في قوله تعالى :﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه : 72، 73] ، التفاتاً ، لأنَّ المراد ليس واحداً .

وكقول ذي الإصبع العدواني ، وهو يوصي ابنه : " يا بنيَّ ! إنَّ أباك قد فَنِيَ وهو حيٌّ .. وإنّي مُوصيكَ بما إنْ حفظتَهُ بلغتَ في قومك ما بلغتُ ". (1) فعبّر أولاً عن نفسه بلفظ الغائب (أباك) ثُمَّ قال (أُوصيك) بلفظ المتكلّم .هذا فيما يخصّ الشرط الأوّل .

أما شرطه الثاني حسب تحديد علماء البلاغة أن يكون في جملتين ، صرح به صاحب الكشّاف وغيره (2) أي: كلامين مستقلين حتّى تمنع بين الشرط وجوابه (3). هذا الشرط لم يعتبره مصطفى

---

(1)عبد المنعم خفاجي و صلاح الدين محمد عبد التواب .الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام . ص :57 مكتبة الكلّيات الأزهرية . القاهرة .مصر .

(2) انظر السيوطي . معترك الأقران :1 / 246 .ط.1 – 1423هـ/ 2003م– دار الفكر .لبنان . وانظر أيضاً محمد علي بن علي بن التهانوي الحنفي (ت . 1158هـ) . " كشّاف اصطلاحات الفنون ". 4 / 66 – ط .1 . 1418هـ / 1998 م – دار الكتاب العلمية – بيروت .لبنان .

(3) البرهان في علوم القرآن : 3 / 331 .

شريقن في رسالته عند تعقيبه على بدر الدين الزركشي ،حيث قال : " ولا أدري كيف غاب عن الإمام أن العبارة مؤلّفة من جملتين سواء اعتبر الواو في (وإليه ترجعون) للحال أو للعطف ، وإن كنّا لا نعتبر هذا الشرط مطلقاً "(1).

لكـــن هذا الشرط لا يمكن إهماله أَلْبَتَّة ، وكان الأحرى بهذا الباحث أن يستثني بعض الحالات الـــتي يكون فيها الالتفات في جملة واحدة ، ولو اطّلع على ما قاله السُّبكي في عروس الأفراح ما كان لِيَنفِيَ هذا الشرط مطلقاً ، بالرغم من أنّ هذا الكتاب أساسي لا يكاد يستغني عنه باحث ، والآيـــة الـــتي ينفي منها الزركشي الالتفات وهي الآية [22]من سورة يس ،ليس مـــن اجتهاد الزركشي وإنّما تطرّق إليها العلماء من قبل ولهم آراء في ذلك ، فعلى رأي السكاكي فيها تجريد والـــتفات ، وعلى رأي ابن الأثير فيها التفات ، أمّا السُّبكي والزركشي و السيوطي فيروا فيها تجريداً دون الالتفات. (2) وخير تخريج للآية ما قاله ابن الأثير فـــي المثل السائر .(3)

و للسُّبكي رأي آخر وهو أنّه لا مفرَّ من وجود الالتفات في جملة واحدة ،حيث يقول معلّقاً على أبـــيات امريء القيس في قوله (وذلك من نبإ جاءني) أن فيه التفاتاً في (جاءني) :" لأنَّ (ذلك) خطـــاب و (جـــاءني) تكلّم ، فلزِمَ الالتفات في جملة واحدة "(4). ثم وضّح ذلك في موضع آخر فقـــال :" والظاهـــر أنّهم يريدون بالجملتين ، الكلامين المستقلّين حتى يمتنع الالتفات بين الشرط وجـــوابه مـــثلاً وكلام البيانيين في إيجاز الحذف وغيره يُبيِّن أنّهم إنّما يريدون بالجملة ، الكلام المستقل بنفسه ."(5)

وقد علّل على قوله بشواهد من القرآن الكريم فقال : " نعم قد ظفِرْتُ في القرآن الكريم بمواضع قـــد يُقـــال إنَّ الالتفات فيها وقع في كلام واحد ، وإنْ لـــمْ يكنْ من جزأي الجملة ، منها قوله تعالـــى : ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ولِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ [القصص : 59].

---

(1) مصـــطفى شـــريقن . أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره . ص : 86 .رسالة ماجستير إشراف .د .عبد الكريم بكري معهد اللغة والأدب العربي . جامعة وهران .

(2) انظر عروس الأفراح : 1 /374 . البرهان : 3 / 315 ، و معترك الأقران :1 / 244 و الإتقان : 2 / 166 ط .1424هـ /2003م (وإنْ كان السيوطي أعاد كلام الزركشي نفسه و بلفظه) .

(3) انظر المثل السائر : 2 / 07

(4)عروس الأفراح : 1 / 376 .

(5) المصدر نفسه :1 / 379 .

وقوله تعالـــى :﴿وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنَبِي﴾ بعد قوله (إنَّا أحللنا لكَ) التقدير : إن وهبت امرأة نفسها للنّبي أحللناها لك ، وجملتا الشرط والجزاء كلام واحد " (1) .

قـــال صاحب التلخيص جلال الدين القزوينـــي :"والـــمـــشهور عند الجمهور أنَّ الالتفات هو التعـــبير عـــن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، وهذا أخصّ من تفســـير السكاكي لأنَّه أراد بالنقل أن يعبِّر بطريق من هذه الطرق عما عُبِّرَ به عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يُعبِّر عنه بغيره منها ، فكلّ التفات عندهم التفات عنده من غير عكس "(2).

وما نستخلصه من هذا القول هو أنَّ الشرط في الالتفات أن يكون التعبير الثاني على خلاف مـــا يقتضيه الظاهر (3) ، قاله سعد الدّين التفتازانـــي في شرحه على التلخيص: "شرط أن يكون التـــعبير الثانـــي على خلاف مقتضى الظاهر." (4) .

---

(1) المصدر السابق : 1 / 380 .

(2) جلا ل الدين القزويني . الإيضاح في علوم البلاغة .ص : 48 . ط .31419 هـــ/1998م . مؤسسة الكتب الثقافية .بيروت .لبنان .

(3) مقتضى الظاهر : هو ما يقتضيه ظاهر المقام قبل الشروع في الكلام .

– خلاف مقتضى الظاهر : هو إخراج الكلام عن أسلوب هو خلاف مقتضى المقام إلى أسلوب هو مقتضاه .

(4) مختصر السعد : التفتازانـــي . ص: 119 ، 120 – ط . 11423هـــ/ 2003م –المكتبة العصرية .صيدا . بيروت .

الفصل الأوّل

الالتفات من منظور علماء اللّغة :

1 – نشأة الالتفات والاصطلاح عليه .

2 – غائية الالتفات وأسراره البلاغية .

3 – قضايا اختلافية حول الالتفات :

أ) حول موقع الالتفات في علوم البلاغة .

ب) حول التفاتات امرئ القيس .

ج) بين الالتفات والتجريد .

الالتفات من منظور علماء اللغة :

1 - نشأة الالتفات والاصطلاح عليه :

يعتبر الالتفات من الأساليب العريقة في اللّغة العربية ومن محاسن الكلام لما له من وقع مؤثّر في النفس ، فهذا امرؤ القيس وهو الشاعر الجاهلي يستخدمه أكثر من مرة في ثلاثة أبيات متتالية حيث يقول (1):

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْـمَد ... وَنَـامَ الخَلِيُّ ولَمْ تَرْقُـد

وبَاتَ وبَاتَـتْ لَهُ لَيْلَةٌ ... كَلَيْلَة ذي العَائِـرِ الأَرْمَد

وذَلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِـي ... وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أَبِـي الأَسْوَد

فقـال الزمخشري معلّقاً على هذه الأبيات في معرض تفسيره لسورة الفاتحة :" وقد الْتَفَتَ امرؤُ القـيس ثـلاث الـتفاتات في ثلاثـة أبيات." (2) ثمّ قال : "وتلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصـريفهم فيه ، ولأنّ الكلام إذا نُقِل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختصّ مواقعه بفوائد ".(3)

ولقـد حَفِـلَ القـرآن الكريم بأسلوب الالتفات - من حيث هو ذروة البيان الإعجازي - باصطناع أسلوب الالتفات ولعلّ سورة الفاتحة أم الكتاب تجسّد مدى الحضور الخطابي لأسلوب الالتفات ، ففي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة 2 - 05] فالتفت من الغيبة (للّه ربّ العالمين) إلى الخطاب (إيّاك) .

وقـد تفطّـنَ القدماء إلى مثل هذا الأسلوب وأشاروا إليه لكنّهم اختلفوا في تحديد المصطلح والغاية منه كما أجمعوا على أنَّ أوّل مَنْ وَضَعَ يدَهُ على هذا اللّون من التعبير ، هو أبو عبيدة مَعْمَرُ بْـنُ المثنّى (ت 209هـ) فـي كتابه (مـجاز القرآن) حيثُ قال " والعربُ قد تُخاطبُ فتُخْبِر عن الغائب والمعنى للشاهد فتَرْجِعُ إلى الشاهد فتخاطبه ".(4) ،كما ألمح إليه الفرّاء (ت 207 هـ) فـي

---

(1) ديوان امرئ القيس : ص : 371 ، 372 . ط . 1 . 1419 هـ / 1992 م - المكتب الإسلامي - بيروت . لبنان .

(2) الكشاف : 1 / 64 ، 63 .

(3) انظر صفحة : من هذه البحث .

(4) أبو عبيدة مَعْمَرُ بْنُ المثنّى .مجاز القرآن : 2 / 139 ، وينظر :1 / 11 ، 273 ، 252 . ط 2 . 1981 م - مؤسسة الرسالة - بيروت . لبنان .

كـتابه معانـي القرآن ولم يسمّه ، إذْ أشـار إليه في قوله تعالى :﴿ قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا* فئةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ .[آل عمران : 13].ثمّ استشهد بآية أخرى تتوفر على هذا اللّـون من التعبير ، وهي قوله: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ .[يونس : 22] .(1) فإتيانه بهذه الآية الثانية دلالة على أنّه يجوز استخدام هذا الأسلوب بالانتقال من الخطاب إلى الغيبة .

إلاّ أنَّ بعض الدارسين يرى أنّ هذا الأسلوب لم يكنْ خافياً على الخليل بن أحـمد الفراهيدي (ت 175 هـ) وتلميـذه سيبويه (ت 180 هـ)،وخاصة الضرب الثالث من أضرب الالتفات التي سَبَقَ ذِكْرُها ؛ فأورد سيبويه في باب (ما لُفِظَ به مـمّـا هو مثنى كما لُفِظَ بالجمع) قولَهُ تعالى :﴿ إنْ تتوبا إلى الله فقدْ صَغَتْ قلوبكما ﴾ [التحريم 04] ، ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما ﴾ [المائدة : 38] . وقال الخليل نظيره قولُك (فعلنا) وأنتما اثنان ، فتكلم به كما تكلّم به وأنتم ثلاثة ..." (2) .

ويـرى الزجّاج (ت 923 هـ) في كتابه إعراب القرآن أنَّ علّة الانتقال من الجمع إلى المثنى في مثل قولـهم (ضربت رؤوس الزيدين) عندهم أنه أفصح من (رأسيهما).ويعلّل هذه الفصاحة بأنّهم " كرهوا أنْ يجمعوا بين تثْنِيَتَيْنِ في كلمة واحدة ، فصرفوا الأوّل إلى لفظ الجمع " (3)

ولعـلَّ الأصمعي (4) أوّل من سمّاه " الالتفات " ، فقد حُكِيَ عن إسحاق المَوْصِلي (ت 235 هـ) أنّه قال : أتعرف التفات جرير ؟ قال : وما هو ؟ فأنشدنـي :

أتنسـى إذْ تُودِّعنـا سُلَيمـى بعُودِ بَشَـامـة ، سُقِيَ البَشامُ (5)

ثمّ قال : أما تراه مُقبلا على شعره ، إذْ التفتَ إلى البشام فدعا له (6)

وقال شوقي ضيف :"ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الأصمعي هو أوّل مَنْ اقترح اسمه الاصطلاحي في البلاغة "(7).

---

(1) معاني القرآن . ج1 .ص: 195 .الطبعة الثالثة 1403هـ/ 1983م ـ عالم الكتب .بيروت . لبنان .

(2) سيبويه ، الكتاب ، ج 3 . ص :621 – 622 . ط .3 – عالم الكتب – بيروت .لبنان

(3) إعراب القرآن للزجاج ج 3 / ص 787 المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنشر 1963 .

(4) أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البلاغيّة و تطوُّرها : ص 184 . ط 2 . 2000م . مكتبة لبنان . ناشرون .

(5) البشام : شجر عطر الرائحة ورقه يُسوِّدُ الشَعر ، ويُستاكُ بقُضُبِه ./ الديوان .ص : 417 . دار صادر و دار بيروت . 1384 هـ / 1964م . بيروت ، ورواية البيت فيه : " بِقَرْعِ بشامة " .

(6) ابن رشيق ،.العمدة ، ص: 334 – ط .1 – 1424 هـ/ 2003 م – دار صادر . بيروت .لبنان

(7) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص 30 ، ط3 ، دار المعارف ، مصر

وأدرجه ابن قتيبة (ت 276هـ) في كتابه " تأويل مشكل القرآن " ضمن باب "مخالفة ظاهر اللّفظ معناه "(1) فقال: "ومنه أنْ تُخَاطِبَ الشاهد بشيءٍ ثمَّ تجعل الخطاب له على لفظ الغائب، كقوله عزّوجلّ : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ [يونس : 22] . وكقول الشاعر [النابغة الذبياني] :

يا دار ميَّة بالعلياءِ فالسَّند أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ (2).

فخاطب ثمَّ قال : " أقْوَتْ " .

ويشير المبرّد (ت 285 م) إلى أنَّ الالتفات كثير جداً : " والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب ، كقول ذي الرّمة :

وما كُنتُ مُذْ أبصرتني في خصومة أُراجِعُ فيها يا ابنة الخيرِ قاضيا

من آل أبي موسى ترى القوم حوله كأنّهم الكروانُ أبصَرْنَ بازيا

فقال (ترى) ولم يقل (ترين) وكانت المخاطبة أوّلاً لامرأة .

وقول عنترة :

شَطَّتْ مزَارُ العاشقين فأصبحت عسِراً عليَّ طِلاَبُكِ يا ابنةَ مَخرمِ(3)

فكان يتحدَّث عنها ثمَّ خاطبها .

إلاَّ أنَّ المبرّد حينما بحث الالتفات في قوله تعالى : " حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها " (يونس : 22) . رأى أنَّ المخاطبة كانت للأمّة ثمَّ انصرفت إلى النَّبي عليه السلام إخباراً عنهم .(4)

والمفهوم من الآية أنَّ الخطاب مُوجَّهٌ إلى الناس أولاً بطريق الخطاب ثمّ أَخْبَرَ عنهم بطريق الغيبة ، فالالتفات في قوله (وجرين بهم) وليس كما زعم المبرِّد ، بأنَّ الالتفات في قوله (حتى إذا كنتم) باعتبار أنَّ الخطاب كان مُوجَّهاً إلى الأمَّة ثمَّ انصرف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(1) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ص : 177 – ط.1 – 1423 هـ /2002 م دار الكتب العلمية . بيروت .لبنان .

(2) الديوان : ص : 30. تحقيق كرم البستاني . دار صادر / دار بيروت ط 1383هـ / 1963م بيروت . لبنان .

(3) وفي الديوان بلفظ آخر :[حَلَّتْ بأرض الزائرينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِراً عليَّ طِلاَبُكِ يا ابنةَ مَخرمِ] ، انظر الديوان .ص:16 .ط 1398هـ/ 1978م .دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت . لبنان .

(4) المبرد . الكامل .1 / 270 – 2 / 34 .

وبهذا استحقَّ المبرّد نقد المرصفي اللاذع فهو يعقّب عليه بقوله : "وهذا هذيان من أبـــي العباس وغفلة عن سياق الآية ، وإنّما الخطاب فيها للنّاس لا للنّبي عليه السلام . قال تعالى : ﴿هوالذي يسيّركم في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك﴾، ثمّ صرف ذلك الخطاب إلى الغيبة ، فقال : ﴿وجرين بهم﴾ كأنّه يريد أنْ يؤكّدَ حالهم لمن بعدهم فيستنكروه ويستقبحوه " (1) .

ورأي المبرّد في الالتفات بصفة عامة يجـري على ما كان مستقراً عليه منذ كتاب سيبويـه .

ويُعَـــدُّ الالتفات أوّل محاسن الكلام الّتي ذكرها ابن المعتز (ت 296 هـ) بعد فنون البديع الخمســة ، وهــي الاســتعارة ، والتجنيس و المطابقة و ردُّ أعجاز الكلام على ما تقدّمها ، والمذهب الكلامي . فقد عرّف الالتفات فــي كتابه " البديع " بقوله : "هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الاخبار،وعن الاخبار إلى المخاطبة ،وما يُشبِــه ذلك " (2) .ولم يعد ابن المعتز إلا هذا النوع وماعداه فهو عنده اعتراض كلام في كلام .

وســـمّــاه ابــن وهب الصرف ، وقال : " وأما الصرف فإنّهم يصرفون القول من المخاطب إلــى الغائب ومن الواحد إلى الجماعة " (3)

كمــا أطلق عليه ابن منقذ (ت 584 هـ) اسم " الانصراف" وقال : " وهو أنْ يرجع من الخبر إلى الخطاب و من الخطاب إلى الخبر " (4)

وكــذلك سمّاه ابن شيث القرشي فقال : " هو أن تبتديء المخاطبة بهاء الكناية ثمّ تنصرف إلى المخاطبة بالكاف وهذا يُحتمل إذا كان الأمر مما تكنّيه مهمّاً دون غيره ". (5)

وذكــره قــوم باسم الاعتراض إلاّ أنّ الاعتراض فنٌّ آخر ، ذكره قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) فــقــال : " هو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى ، فكأنّه يعترضه إما شكٌّ أو ظنٌّ بأنّ رادّاً يَرُدُّ عليه قوله أو سائلاً يسأله عن سببه أو يحل الشكُّ فيه " (6)

---

(1) رغبة الآمل على الكامل للمرصفي : 4 / 187 .ط.1 .1928 .عن أثر النحاة في البحث البلاغي : ص .203 .

(2) ابن المعتز .البديع ، ص : 73 ط 1 – 1422 هـ / 2001 م .تحقيق : عرفان مطرجي . مؤسسة الكتاب الثقافية – بيروت . لبنان –

(3) البرهان في وجوه البيان . ص : 152 عن معجم المصطلحات البلاغيّة و تطوُّرها : ص 184 .

(4) البديع في نــقد الشعر . ص : 200 عن المرجع السابق ص : 184 .

(5) معالم الكتابة . ص: 86 . عن المرجع السابق ص : 184 .

(6) أبو هلال العسكري ، الصناعتين . ص : 439 .ط.2 – 1404 هـ / 1984 م – دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

وهـذا هـو الاعتـراض أو الـرجوع ، وقد عـدَّهُ العسكري (ت 395 هـ) النوع الثانـي من الالتفات، أما النوع الأوّل فعنده ما ذكره الأصمعي .

وبذلك نخلص إلـى أنَّ الالتفات لم يكن واضحاً عند قدامة والعسكري وضوحه عند المتقدمين.

ونقل الباقلانـي (ت 403 هـ) رواية الأصمعي السابقة ، وعلَّـقَ على بيت جرير :

مَتَى كان الخِيامُ بذي طُلُوحٍ ؟ سقيت الغيث أيّتها الخيام (1)

بقـوله : " و معنى الالتفات أنّـه اعتراض في الكلام قوله (سقيت الغيث) ولو لـم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً وكان الكلام منتظمـاً . وكان يقول : متى كان الخيام بذي طلوح أيّتُها الخيام . فمتى خرج عن الكلام الأوّل ثمّ رجع إليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتاً " (2)

ولذلك قال الحاتمي (ت 388 هـ) : " وقد سمّاه قوم الاعتراض " وقال ابن رشيق (ت 463هـ) : "وهو الاعتراض عند قوم ، وسماه آخرون الاستدراك " (3)

وقال الصنعاني : " ويسمى الاعتراض " ولكنّه عرّفه تعريف الالتفات فقال : " وهو الانصراف عن الاخبار إلى المخاطبة ، وعن المخاطبة إلى الاخبار "ثمّ قال " وقيل الالتفات هو أن يكون المتكلّم آخـذاً في معـنى فـيعدل عنه إلى غيره قبل تمام الأوّل ثمّ يعود إليه فيُتمّه فيكون فيما عدَلَ إليه مـبالغـة وزيادة حسنة " (4) وأشار الباقلانـي إلى التداخل الحاصل بين الالتفات والاعتراض والـرجوع قـائلاً : " ومنهم من لا يَعُدُّ الاعتراض والرجوع من هذا الباب ، ومنهم من يُفْرِدُهُ كقول زهير (5):

قِـفْ بالدِّيـار الّتي لم يعفها القِدمُ نَعَمْ وغيَّرَها الأرواح والدِّيَـمُ

وفي العمدة بلفظ آخر(7) : حَيِّ الدِّيـار الّتي لم يُبْلِها القِـدمُ بلى وغيَّرها الأرواح والدِّيَـمُ

وأشار ابن رشيق إلى أنَّ هذا هو الاستدراك .

وهكذا بدأ هذا الأسلوب يدخل فـي دراسة البلاغـة والنقد ، حتـى أنّهم خصّصوا له

---

(1) إعجاز القرآن : 121 .ط.4 – مؤسسة الكتب الثقافية .

(2) الديوان . ص : 416 .

(3) العمدة : ص : 332 .

(4) الرسالة العسجدية . ص : 146 . عن معجم المصطلحات البلاغيّة و تطوُّرها :ص :185 .

(5) إعجاز القرآن . ص : 123. وينظر ديوان زهير . ص : 90 دار صادر / دار بيروت 1384 هـ /1964 م .بيروت . لبنان .

(6) العمدة : 334

فصولاً كاملة . وهذا التبريزي (ت 502 هـ) يتحدّث عنه في فصل مستقل ، في حين أفرد للاستدراك والرجوع فصلاً آخر ، وقال عنه : " الالتفات أنْ يكون الشاعر في كلام فيعدل عنه إلى غيره قبل أنْ يتمَّ الأول ، ثم يعود إليه فيُتمَّه فيكون فيما عَلَ إليه مبالغة في الأوّل وزيادة في حسنه " .(1)

وبدأ الالتفات يأخذ معنى دقيقاً بعد أنْ بدأت البلاغة تستقرّ ، وقد عرّفه الرازي (ت 344 هـ) بقوله : " إنَّهُ العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو على العكس " .(2)

ولعلَّ ابن جني (ت 392 هـ) أوّل من وَقَفَ على حقيقة الالتفات وسرِّه البلاغي ، إذْ أدرجه ضمن صور الانحراف تحت عنوان " شجاعة العربية ". (3)

وجاء بعده الزمخشري (ت 538 هـ)ووقف عند هذا الأسلوب وقفات جليلة كانت مطيّة لكلّ من جاء بعده أمثال السكاكي (ت 626 هـ) ، وضياء الدين ابن الأثير (ت 637 هـ) وحازم القرطاجني (ت 684 هـ) ، الذي يرى أنَّ التحوُّل الأسلوبي له صلة بالاعتراض والتخلُّص والاستطراد والاستدراك والاحتراس ،وهذا ماجعله يربط بين الالتفات والاستطراد ؛ فقال : " أو يخلصون إليه خلوصاً التفاتياً على جهة الاستطراد ... وأهلُ البديع يسمّون ما كان الخروج فيه بتدرُّجٍ تخلُّصاً ، وما لم يكن بتدرّج ولا هجوم ، ولكن بانعطاف طاريء على جهة من الالتفات استطراداً ".(4)

فسماه التدرّج والانعطاف اللطيف ، إلاّ أنَّ ثَمَّةَ فرقاً شاسعاً بين الالتفات والاستطراد ، وقد نبَّه إليه ابن رشيق من قبل إذْ قال : " و منزلة الالتفات في وسط البيت كمنزلة الاستطراد في آخر البيت ، وإنْ كان ضدَّه في التحصيل ، لأنَّ الالتفات تأتي به عفواً وانتهازاً ، ولم يكن لك في خلَد فتقطع كلامك ثمّ تصله بَعْدُ ، إنْ شئتَ . والاستطراد تقصده في نفسك وأنت تحيد عنه في لَفظِكَ حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره أو تُلقيه إلقاءً وتعود إلى ما كنتَ فيه " (5)

---

(1) قانون البلاغة : ص : 447 . عن معجم المصطلحات البلاغيّة و تطوُّرها :ص :175 .

(2) نهاية الإيجاز ص 112 / والإيضاح في شرح مقامات الحريري ص : 18 . عن المرجع السابق .ص : 175 .

(3) انظر الخصائص : ج 2 ص :360 .

(4) منهاج البلغاء : ص : 316، 317. الطبعة الثالثة .1986 . دار الغرب الإسلامي – بيروت لبنان –

(5) العمدة – ص :333 .

وعلـــى الرغم من هذا التفصيل من ابن رشيق ، إلا أنّنا وجدنا من الباحثين في عصرنا مَن اعتبر أسلوب كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ صورةً صادقةً للالتفات لِـــمَـــا حَفِلَ به هذا الكتاب من استطراد وانتقال صاحبه من موضوع إلى موضوع .(1)

ولعـــلّ كـــلام ضـــياء الدين ابن الأثير عن الالتفات خصوصاً كان مفصّلاً ، وعن علوم البلاغة عمـــوماً، وكـــلّ مَنْ جاء بعده كان عالة عليه ، إذْ حذا حذوَه ولم يخرجْ عليه تحديداً لمفهومه أو تقسيماً لأضربه وأنواعه ، أو تفصيلاً لِلَطائفه وأسراره ، وحتى في تصنيفه في علوم البلاغة.

ومِمَّـــا لا شكَّ فيه أنَّهُ قد استفاد من سابقيه أمثال ابن جنّي و عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) إمام البلاغة ومؤسّسها ، والزمخشري .

ولا ننسى السكّاكي وهو معاصر لابن الأثير في كتابه "مفتاح العلوم " إذْ أحدث ضجّة في علوم البلاغة ، فاستحقَّ هذا الكتاب كلَّ العناية شرحاً وتلخيصاً ، لِـــمـــا تميَّـــزَ به من أسلوب علمي عَسِر يَكِدُّ الذهن و يُعَنِّيه و يُحيِّره في الوصول إلى المراد منه . ولهذا ظلّ دارسو البلاغة - قرابة خمســـة قـــرون متتالـــية ابتداءً من أوائل القرن السابع للهجرة - عاكفين على دراسته وشرحه وتلخيصـــه ، وكأنَّـــه لم يُؤَلَّـــف في الـــبلاغة العربية غير هذا الكتاب الّذي استأثر باهتمامهم وعنايتهم.(2) وكان أوّل من اعتنـــى به وشرحه " قطب الدين الشـــيـــرازي (ت 710هـــ) ومحمد ابن مظفر الخلخالي (ت 745 هـ) والسيِّد شريف الجرجاني (ت 816) ، وابن كمال باشا (ت 940 هـ) .

ومـــمَّن عُنِـــيَ بتلخيصه بدر الدين ابن مالك (ت 668 هـ) والخطيب القزويني (ت 739 هـ) وعبد الرحمن الشيرازي (ت 756 هـــ) ولعلّ التلخيص الذي لقي اهتمام العلماء الشارحين له، هو تلخيص الخطـــيب القـــزويني ، ومـــن شـــرّاحه السُّبكي (ت 771 هـ) في عروس الأفراح ، وسعد الدين التفـــتـــازانـــي (ت 772هـ) في المطوّل ثمّ في مختصر السعد .

إلاّ أنَّ أوّل من خصّص رسالة مفصّلـــة عن أسلوب الالتفات مقتفياً أثرَ سابقـــيه رادّاً بعض

---

(1) محمد بركات . دراسات في البلاغة – ص : 156 ط 1 .1403هـ / 1984م – دار الفكر – عمان الأردن .

(2) عبد العزيز عتيق . في تاريخ البلاغة العربية . ص : 278 – دار النهضة العربية – بيروت لبنان .

آرائهم ومُصوِّبـاً بعض هفواتهم ، مقدِّراً لجهودهم ، هو ابن كمال باشا (ت 940 هـ) في رسالة بعنوان " تلوين الخطاب " .

واستند الخطيب القزويني في ضبط مفهوم الالتفات إلى رأيين رأي الجمهور ورأي السكاكي . فالالـتفات عند الجمهور هو " التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بغيره ، أما عـند السكاكي فهو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلّم والخطاب والغيبة) سواء عـبَّـرَ عن معنى بغيره قبله أو كان مقتضى الظاهر أنْ يُعبِّر عنه بغيره ". (1)

فكلّ التفات عند الجمهور هو التفات عند السكاكي ولا ينعكس ، فيتحقّق الالتفات عند السكاكي بتغير واحد ، فهو لا يشترط تقدّم التعبير ، والجمهور يشترطونه .وهو يوافق الجمهور في تسمية ما تقـدّم التعـبير عنه بطريق آخر من الطرق الثلاثة التفاتاً ويخالفهم في جعل ما لم يتقدم التعبير عنه بطريق آخـر مـمّا كان مقتضى الظاهر أنْ يعبِّر عنه بغيره من باب الالتفات .(2)

وهكذا أخذ أسلوب الالتفات اهتمام اللّغويين لِمَا فيه من أسرار بلاغية إضافة إلى جمالية الأداء و جزالة التركيب .

---

(1) الخطيب القزويني ، هامش الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق عبد المنعم خـفاجي : 2 / 92 . ط 3 – دار الجيل . بيروت .بتصرّف.

(2) المصدر السابق : 2 / 87 ، ويُنظَر عروس الأفراح 1 / 375 ، 376 .

غاية الالتفات و أسراره البلاغية :

معظم النقاد والبلاغيين يرون أنّ الالتفات يأتي لدفع السآمة والجمود عن نمطية الأداء ، وصرامة التركيب الواحد ، والخلوص من جهامة القوالب الثابتة ؛ لذلك وقف الزمخشري على الغاية العامة للالتفات بقوله :" أنّ الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، إنّما يستعمل للتفنُّن في الكلام ،والانتقال من أسلوب إلى أسلوب ،تطريةً لنشاط السامع ،وإيقاظاً للإصغاء إليه ، وقد تختصّ مواقعه بفوائد " (1)

وقال أيضا في موضع آخر عند تفسيره للآية (21) من سورة البقرة : "وهو فنّ من الكلام جزل، فيه هزّ وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إنّ فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادّة السداد في مصادرك وموارداك. نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة ، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف، يستفتح الآذان للاستماع ، ويستهشّ الأنفس للقبول".(2)

ومعظم من جاءوا بعد الزمخشري ذهبوا هذا المذهب إلاّ ابن الأثير فقد عاب على مَنْ اقتصر على هذه الغاية حيث قال : " اعلم أنّ عامة المنتمين إلى هذا الفنّ إذا سُئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب ، وعن الخطاب إلى الغيبة ، قالوا : كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها. وهذا القول هو عكّاز العميان ، كما يُقال ، ونحن إنّما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله ." (3)

ثمّ وضّح العلّة التي بسببها استحسنوا الإكثار من توظيف هذا اللون من التعبير فقال : " وليس الأمر كما ذكره ، لأنّ الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلاّ تطرية لنشاط

---

(1) الكشاف . 1 / 64 .

(2) الكشاف :المصدر نفسه : 1 / 224 .

(3) المثل السائر : 2 / 03 .

السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه ، فإنَّ ذلك دليل على أنَّ السامع يَمَلُّ من أسلوبٍ واحدٍ فينتقل إلى غيره ليجدَ نشاطاً للاستماع ، وهذا قدح في الكلام ، لا وصف له . لأنَّه لو كان حسناً لما مُلَّ ، ولو سلَّمنا إلى الزمخشري ما ذهب إليه لكان إنما يوجد ذلك في الكلام المطوّل ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين ممّا يبلُغُ عشرة ألفاظ أو أقلّ من ذلك "(1).

هذا الرأي يوضّح لنا مدى نفاذ بصيرة ابن الأثير ، وسداد رأيه ، وما تميَّزَ به من نباهة وفطنة ودراية بغائية الالتفات و سرِّه البلاغي .

إلاّ أنَّ يحي بن حمزة العلوي استشاط غيظا من رأي ابن الأثير ، وردَّ عليه ردّاً لاذعاً ، انتصاراً للزمخشري وتصويباً لما قاله . ويرى اضطراباً كبيراً فيما قاله ابن الأثير، حيث قال: " و ما ذكره الزمخشري لا غبار على وجههِ ، وهو قولٌ سديدٌ يُشيرُ إلى مقاصد البلاغة ، ويعتضِدُ بتصرُّف أهل الخطاب ، ومَنْ مارس طرَفاً من علوم الفصاحة لاَحَ له على القرب أنَّ ما قاله الزمخشري قويٌّ من جهة النظر ، يدري كُنْهَهُ النُظَّارُ ، ويتقاعد عن فهمهِ الأغمار". ثمّ قال " وقد زعم ابن الأثير رداً لكلام الزمخشري بوجهين أحدهما أنَّهُ قال: إنَّما جاز الالتفات من أجل التنشيط للسامع ، واعترضه بأنَّ الكلام لو كان فصيحاً لم يكن مملولاً، وهذا خطلٌ وجهلٌ بمقاصد البلاغة ، فإنَّ مثل هذا لا يُزيلُ فصاحة الكلام ولا يُنْقِصُ من بلاغته ... ولكن الغرض أنَّ خروجه من أسلوب الخطاب إلى الغيبة يزيد في البلاغة ويحسِّنها ، ويكون الخطاب مع ما ذكرناه أوقع وأكْشَف عن المراد ، وأرفع " (2)

وهذه العبارة الأخيرة يبدو عليها تناقض صاحب الطراز فيما يقول ، فمن جهة ينتقد ابن الأثير ويرى أنَّ ما قاله الزمخشري هو الصواب و من جهة أخرى يرى أنَّ خروج الكلام من الخطاب إلى الغيبة يزيد في البلاغة ويحسِّنها ، فما مقدار الزيادة التي يراها العلوي ؟ وما وجهُ التحسين في ذلك ؟

---

(1) المثل السائر: 2 / 04 .

(2)الطراز : 2 / 134 – دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .

فالأحرى أنْ يُوَضِّح عبارته ويكشف عن مراده بالزيادة . ولعلَّ جرأة ابن الأثير كانت تنقصه ، حيثُ قال : " والذي عندي في ذلك أنَّ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب ، لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ؛ غير أنها لا تُحَدُّ بحَدٍّ ولا تُضبَطُ بضابطٍ " (1) .

ولا نـــدري كيف تحاشى ابن الأثير إشارة الزمخشري إلى أنَّ الالتفات قد تختص مواقعه بفوائد ؟ حيث أشار الزمخشري إلى فائدة الالتفات عند تفسيره للفاتحة (2) ومواضع أخرى من الكشاف ؟.

والحقـيقة أنَّ صـــاحب الطـــراز تحامـــل كثيراً على ابن الأثيربردِّه العنيف الذي يفتقر إلى الموضـــوعية؛ وإلاّ كيف يَنْعَتُ واحداً كابن الأثير بقوله : " وما ذكره ابن الأثير ردٌّ إلى عماية ، وقـــول ليس له حاصل ، ولا يدرك له نهاية ، وما عابَهُ إلاَّ لأنَّه لم يطَّلِع على أغواره ، ولا أحاط بكُنْهِه ، ودقيقِ أسراره ، وقد صَدَقَ مَنْ قال :

وكم من عائبٍ قولاً سليماً وآفته من الفهم السقيم (3)

والملاحـــظ أنَّ ابن الأثير لم ينتقص من شأن الزمخشري كما زعم صاحبُ الطراز ، وإنّما أثنى عليه خيراً مترحِّماً عيه بقوله : " قال الزمخشري رحمه الله " معترفاً بمكانته العلمية بقوله : " وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفنِّ الفصاحة والبلاغة ؟ ".(4)

وبالمـــثل فـــإنَّ السكاكي تأثّر كغيره بالزمخشري ؛ حيث حذا حذوه وطبّق مفهوم الالتفات في تحلـــيله بقوله " واعلم أنَّ هذا النوع أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص بالمسند إليه، ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كلّ واحد منها إلى الآخر ويسمى هـــذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني ، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أســـلوب إلى أســـلوب ، أُدخِـــل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك أليس قِرَى الأضياف سجيتهم ، ونـــحر العشار للضيف دأبـــهـــم هجيراهم ، لا مزقت أيدي الأدوار لهم أديماً ولا أباحت لهم حريماً أفتراهم يحسنون قرى الأشباح

---

(1) المثل السائر : 2 / 04 .

(2) أنظر الكشاف : 1 / 64

(3) الطراز : 2 / 135 . واليت للمتنبي ، انظر شرح عبد الرحمن البرقوقي للديوان :2 / 1138 .

(4) المثل السائر : 2 / 3 ، 4 .

فـيخالفون فـيه بين لون ولون ، وطعم وطعم ، ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد ." (1)

وهـذه الفائـدة عامة مطردة في الالتفات وهي التي تجاوزها ابن الأثير و البلاغيون لا يقتصرون عليها غالباً ، بل يُراعون للالتفات لطائف ومناسبات ، ولم يزل النقاد والأدباء يستخرجون ذلك من مغاصه . (2)

ويضـيف السكاكي على ما اتفق عليه مع الزمخشري : " وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معانٍ قلّما تتَّضِحُ إلا لأفراد بُلغائهم أو للحذَاق المَهَرة في هذا الفن ، ومتى اختصّ موقـعه بشيءٍ مـن ذلك كساه فضلَ بهاءٍ و رونق ، وأورث السامع زيادة هزّةٍ ونشاط ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ، ومحل إن كان ممّن يسمع ويعقل وقليل ما هم ".(3)

وهكـذا يـتفق السكاكي مع الزمخشري في أنَّ فائدة الالتفات تكمن في زيادة السامع هزّةً ونشاطاً وتجديداً ، كفائدة عامة إضافة إلى اختصاص مواقعه بفوائد ، ويضيف ابن الأثير على ما قاله سابقاً : " فإنّا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثمّ رأينا ذلك بعينه _ وهو ضد الأوّل _قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أنَّ الغـرض المـوجب لاسـتعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة ، وإنّما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعّب شعبا كثيرة لا تنحصر ، وإنّما يؤتى بها على حسب الموضع الذي تَرِد فيه (4) .

وذكر القرطاجني أنّهم : " يسأمون الاستمرار على ضمير متكلّم أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطـاب إلى الغيبة وكذلك أيضا يتلاعب المتكلّم بضميره فتارة يجعله ياء على جهة الإخبار عن نفسه ، وتارة يجعله كافاً أو تاءً فيجعل نفسه مخاطبا ، وتارة يجعله هاءً ، فيقيم نفسه مقام الغائب ، فلذلك كان الكلام المتوالـي فيه ضمير متكلم أو مخاطب لا يستطاب ، وإنّما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض " (5).

---

(1) مفتاح العلوم . :ص : 96

(2) الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير : 1 / 179 – بتصرف –

(3) مفتاح العلوم : ص 96 .

(4) المثل السائر : 2 / 04

(5) منهاج البلغاء : ص : 348 .

فالـنفوس تسأم السير على وتيرة واحدة ، فتؤثر الانتقال من وجه إلى آخر وهي تنتعش عندما تأخذ ألواناً شتى ، فيتجدّد نشاطها وذلك لِمَا في الكلام من تغيير وتلوين ، هذا ما نفهمه من كلام الزمخشري والسكاكي والقرطاجني ، وحسبما أورده صاحب الطراز ؛ إلا أنّه من المجحف حقّاً أنّنا إذا أردنا أن نجيء بالكلام خفيفاً بديعاً ، لجأنا إلى أسلوب الالتفات . فبعض النقاد يرى في ألوانه الـتي تـأتي دون حاجة ماسة ، ولا طائل منها ، فيها ضربٌ من التكلُّف ، وقد عابوا على المتنبي الالتفات في قوله :

وإنّـي لَـمـن قومٍ كأنّ نفوسنا بها أنفٌ أنْ تسكُنَ اللّحـم والعظمـا(1)

وكـان حـريّاً بـه أنْ يقول : (كأنّ نفوسـهـم) ليرجع الضمير إلى القوم فيتمُّ به الكلام ، واعتبروا هذا من شنيع ما وُجِدَ في شعره ، وقد قال الجرجاني إنّ هذه القضية إذا استمرت على ظاهرها تداخلت الضمائر ولم ينفصل غائب عن حاضرٍ ولم يتميَّز مخاطب ، ثمَّ يُفصِّل القول تفصيلاً فيذكر أنّ الالتفات مواضع تختصُّ بالجواز ، وأخرى تبعد عنه ، وبينهما فصول تدق وتغمض ... و أنّ أبـا الطـيّب عـندي غير معذور بتركه الأمر القويّ الصحيح إلى الـمُـشكل الضعيف لـغـيـر ضـرورة داعـية ولا حاجة ماسة ، إذْ موقع اللّفظين من الوزن واحد ، ولو قال (نفوسـهم) في قوله (وإنـي لَمن قوم كأنّ نفوسنا) لأزال الشبهة ودفع القالة ، وأسقط عنه الشغب ، وعناء التعب " (2) .

والحقيقة أنّ ابن الأثير لم يكن هو أوّل من وضع يده على سرّ الالتفات ، فقد سبقه إلى ذلك ابـن جنّـي (ت 392 هـ) في كتابه المُحْتَسَب ،حيث لم يَر في الالتفات ضرباً من الاتساع في اللّغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ فحسب ، بل له غرضٌ أهمّ ، وأمرٌ أعلى من مجرد الاتساع (3) ، فيقول في قراءة الحسن : ﴿ واتّقُوا يوماً يُرجَعونَ فيه ﴾ [البقرة : 281] .بياء مضمومة ؛ إنّـه ترك الخطاب إلـى لفظ الغيبة كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[يونس :22]... وكأنّـه - والله أعلم - إنّما عَدَلَ فيه عن الخطاب إلى الغيبة ، فقال: (يُرْجَعُونَ) بالياء ، رِفْـقـاً من الله

---

(1) عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي . ص : 1129 . ط 1422 هـ / 2001م . دار الفكر . بيروت .

(2) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ص .446 – 449. عن فن البلاغة : ص : 283 .

(3) أثر النحاة في البحث البلاغي : 290 و فن البلاغة : ص : 186

سبحانه بصالحي عباده المُطيعينَ لأمره ... فصار كأنَّه قال: يُجازَوْن أو يعاقبون أو يطالبون بجرائرهم فيه ، فيصير محصوله من بعد ، أي : (فاتَّقُوا أنتم يا مُطيعون يوماً يُعَذَّبُ فيه العاصون) " (1) . فالسرُّ البلاغي الذي يراه ابن جنّي في هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة هو ترَفُّقُ الله بالمؤمنين بدلاً من صريح مخاطبتهم في مجال الوعيد والإنذار ، ولهذا السرّ البلاغي وحده يَعْزُو ابن جنّي سبب الالتفات . (2)

ثُمَّ يُؤَكِّدُ لنا أنَّ الالتفات لا يكون إلاّ لغرضٍ من الأغراض ؛ " وليس ينبغي أنْ يُقْتَصَرَ في ذكرِ علّة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب بما عادة توسط أهل النظر أنْ يفعلوه ، وهو قولُهم : إنَّ فيه ضرباً من الاتساع في اللّغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ هذا ينبغي أن يُقالَ إذا عرِي الموضوع من غرضٍ معتمد وسرٍّ على مثله تنعقدُ اليَدُ ." (3)

وهكذا يمضي ابن جنّي على هذا النحو يُبَيِّنُ سرَّ الالتفات في أكثر من موضع من القرآن الكريم ؛ وقد وقف على سورة الفاتحة وبيَّنَ ما تميَّزتْ به من التفات ، وانتقال من أسلوب إلى أسلوب فالقرآن قد عبَّر عن لفظ الجلالة بأسلوب الغائب (الحمد للّه) ثمَّ عبَّر عنه بأسلوب الخطاب (إياك نعبد وإياك نستعين) ، يقول ابن جنّي : " فليس ترك الغيبة إلى الخطاب هنا اتساعاً وتصرُّفاً، بلْ هو لأمر أعلى ومهم من الغرض أعنى . وذلك أنَّ الحمدَ معنى دون العبادة ، ألا تراك قد تَحمدُ نظيرك ولا تعبده ، لأنَّ العبادة غاية الطاعة ، والتقرُّب بها هو النهاية والغاية ؟ فلما كان كذاك استعمل لفظ (الحمد) لتوسُّطِه مع الغيبة فقال (الحمد للّه) ، ولم يقُلْ (لَكَ) . ولما صار إلى العبادة الّتي هي أقصى أمد الطاعة قال (إيّاك نعبدُ) فخاطب بالعبادة إصراحاً بها وتقرُّباً منه عزَّ اسمه بالانتهاء إلى محدوده منها ".(4)

وآخر السورة يجري على هذا النمط أيضا." فقال سبحانه وتعالى:(صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) ولم يقل (غير الّذين غضبتَ عليهم) ، وذلك أنّه موضع تقرب من الله

---

(1)ابن جنّي ، المحتسب : 1 / 240 .تحقيق .محمد عبد القادر عطا /.الطبعة الأولى 1419 هـ / 1998 م ، دار الكتب العالمية ، بيروت، لبنان .

(2) أثر النحاة في البحث البلاغي : 290 / فن البلاغة : ص : 186.

(3) المحتسب : 1 / 240 .

(4) المصدر نفسه : 1 / 240

بذكـــره نعمه ، فلما صار الكلام إلى ذكر الغضب قال (غير المغضوب عليهم) حتى كأنّه قال : (غـــير الّـــذين غُضِـــبَ عليهم) فجاء اللّفظ منحرفًا به عن ذكر الغاضب ، ولم يقل (غير الّذين غضـــبتَ عليهم) كما قال (الّذين أنعمت عليهم) فأسند النّعمة إليه لفظاً ، وزَوَى عنه لفـــظ الغضب تحسّناً ولطفاً " (1).

ويعقّب ابن جنّي بعد هذا التّوضيح بقوله : " فانظر إلى هذه اللّغة الكريمة وشرفها وتلاقـــي هذه الأغراض اللّطيفة وتعطفها، الأقدامُ تكادُ تطؤُها ، والأفهامُ مع ثُقُوبـــها صافحةٌ عنها ، ويا لَيْتَ شعري هل تكون سورةٌ أكثرَ استعمالاً من سورةِ الحمد ، وهذا جزءٌ منْ أَجزَاءِ ما فيها ولم توضع عليه يدٌ ؟ " (2)

والحقـــيقة أنّ معظم مَن بحثوا في سورة الفاتحة بعد ابن جنّي لم يكادوا يخرجون عمّـــا قاله أو يزيدون . وقد بيّن ابن جنّي فـــي كتابه الخصائص السبب الذي دفع النّاسَ إلى العدول عن لفظ الخطـــاب إلى الغيبة قائلاً : " وعلّة جواز ذلك عندي أنّه إنّما لم تُخاطبْ الملوك بأسمائها إعظاماً لها ... فلمـــا أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم الّتي هي شواهدهم ، وأدلـــة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة ، فقالوا : إن رأى الملك أدام الله علُوَّهُ ، ونسألُه حـــرَسَ الله ملْكَـــهُ ونحو ذلك . وتَحَامَوْا (إنْ رأيتَ) ، و (نحن نسألك) لِـــمَا ذكرنا ". (3)

ونســـتخلص من هذا الكلام أنّ السّر فـــي الالتفات يكمن في مراعـــاة الأدب في الخطاب والســـلوك الحمـــيد في طـــريقة التّعبير وتجاذب أطراف الحديث ، وبصفة خاصّة إذا أريد تبجيل المخاطب لرفعة شأنه وعلوّ قدره .

وبهذا يكون ابن جنّي قد وضع لنا مقياسا جديدا في بلاغه الالتفات لم يدركه أحد من السّابقين ، ولم يـــبلغه أحـــد من اللاحقين (4) ولاشك أنّه كان أوضَحَ وأعمقَ من الزمخشري في تناوله لسر الالتفات وقد وجدنا ابن الأثير في المثل السائر يقف على مثل هذه اللطائف الجليلة ،كما ذكرنا آنفاً ، لكنّه لم يُشِر إلى فضل ابن جنّي فِي هذا العمل .

---

(1) المحتسب : ص : 240 ، 241

(2) المصدر نفسه ص : 241

(3) الخصائص : 2 / 188

(4) فن البلاغة : ص : 287 .

قضايا اختلافية حول الالتفات :

1 - حول موقع الالتفات في علوم البلاغة :

اختلف العلماء في تحديد موقع الالتفات من علوم البلاغة أهو من المعاني أم البيان أم البديع . فقد صنّفه ابن المعتز ضمن علم البديع وتبعه في ذلك قدامة بن جعفر و أبو هلال العسكري والباقلاني وابن رشيق القيرواني وابن الأثير وابن أبي الإصبع ويحيى بن حمزة العلوي وابن قيم الجوزية و الزّركشي، وهؤلاء أهم العلماء الذين تكلّموا عن الالتفات وصنفوه ضمن علم البديع.

أما الزمخشري فقد صنّفه ضمن علم البيان ، عند تفسيره لسورة الفاتحة ، فبعدما حدّد مفهوم الالتفات وقد ذكرناه سابقاً ، قال : " هذا يسمى الالتفات في علم البيان " (1).

وذكره السكاكي عند علماء المعاني ، حيث قال : " واعلم أنَّ هذا النوع ، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص بالمسند إليه ، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كلّ واحد منها إلى الآخر ، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني " (2) ووافقه في ذلك الخطيب القزويني وسعد الدين التفتازاني .

إلاّ أنَّ عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ، وهو مؤسس علوم البلاغة العربية لم يشر إليه ضمن أنواع البديع ، لأنّه لم يُعْنَ بعد ذلك بتفصيل القول في ألوان البديع ، بعد اكتشافه لنظريّة المعاني ووضعه لنظريّة البيان الكثيرة التّشابك ، على حدّ قول شوقي ضيف لأنّه كان يرى كما رأى المتكلمون قبله أنّه لا يدخل في قضيّة الإعجاز القرآني (3) . هذا ونجد السُّبكي قد تعجّب من جعل العلماء الالتفات من علم المعاني ، وكان ينبغي أن يكون في علم البيان ، لكنّه وجدهم قد ذكروه في علم المعاني فقال : " لعلّك تقول : غالب ما سبق (4) أوكلّه من أنواع تلوين المجاز و محلّه علم البيان لما سيأتي فالجواب أنّ الأمر كذلك ، ولكن جرَتْ عادة أكثرهم بذكر هذه الأنواع في هذا العلم فتبعناهم وتداخلُ علم البيان وعلم المعاني كثيرٌ ، و اللّه تعالى أعلم " (5)

---

(1)الكشّاف : 1/ 62 .دار المعرفة . بيروت . لبنان .

(2) مفتاح العلوم : ص : 199

(3) البلاغة تطور وتاريخ . ص : 265

(4) " غالب ما سبق " يُقصَد به الأنواع المصنفة ضمن إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وأنواع علم البديع المصنّفة حالياً .

(5) عروس الأفراح : 1 / 397 .

أمـــا نجم الدّين ابن الأثـــير فقد أشار إلى هذا الإشكال فقال : نظر علماء الأدب في البديع وقسّـــموا محاسنه أنواعاً ، وسمّـــوا كلّ نوع باسم حتّى لقد تداخلت عليهم الأسماء وسمّوا الاسم الواحد بأســـماء مختلفة حتّى تشابهت الأسماء وتكرّرت أعداد الأنواع. ثمّ إنّ من علماء البيان من ذكـــر في مصـــنّفاته أبوابا وعدّها من البيان ، ومنهم من عدّ تلك الأنواع بعينها في مصنّفاته من البديع ، فعلى هذا يَعْسُـــر الفرقُ بين البديع والبيان في كلّ المواضع لأنّه ما من باب إلاّ وله تعلّق باللّفظ والمعنى ، فمن أين يظهر لنا الفرق بين النّوعين ؟(1)

لكن لم يبق هذا الإشكال عالقا ، فمن العلماء رحمة اللّه عليهم من فصّل في الفرق وحاول أن يَفْصِـــلَ فـــي الأمر ، فـــذَكَـــرَ سبب مذهبهم ذاك في تحديد موقع الالتفات . ومن هؤلاء ابن كمال باشا (ت 940هـ) الذي صنّفَ رسالة في الالتفات ، والتي وسمها باسم " تلوين الخطاب "(2) ، متأثّـــراً في ذلـــك بالســـكاكي والتفتازاني بالدرجة الأولى ، ثم جلال الدين القزوينـــي وشريف الجرجاني .

ومـــا يهمّـــنا من هذه الرسالة هو النقطة التي أثارها ، وحاوَل أن يوضّح فيها سبب اختلاف العلمـــاء فـــي تحديد موقع الالتفات ضمن علوم البلاغة ، مبرّراً موقف كلّ واحد ، مُلتمِساً لهم الأعـــذار جميعا دون أن يخطّهم أو يسفّهَ رأيهم ،فأشار إلى ما قاله الشريف الجرجاني في حاشيته على الكشاف (3) وهو أنّ مَنْ اعتـــبره من علم البيان فلأنّه قصد علم البلاغة الشامل للمعانـــي والبـــيان ، وإنّمـــا كان الالتفات من علم المعانـــي لأنّ مـــا يترتّبُ عليـــه من الفوائد من جملة خواصّ التراكيب الّتي يبحث عنها في العلم المذكور .

وأمّـــا مَنْ قال يُبْحَثُ عنه في علم المعانـــي فباعتبار كونه علـــى خلاف مقتضى الظاهر ، وأما في البـــيان فباعتـــبار أنّه إيراد لمعنى واحد في طرق مختلفة في الدلالة عليه جلاء وخفـــاء ... وبهذين الاعتبارين يفيد الكلام حسناً ذاتياً للبلاغـــة. (4)

---

(1) جـوهـــر الكنـــز : ص : 48 .

(2) هذه الرسالة تحصّلنا على محتواها من موقع للأنترنت .دراسة وتحقيق الدكتور عبد الخالق بن مساعد الزهرانـــي .سنة 1421 هـ/ 2001 م .

(3) انظر حاشية السيد الشريف الجرجاني على الكشاف : 1 / 63 .

(4) المصدر السابق . ويُنظر : تلوين الخطاب لابن كمال باشا .

وأمـا فـي البديع ففيـه جمع بين صور متقابلة فـي معنى واحد ، فكان من محسناته المعنوية ، وفيه نظر ، لأن مجرد كونه على خلاف مقتضى الظاهر لا يكفي دخوله فـي علم المعانـي .

وأمـا ثانياً فباعتبار أنّه إيراد لمعنى واحد فـي طرقٍ مختلفة فـي الدلالة عليه جلاء وخفاء غير كـافٍ فـي دخوله فـي علم البيان ، بل لا بدَّ معه أنْ يكون ذلك الاختلاف بحسب الدلالة العقلـية ، وهـو مفقود فـي الالتفات. ولذلك لم يورده صاحب المفتاح فـي البيان ،واقتصر علـى إيراده فـي المعانـي والبديع .

ومَـنْ عدَّه خلاف مقتضى الظاهر من الكناية لا يجد نفعـاً فـي كونه من البيان لأنّه ليس منها حقـيقة ، كيف وهي من أقسام اللّفظ ، والخلاف المذكور ليس من جنس اللّفظ . وكذا إخراج الكلام عليه منه ، وإنّـمـا عدَّه من الكناية لِـمـا بينهما من المشابهة . (1)

قال الشريف الفاضل فـي شرح المفتاح في حاشيته : " وكونه من إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر المندرج تحت الكناية ، لا يوجب كونه من مباحث البيان كسائر الجزئيات المندرجة تحت قواعد علم البيان فروع وثمرات لِمَسائله إذْ ليْستْ مبحوثـاً عنها بخصوصياتـها ". (2)

و هكـذا وجد علماء اللّغة صعوبة في تحديد موضع الالتفات ، لِما فيه من تداخل وتشابه في الفنون ، لأنَّ كلّ باب له تعلُّق باللفظ والمعنى ، لذلك لا يمكن أن يظهر الفرق بين هذه الأنواع ، أو تحديد موضعها في علوم البلاغة .

---

(1) تلوين الخطاب .

(2) المصدر السابق . [نتنبّه إلى عدم التمكّن من تحديد الصفحة ، وسنعمل على أنْ نحصل على المطبوع إن شاء الله] .

2 - حول التفاتات امريء القيس :

لقد اختلف بعض العلماء حول التفاتات امريء القيس في قوله :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْـمَدِ ... وَنَـامَ الخَلِيُّ ولَمْ تَرْقُـدِ

وبَاتَ وبَاتَـتْ لَهُ لَيْلَةٌ ... كَلَيْلَةِ ذِي العَائِـرِ الأَرْمَدِ

وذَلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِـي ... وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أَبِـي الأَسْوَدِ

فقيل فيه ثلاث التفاتات ، في كل بيت التفات كما صرّح بذلك صاحب الكشاف ، حيث قال : " التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات " ، أما في الأوّل فمن التكلّم إلى الخطاب ، إذ القياس : (تطاول ليلي) .

وأما في الثاني فمن الخطاب إلى الغيبة ؛ حيث قال : (وبات) والقياس (وبتَّ)على الخطاب . أما في الثالث التفت في (جاءني) من الغيبة إلى التكلم. (1)

وقـال السـيد الشريف الجرجاني في حاشيته على الكشاف مبيناً مراد الزمخشري: "قوله : ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات، يجري مجرى النّص على أن في كل بيت منها التفاتاً، فيكون (ليلك) التفاتاً مـن التكلم إلى الخطاب، فتعيّن أن الالتفات عنده مخالفة الظاهر في التعبير عن الشيء بالعدول عن إحدى الطرق الثلاث إلى أخرى منها، إمّا تحقيقاً وإمّا تقديراً ، كما اختاره الإمام السكاكي ، ومنهم من اشترط في الالتفات سبق التعبير بالطريق المعدول عنه ، وحاول تطبيق كلام المصنف عليه. فزعم أن الالـتفات الأول في (بـات) مـن الخطاب إلى الغيبة،والثاني في (ذلك) من الغيبة إلى الخطاب، والثالث في (جاءني) من الخطاب إلى التكلم، وردّ بأنّ حرف الخطاب جار على أصله من كونه لمن يتلقـى عـنه الكـلام ؛ لا أنه خاطب به نفسه ؛ ولذلك لم يعدّ السكاكي في الأبيات الثلاثة أربع التفاتات ". (2)

والسكاكـي لا يرى التفاتاً في البيت الثالث ، لأنّه ليس فيه خلاف لمقتضى الظاهر ، وقـد ورد

---

(1) انظر حاشية السيّد الشريف الجرجاني على الكشاف : 1 / 63 .

(2) المصدر نفسه : 1 / 63 .

البيت الثالث على مقتضى الظاهر . أما عند الجمهور " فلا التفات في البيت الأوّل ، وفي الثاني التفاتة واحدة [في قـولـه (وبات)] فيتعيّن أن يكون في الثالث التفاتتان " (1)

إلا أنّ أبا حيان الأندلسي (ت 754 هـ) يرى غير ذلك حيث قال : " ودعوى الزمخشري في أبيات امـرىء القـيس الثلاثة أنّ فيه ثلاثة التفاتات غير صحيح ، بل هما التفاتان: الأول : خروج من الخطاب المفتتح به فـي قولـه : تطاول ليلك بالأثـمـد ونـام الخلي ولم ترقُـدِ .

إلى الغيبة في قوله : وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد .

الثانـي: خروج من هذه الغيبة إلى التكلم في قوله:

وذلك من نبأ جاءني وخُبِّرتُه عن أبي الأسود .

وتأويل كلامه أنها ثلاثٌ خطأ وتعيين . إنّ الأول هو الانتقال من الغيبة إلى الحضور أشدُّ خطأً ، لأن هذا الالتفات هو من عوارض الألفاظ لا من التقادير المعنوية ".(2)

ويـرى الخطيب القزويني أنّ : " في البيت الثالث التفاتة واحدة ، وقيل إحداهما في قوله (وذلك) لأنه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، والثانية في قوله (جاءني) لأنه التفات من الخطاب إلى التكلّم وهذا أقرب ". (3)

وهـذا ما قال به صاحب عروس الأفراح : " أنه يمكن أن يقال إنّ في الثالث التفاتين ، أحدهما في (ذلك) ، والثانـي في (وخبرته) ، فيكون في الأبيات الثلاثة أربع التفاتات " (4)

ويشـير السُّبكي " أنّ بعض النّاس ذهب إلى أنّ في الأبيات سبع التفاتات: ليلك ، وترقد، وبات ، وله ، وذلك ، وجاءني ، وخبرته." (5) ، وفي هذا توهم باطل لا يتوافق مع الشرط الأوّل للالتفات ، حـتى وإن قـيل بجواز وجود الالتفات في جملة واحدة ، لأن الضمائر لا تعود جميعها على مذكور واحـد قبلها وإذا عدنا إلى السكاكي نجده ينفي وجود الالتفات في البيت الأوّل، ويوجد في الثاني التفاتة واحدة ، فتعيَّن أن يكون في الثالث التفاتان ، فقيل : هما في قوله (جاءني) أحدهـما باعتبار

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة . تحقيق عبد المنعم خفاجي : 2 / 90 .

(2) البحر المحيط :أبو حيان الأندلسي : 1 / 43 .1412 هـ / 1992 م – دار الفكر – بيروت . لبنان .

(3) الإيضاح في علوم البلاغة : 2 / 90 .

(4) عروس الأفراح : 2 / 375 ، 376 .

(4) المصدر نفسه : 1 / 376 .

انتقاله عن الغيبة والثاني باعتبار انتقاله عن الـــخطاب ؛وفيه نـــظر لأنَّ الالتفات إنّما يـــعتبر بالنسبة إلى الأسلوب الذي يليه (1) .

لذلك فنحن نوافق أبا حيان في وجود التفاتين في الأبيات الثلاثة لا أكثر ، وذلك حسب مدارات الضـــمائر؛ أي الانتقال من التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى الآخر .أما من ذهب إلى وجود ثلاث التفاتات أو أكثر فهو توهم باطل ،لأنَّ ذلك يخالف شرط الالتفات وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر ، شرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه ،لأنّنـــا نعتـــبر أنَّ امـــرأَ القيس قد خاطب نفسه في (تطاول ليلك) ثمّ عدل عنه إلى ضمير الغيبة في قوله (وبات) ثمَّ عدل عن ضمير الغيبة (بات) إلى ضمير التكلّم (جاءني) ، وبهذا نجد التفاتين لا أكثر على حسب ما وضّح أبو حيان الأندلسي .

---

(1) انظر عروس الأفراح : 1 / 376 .

انتقاله عن الغيبة والثاني باعتبار انتقاله عن الـــخطاب ؛وفيه نـــظر لأنَّ الالتفات إنّما يـــعتبر بالنسبة إلى الأسلوب الذي يليه (1) .

لذلك فنحن نوافق أبا حيان في وجود التفاتين في الأبيات الثلاثة لا أكثر ، وذلك حسب مدارات الضـــمائر؛ أي الانتقال من التكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى الآخر .أما من ذهب إلى وجود ثلاث التفاتات أو أكثر فهو توهم باطل ،لأنَّ ذلك يخالف شرط الالتفات وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر ، شرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه ،لأنّنـــا نعتـــبر أنَّ امـــرأَ القيس قد خاطب نفسه في (تطاول ليلك) ثمّ عدل عنه إلى ضمير الغيبة في قوله (وبات) ثمَّ عدل عن ضمير الغيبة (بات) إلى ضمير التكلّم (جاءني) ، وبهذا نجد التفاتين لا أكثر على حسب ما وضّح أبو حيان الأندلسي .

---

(1) انظر عروس الأفراح : 1 / 376 .

3 - بين الالتفات والتجريد :

مـثلما التبس على العلماء الأمر في تحديد عدد الالتفاتات في أبيات امريء القيس الثلاثة ، كذلك وجدناهم قد اختلفوا في ضبط الالتفات والتجريد في الشاهد الواحد ؛ فمنهم من رأى في بعض الشواهد وجود الالتفات دون التجريد ، ومنهم من وجده تجريداً دون الالتفات ، في حين وجده آخرون التفاتاً وتجريداً معاً وذلك في شاهد واحد .

والتجريد هو إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه ؛ وفائدته طلب التوسع في الكلام وتمكّن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه.(1)

والتجريد قسمان :

1 – تجريد محض : وهو أن تأتي بكلام وهو خطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك مثل :

لا خيلَ عندك تَهديها ولا مال فَلْيُسْعِدِ النُّطق إنْ لم تُسعدِ الحالُ .(2)

2 – تجريد غير محض : وهو خطابُك لنفسك لا لغيرك ، كقول الأعشى :

ودِّعْ هُريرةَ إنَّ الركب مرتَحِلُ وهلْ تُطيقُ وداعاً أيُّها الرجلُ ؟(3)

وهو الرجل نفسه لا غيره .

وقـد أشار السُّبكي إلى هذا الإشكال فقال : " واعلم أني لم أر من أوضح العبارة عن حقيقة الالـتفات ، وربمـا توهم قوم أنه لفظي ، وربـما أُشْكِلَ التمييز بين حقيقته وحقيقة التجريد ، وحقـيقة وضع الظاهر موضع المضمر وعكسه ، ثمّ في كونه حقيقةً أو مجازاً ، فالكلام في أربـعة أمورٍ ". (4)

ثمّ ذكر من بين هذه الأمور الأربعة ، الفرق بين التجريد والالتفات ، حيث قال : " وقد عُلِمَ مِمَّا سبق أنَّ بينهما عموماً وخصوصاً من وجه :

فيوجد التجريد دون الالتفات، كقولك (رأيتُ منه أسداً)، (تطاولَ ليلُكَ) على رأي الجمهور.

---

(1) انظر المثل السائر : 1 / 405 ، 406 ./ وعروس الأفراح : 1 / 377 .

(2) شرح ديوان المتنبي : 2 / 932 .

(3) ديوان الأعشى : ص : 17 . تحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت . لبنان .

(4) عروس الأفراح : 1 / 377 .

والالـتفات دون التجـريد ، نحـو: (تُكلّفني ليلى) ، ونحو قوله تعالى : (فسقناه) [فاطر :09]، والتفات وتجريد ، نحو : (فَصَلِّ لربك) [الكوثر : 02] . ولا واحداً منهما كغالب القرآن). (1)

ويبقى الخلاف مستمراً بين السكاكي والجمهور ، فكل الالتفات عند الجمهور هو التفات عند السـكاكي وليس العكس ، وكذلك هو الأمر مع المحسن البديعي المسمى بالتجريد ؛ فمثلاً قول علقمـة بن عبدة في مطلع قصيدته : (طحا بكَ قلبٌ في الحِسان طَرُوبُ) ، مُخاطِباً نفسه على طريقة التجريد ، فهذا ليس بالتفات عند الجمهور ، وهو معدود من الالتفات عند السكاكي .(2)

وقـال الشـريف الجـرجاني معلّقاً على أبيات امريء القيس المذكورة سابقاً : " واعلم أنَّ قوله (تطـاول لـيلك) إنْ حُملَ على الالتفات لم يكن تجريداً وإنْ عُدَّ تجريداً ، كقوله : (وهل تُطيقُ وداعاً أيُّها الرجلُ) ، لم يكن التفاتاً لأنَّ مبنى التجريد على مغايرة المُنتزَع للمُنتزَعِ منه ، ليترتب علـيه ما قصد به من المبالغة في الوصف ومدار الالتفات على اتحاد المعنى ليحصُلَ ما أريد به من إيـراد المعنى في صورة أخرى غير ما يستحقه بحسب ظاهره ، ويؤيِّد ذلك ما نقله الفاضل اليمني من أنَّ أبا علي وابن جنّي وابن الأثير حكموا بأنَّ (ليلك) تجريد وليس بالتفات ، فمن ادعى أنَّ أحد أقسام التجريد أعني مخاطبة الإنسان نفسه التفات ، وأنَّه لا منافاة بينهما فقد سَـهَـا ".(3)

ومن خلا ل هذا العرض يتبيَّنُ لنا أنَّ العلماء قد أجهدوا أنفسهم في تبيين مقاييس الجمال في أسـلوب القرآن الكريم ، ومنه أسلوب الالتفات ، فوفّقَ الله منهم رجالاً ، وهبهم فقه اللّغة وسرّ العربية ، تذوّقوا كلمات القرآن الكريم العذبة ، فوقفوا على أسراره العظيمة ، وذلك لأنَّ التعبير القرآني فريد لم يُسبَقْ إليه ، ولن يلحقَهُ أحد ، لأنَّ أصحاب هذه الأذواق بشر ، وهناك فرق بين صنع البشر وبين صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء ، وهو العليم الخبير.

فقـد نـبَّه القرآن الكريم الأعرابَ أن يلتزموا الدقة في التعبير فيقولوا : (أسلمنا) بدلاً من (آمنّا) حتى لا تضلّ المعاني بين الاحتمالات ، وتتوه الأغراض والمقاصد و الأفهام .

---

(1) المصدر السابق : 1 / 378

(2)انظر : تفسير التحرير والتنوير : الطّاهر بن عاشور : 1 / 178 – تونس – 1984 . الدار التونسية للنشر .

(3)حاشية الشريف الجرجاني على الكشاف : 1 / 63 .

وقـد كان القرآن الكريم دقيقاً في اختيار ألفاظه وصوغ أسلوبه ، وذلك لغرض يريده ولمقتضى يطلبه أو لحال يناسبه ؛ فاجتهد أهل الصناعة في اللّغة العربية على ضبط أساليب القرآن الكريم ، ومنها أسلوب الالتفات ، فتدرّجوا في ذلك بين مصيب ، وبين مجتنب للصواب ؛ فمنهم من حدّد مفهـومه ولم يسـمه باسمـه كسـيبويه وأبي عبيدة والفرّاء ، بينما هناك من حدّد اسمه ومفهومه كالأصـمعي ، في حـين هـناك مـن سـمّاه الاعتراض كقدامة بن جعفر ، كما سـماه قوم الاسـتدراك علـى حـد قـول ابن رشيق .(1) ، وسـماه الثعالبي التذييل ، كما سماه آخرون الاسـتطراد ؛ وقد ذكرنا ذلك في موضعه . ولعلّ أوّل من أسّس لعلم البديع هو ابن المعتز الذي ألّف كتابا سماه " البديع " منه نَـهَلَ أهلُ البلاغة مادتهم وزادوا عليها .

وهكذا اجتهد العلماء في البحث والتمحيص والتدقيق لضبط أسلوب الالتفات ، ولعلّنا نقف عند ابن الأثير الذي ضبط أسلوب الالتفات بأقسامه ولطائفه ، هذا بجانب السكاكي الذي كانت له آراء مخالفة في بعضها لجمهور العلماء . أما إذا نظرنا إلى تحديدهم للغاية من الالتفات ، وجدناهم مختلفين أيضـاً ، وهذا مـا جعل يحيى ابن حمزة العلوي يتهجّم على ابن الأثير منتصراً في ذلك للزمخشري ، وكلٌّ له مبرره في ذلك ؛ ففريق رأى أنَّ في الالتفات تطرية لنشاط السامع وإبعاد السآمة عنه ، وفريقٌ آخر رأى أنَّ للالتفات لطائف وأسرارا تُعرف في موضعها من خلال السياق. إلا أنَّ ما خَلُصَ إليه العلماء في تحديد مفهوم الالتفات هو رأي الجمهور ورأي السكاكي ، فكلّ الـتفات عند الجمهور هو التفات عند السكاكي ، وليس العكس .كذلك هو الأمر بين الالتفات والتجريد .

وبعد هذه الوقفة عند الالتفات من منظور علماء اللّغة ، سنقف على أهمّ اللطائف والأسرار البلاغـية للالتفات عند علماء التفسير من خلال مدوناتهم ، وذلك حسب أضربه وأقسام كلّ ضـرب كمـا سنحاول الوقوف عند بعض آيات القرآن الكريم التي لم تحظ بالعناية الوافية من جمهـور العلماء في تحديد أسلوب الالتفات فيها مستنبطين منها أهم الأسرار واللّطائف البلاغية ، ونسأل الله التوفيق والسداد .

---

(1) انظر العمدة : ص : 332 .

الفصل الثاني

الالتفات في القرآن الكريم من خلال مدونات التفسير:

الضرب الأوَّل : الالتفات بالضمائر.

الالتفات في القرآن الكريم من خلال مدونات التفسير :

أ - الالتفات بالضمائر :

لقد سبق وأن أشرنا في مدخل هذا البحث إلى أضرب الالتفات ، وأقسام كلّ ضرب ، كما بيّنّا غائيته وأسراره البلاغية ، وذلك من خلال ما قاله البلاغيون وعلماء اللّغة ، وسنبحث من خلال هذا الفصل عن رؤى أهل التفسير ، وما استنبطوه من لطائف وأسرار للالتفات في القرآن الكريم ، وذلك حسب تلك الأضرب وأقسامها. أما الضرب الأوّل فينقسم إلى ستة أقسام حسب مدارات الضمائر الثلاثة (التكلّم والخطاب والغيبة).

القسم الأوّل :

1- الالتفات من التكلم إلى الخطاب :

هذا النوع من الالتفات نجده قليلاً في كتاب الله عزّ وجلّ ، فقد ورد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .[الأنعام : 71 ، 72] . إذْ عَطَفَ قوله : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ على قوله: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فما الحكمة من العدول عن مخاطبتهم بالإخبار (لنُسلِم) وهي صيغة التكلّم إلى مخاطبتهم بفعل الأمر (وأقيموا الصلاة واتقوه) ، وهي صيغة المخاطب ؟ ، والتعبير يقتضي أن يقول : (وأُمِرنا أن نُسلِمَ ، وأن نُقيم الصلاة و أن نهتدي) ، أو يكون التقدير : (وأُمِرنا ، فقيل لنا : أَسْلِمُوا لرب العالمين وأقيموا الصلاة واتقوه) ، فكرَّرَ الأمر للاعتناء بشأن المأمورِ بـه ، ولأن الأمر السابق كان للزجْرِ عن الشرك ، وهذا حثٌّ على الإسلام، وهو توطئةٌ لمَا بعده ، فإنَّ اختصاصَ الهُدى بهُداه تعالى مما يوجبُ الامتثالَ بالأوامر الواردةِ بعده ، لأنّه عَطَفَ ﴿ وَأُمِرْنَا ﴾ على ﴿ إن هُدى الله هو الهدى ﴾ لدخوله تحت القول، واللام في :

﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لتعليل الأمر المَحْكيِّ وتعيين ما أريد به من الأوامر الثلاثة كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا﴾ [إبراهيم : 31] ، كأنه قيل: أُمِرْنَا وقيل لنا: أسلموا لأجل أن نُسْلِمَ ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ عطفٌ على نُسلم على أنَّ (أنْ المصدرية) إذا وُصلت بالأمر يتجرّدُ هو عن معنى الأمر نحو تجرُّد الصلة الفعلية عن معنى المُضيِّ والاستقبال ، فالمعنى يكون (أُمِرْنَا)، أي قيل لنا: أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نُسلمَ ونُقيمَ الصلاة ونتقيَه تعالى، أو يكون المعنى (أُمِرْنَا بأن نُسلمَ ونُقيمَ الصلاة ونتقيَه تعالى) والتعرضُ لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمرِ وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ به .

لِـذا نجد أبا بكر الرازي يُوضّح هذا التلوين في الخطاب بقوله:" فإن قيل: هب أن المراد ما ذكرتم ، لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر والتركيب الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه إلا بالتأويل ؟ .

قلنا: وذلك لأن الكافر ما دام يبقى على كفره، كان كالغائب الأجنبي فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين، فيقال له: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإذا أسلم وآمن ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر، فلا جرم يخاطب بخطاب الحاضرين، ويقال له: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فالمقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب ، التنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان، وتقريره أن الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر.والله أعلم" (1)

و اتفق معه الآلوسي (ت 1270 هـ) في هذا المعنى ، فقال : "كان الظاهر أن يقال: أُمِرنا لِنُسلِمَ ولأن نُقيم إلا أنه عدل لما ذكر للإيذان بأن الكافر ما دام كافراً كان كالغائب الأجنبي فخوطب بما خوطب به الغَيَّب وإذا أسلم ودخل في زمرة المؤمنين صار كالقريب الحاضر فخوطب بما يُخاطَبُ به الحاضرون ". (2)

وعليه فإنَّ هذا الانتقال كان للاعتناء بشأن المأمورِ بـه ، وحتى يمتثل المأمور لعبادة الله، لأنّ

---

(1) الفخر الرازي: تفسير مفاتيح الغيب : 13 / 31 . الطبعة الأولى 1357 هـ / 1938 م – طبعة عبد الرحمن محمد – المطبعة البهية المصرية .

(2) الآلوسي البغدادي : روح المعاني : 07 / 190 – دار إحياء التراث العربي – بيروت . لبنان .

مخاطبته بصيغة الحاضر تكون أقوى من الخطاب بصيغة الغائب ، وفيها حثّ بلطف ، بعدما كان الزجْر عن الشرك ، وبذلك يقع الامتثالَ للأوامر .

أما الآية التي كانت مدار النقاش ، وكثُرَ اهتمام العلماء بها، وتفرَّعَتْ حولها الآراء فهي الواردة في قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس :20، 21، 22]

انتقل من التكلّم عن نفسه (أعبد) إلى مخاطبة القوم (تُرجعون) ، وسياق الكلام يقتضي أن يقول (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع) ، فهذا استفهام إنكاري ، وهو لا يُنكِر على نفسه وإنّما يُنكر على قومه، فهو يريد نصحهم ويشفق عليم مما قد يحلّ بهم إذا لم يتبعوه فالأمر جَلَلٌ ، فهو لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه كقول المتنبي وهو يمدح سيف الدولة الحمداني :

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مَا لَا تَدَّعِيهِ الضَّرَاغِمُ (1)

وعلّل الزمخشري هذا الالتفات بقوله : " ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه .... ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه: أنّ العبادة لا تصحّ إلاّ لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ".(2)

وأما الفخر الرازي فيرى في العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية: وهي :" أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذي فطركم، لم يكن في البيان مثل قوله ؛ لأنه لما قال: (وما لي لا أعبد الذي فطرني ؟) ، وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع، وأما لو قال: (مالكم) جاز أن

---

(1) عبد الرحمن البرقوقي :شرح ديوان المتنبي : 2 / 1019 .الطبعة الأولى : 1422هـ / 2002 م – دار الفكر – بيروت . لبنان .

(2) الكشاف : 3 / 319 – بتصرف –

يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فإن قيل : قال الله: ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13] نقول : القائل هناك غير مدعو، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان. (1)

ثم إنّ الرجل لا يوجد فيه مانع يمنعه عن طاعة ربّه لذلك اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال: ﴿وما لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة .

وقوله:(فطرني) أي جعلني على الفطرة كما قال الله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30] وعلى هذا فقوله: ﴿وما لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾ أي لم يوجد فِيَ مانع فأنا باقٍ على فطرة ربي ، و الفطرة كافية في الشهادة والعبادة .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ دليل على الخوف والرجاء ، لذلك وجّه إليهم الخطاب بقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كما قال: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف: 56] ، ولهذا لم يقل (وإليه أرجع) كما قال (فطرني) لأنه يعبد الله لكونه إلهاً مالكاً .

إلا أنَّ أبا السعود يستشف من هذا العدول عن التكلم إلى الخطاب سرّاً آخر غير الذي أوردناه ، وهو أنَّ قوله ﴿وما لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ : "تلطُّفٌ في الإرشاد بإيراده في معرض المُناصحة لنفسه وإمحاض النُّصحِ حيثُ أراهم أنَّه اختارَ لهم ما يختارُ لنفسه. والمرادُ تقريعُهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما يُنبيء عنه قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التَّهديد" (2)

وهذا ما ذهب إليه الآلوسي في تعليل الالتفات في هذه الآية . (3)

لكن إذا سلمنا بقول أبي السعود على أنّ هذا الخطاب هو تهديد بطريق التعريض ، فحينها لا يكون التفاتاً ، لأنه عبَّر في الأوّل بياء المتكلّم عن المخاطبين وهذا مناقض لما سبق ، فكيف يكون التفاتاً وتعريضاً في آنٍ واحدٍ ؟ .

---

(1) مفاتيح الغيب : 26 / 56 .

(2) أبو السعود : تفسير إرشاد العقل السليم : 7 / 163 ، 164 . دار المصحف – مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد – القاهرة . مصر .

(3) روح المعاني : 22 / 226 .

وللجواب عن هذا السؤال علينا أن نعرف معنى التعريض ثمّ نَعْرِض ما قاله بهاء الدين السُّبكي في هذا الخصوص جواباً على هذا السؤال .

فالتعـريض كما عرّفه ابن الأثير : " هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقـي ولا المجازي ، فإنّك إن قلتَ لِمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : والله إنّي لَمُحتاج ولـيس في يدي شيءٌ ، وأنا عريان والبرد قد آذاني ؛ فإنَّ هذا وأشباهه تعريض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعا في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنّما دلّ عليه من طريق المفهوم".(1)

وجـواب بهاء الدين السُّبكي على السؤال المطروح آنفاً هو قوله :" ليس كذلك ولا منافاة بين الكلامين ، فإنَّ التعريض ليس من شرطه أن يُراد به غير ظاهر اللفظ ، بل يراد ظاهره لا لقصده ، بـل يكون المقصود بالكلام غيره ، كما يخوف الملك ولده ليُحذِّر غيره من خدمه تأسيا من باب أولى ، فقوله تعالى : ﴿وما لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي﴾ المراد به المتكلّم ، ولكنّه إذا قال لنفسه ذلك كان فيه مـن التعريض بأنَّ كلَّ أحدٍ ينبغي أن يكون كذلك ما لا يـخفى كما سبق قوله ، والمراد (وما لكـم) ، أي : الـذي سبق الكلام لأجله ، لا أنَّ المتكلم غير مراد ، وهذا الباب يسمى الكلام المنصف ." (2) .

ولتأكيد كلامه هذا استشهد بقوله تعالى : ﴿ وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 24 ، 25] فلو جرى الخطاب على الظاهر لقال (لا تُسألُون عمّـا نعمـل ، ولا نُسألُ عمّا أجرمتم ، ثُمَّ قال : " ووجه حسنه إسماع المخاطبين على وجهٍ لا يُغضِـبُهم ، فإنه ليس فيه التصريح بنسبتهم إلى الباطل ، وصرفه إلى المُتكلم إشارة إلى أنّه لا يريد لهم إلا ما أراده لنفسه ". (3)

وقد أخذ بقول الزمخشري كلٌّ من ابن الأثير وأبي حيان وابن قيّم الجوزية (4) .

---

(1) المثل السائر : 2 / 186 .

(2) عروس الأفراح : 1 / 432 .

(3) المصدر نفسه : 1 / 433 .

(4) انظر : المثل السائر : 2 / 07 ، و البحر المحيط : 9 / 56 ، و الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان . ص: 102 .

إلا أنَّ مصـــطفى شريقن في رسالته " أسلوب الالتفات في القرآن الكريم " يرى أنَّ رأي هؤلاء خاطيء انطلاقاً مِمّا أورده الزمخشري ، حيث قال:" غير أنَّني أُخالفُ الزمخشري للالتفات فِي الآية حين جعل الأصل الذي التفت عنه هو (ومالكم لا تعبدون الذي فطركم)، مستدلاً بِمَا بعـــدها (وإليه تُرجعون) ". (1)

وحجّـته في ذلك أنَّ الالتفات إنَما يكون بِما خالف الظاهر الذي يجري عليه السياق . وعليه ، فالمخالـف للسياق لا يكون للسابـق ، وإنّما يكون اللاحق هو الذي خالف الأوّل إلا إذا منع ذلك مانع قاهر . لذلك قال : " لكن الزمخشري حكم على الأوّل بأنَّه هو الذي خالف الثانـي وهـذا – لعمري – حكم جائر ". (2)

ولو تمعنّ هذا الباحث في قول الزمخشري لوجده صحيحاً لا غبار عليه ، فلتفسير الآية يجب مـراعاة السِّـياق والسِّـباق واللّحـاق حتى يتسنى لنا الحكم والاستنباط ؛ فسباق الآية قوله تعالـى:﴿ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ثُمَّ عدل عن ذلك إلى قوله ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إلى أن قال :﴿ وإليه تُرجعون ﴾ ، فالأمر كان أولاً للقوم بصيغة الخطاب ثم عدل عـنه إلى الحديث عن النفس ، ثم عاد إلى النسق الأوّل وهو الخطاب ، فالأصل كان الخطاب ثم التكلّم فالخطاب ، فيكون حينذاك في الآية التفاتان ؛الأوّل من الخطاب (اتبعوا) إلى التكلّم (وما لي لا أعبد) ، والثاني من التكلّم (ما لي لا أعبد) إلى الخطاب (وإليه تُرجعون).

لذلك قال الزمخشري :" ولقد وضع قوله (وما لي لا أعبد الذي فطرني) مكان قوله (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) (3)

ويكون بهذا قد أشار إلى تلوين في الخطاب ، لكنه لم يحدِّد ما إنْ كان الانتقال من الخطاب إلى الـتكلّم أم من التكلم إلى الخطاب . واكتفى بالإشارة إلى مقتضى التعبير فـي﴿ وما لِيَ لا أعبد الذي فطرني ﴾ على أنَّ المراد هو (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) .

---

(1) أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره : ص : 117

(2) المرجع نـفسه : ص :117 .

(3) الكشاف : 3 / 319 .

وعليه ، فكلام مصطفى شريقن مردود من هذا الوجه ؛ أما قوله أنَّ ابن الأثير تبع الزمخشري فيما ذهب إليه ، ففيه مغالطة للقاريء لأنَّ ابن الأثير أشار إلى موضع الالتفات على أنّه انتقال من التكلم إلى الخطاب ، ووضّح المعنى الذي يقتضيه هذا التلوين ،كما بيَّن السر في هذا الالتفات ، فلا نراه قد جانب الصواب .

ونجد كلاًّ من الزركشي والسيوطي يعتبران أنَّ قوله تعالى :﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ بمعنى (كيف لا أعبد الذي فطرني وإليه رجوعي ؟) ، على أنّه استفهام إنكاري ، وعبَّر بذلك – حسب رأيهما – لأنّه داخل فيهم . (1)

فلو كان تقدير (وإليه ترجعون) بـ (وإليه رجوعي) ما كان ليستأنف الكلام إلى قوله : ﴿ فاسمعون ﴾[يس : 25] . لأنّ هذا الرجل الصالح واصل نصحه لقومه بأن يؤمنوا بالله ، وألا يتخذوامن دونه آلهة أخرى . وكل الخطاب كان موجها للقوم ، أما إرجاعه الخطاب لنفسه فعلى سبيل التعريض كما سبق الذكر، زيادة في التهديد والتقريع والتخويف ؛ فهو يؤمن بربّه ويوحِّده، فلا مجال لأنْ يُنكِر على نفسه بسؤال كهذا .لذلك فالإنكار كان على القوم حتى وإن كان داخلاً فيهم .

ولو كان الأمر كما قال السيوطي والزركشي ، لكان تأويل قوله :﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ بقوله (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه نَرجِعُ) بصيغة المتكلمين .

أما ما قاله شريقن فِي اعتبار الغاية من هذا الالتفات تتمثل فِي دفع الوهم الذي قد يتبادر إلى الأذهان، فنراه قد جانب الصواب ، و أنّ ما وقف عليه الفخر الرازي وأبو السعود والسُّبكي، يعكس الغاية الحقيقية من هذا الالتفات ، ولا نزيد على ذلك .

---

(1) انظر : البرهان في علوم القرآن : 3 / 316 ، و معترك الأقران 1 /244 .

2-الالتفات من التكلّم إلى الغيبة :

ورد هذا النوع في القرآن الكريم كثيراً ، من ذلك قوله تعالى :﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ . [البقرة : 83] ، إذْ عدل عن ضمير المتكلّم (أخذنا) إلى الاسم الغائب (الله) ، فلو جرى على نسق واحد لكان نظم الكلام (لا تعبدون إلا إيانا) وفي هذا الانتقال دلالة على العظمة و الفخامة ، كما فيه دعوة للامتثال والانتهاء ، حيث عبَّر بالخبر (لا تعبدون) ولم يعبِّر بفعل الأمر (اعبدوا) لأنَّ التعبير بالخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر (1). كما أنَّه لم يعبِّر بالنهي (لا تعبدوا) فجاء الخطاب بلين حتى يمتثل القوم لأمر الله .

وبيَّن أبو حيان الأندلسي سرّ هذا الالتفات فقال: " وحكمته الإقبال عليهم بالخطاب ، ليكون أدعى للقبول، وأقرب للامتثال ... ، لكن في العدول إلى الاسم الظاهر من الفخامة، والدلالة على سائر الصفات، والتفرّد بالتسمية به، ما ليس في المضمر، ولأن ما جاء بعده من الأسماء، إنما هي أسماء ظاهرة ، فناسبَ مجاورة الظاهرِ الظاهرَ".(2)

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ (لا تعبدون) إخبارٌ بمعنى النهي ، ويعلِّل هذا ، قول الزمخشري على أنَّه : " إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه ". (3) وقال أبو حيان : " ومع جعل الجملة مفسرة، لا تخرج عن أن يكون نفي أريد به نهي، إذ تبعد حقيقة الخبر فيه ". (4)

لذلك فإنَّ صيغة (لا تعبدون) هي إخبار في معنى النهي كقوله تعالى : ﴿لَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾[البقرة: 282] وهذا التعبير أبلغ من صريح النهي لِمَا فيه من إيهام أن المنهي كأنَّه إلى ذلك

---

(1) انظر الكشاف : 1 / 293 ، و تفسير التحرير والتنوير : 1 / 582

(2)البحر المحيط : 1/ 457 .

(3) الكشاف : 1 / 293 .

(4) البحر المحيط : 1/ 457 .

فوقع منه حتى أخبر عنه بالحال أو الماضي ، أي ينبغي أن يكون كذلك فلا يرد أنَّ حال المُخبَر عنه على خلافه ، كما أنَّه يستلزم القبول والامتثال لأمر الله .

ونجد مثل هذا التعبير في قوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73] ،حيث انتقل من ضمير التكلم (قلنا) إلى الاسم الظاهر (يحيي الله) والكلام يقتضي قوله (كذلك نحيي الموتى ونريكم آياتنا)، وفي هذا العدول إشارة لشيء مشاهد لهم وليس هو اعتراضاً أريد به مخاطبة الأمة الإسلامية لأنهم لم يشاهدوا ذلك الإحياء حتى يشبه به إحياء الله الموتى ، كذلك قال الطاهر بن عاشور (1)

ويبدو أنَّه استخفاف بالقوم ، فحوّل الكلام إلى الحديث عن إله غائب لكنّه لا تخفى عليها خافية ، وقد كانوا يظنون بفعلهم ذاك أنّه لم يطّلع عليه أحد ، وهاهو الأمر ينكشف للناس ، وهذا الذي كانوا يعتقدون أنّه مات فقد صار حيًّا ، فمَنْ أحياه ؟ لذلك قال لهم ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ إشارة إلى البعث .

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172] ، عدل عن ضمير التكلُّم في قوله (رزقناكم) إلى الغيبة بالاسم الظاهر (الله) ولو جرى الكلام على نسق واحد لقال (واشكروني) ، وجاء هذا الالتفات لتربية المهابة ،كذا قال أبو السعود والآلوسي (2)

فلما كان الأمر يخصُّ ذكر النعمة ، استلزم التعبير بصيغة المتكلِّم لإظهار عظمة المنعم ، وصدور النعمة عنه ، وإذا كانت الحال كذلك فإنَّ العزمَ يقتضي تعظيمَ المنعم ، لذلك عدل عن التعبير بصيغة المتكلِّم إلى الغيبة حتى يستشعروا بوحدانية الله ويشكروه دون سواه ، لأن الشكر رأس العبادات .

---

(1) تفسير التحرير والتنوير : 1 / 561 .

(2) انظر تفسير إرشاد العقل السليم : 1 / 190 ، و روح المعاني : 2 / 41 .

ويـرى أبو حيان في هذا الالتفات حكمةً ظاهرةً علَّلها بقوله : " لأن هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصـاف التي منها وصف الأنعام والرزق والشكر، ليس على هذا الإذن الخاص ، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص ". (1)

وقد زاد الطاهر بن عاشور على هذا ، فقال : " والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لأن في الاسـم الظاهر إشعاراً بالإلهية فكأنه يومئ إلى ألاَّ تُشْكَرَ الأصنام ؛ لأنها لم تَخلُق شيئاً مما على الأرض باعتراف المشركين أنفسهم فلا تستحق شكراً. وهذا من جعل اللقب ذا مفهوم بالقرينة؛ إذ الضمير لا يصلح لِذلك إلاّ في مواضع. ولذلك جاء بالشرط فقال: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ، أي اشـكروه على ما رزقكم إن كنتم ممن يتصف بأنَّـه لا يعبد إلاّ الله أي إن كنتم هذا الفريق وهذه سجيتكم" (2)

ومـن أمثلة هذا النوع أيضاً قولـه تعالـى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النسـاء : 30] ،حـيث استعمل نون العظمة ، ثم انتقل إلى الغيبة بإظهار الاسمِ الجليلِ وذلك لإبراز قدرة الله تعالى ، كما فيه تهديد وتقريع للظالمين .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : 158]

الـتفت من ضمير التكلم (إنِّي) إلى الاسم الغائب (رسوله)، وفي هذا الالتفات فوائد منها: أنَّ اليهود كانوا يزعمون أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم خاص بالعرب الأميين فقط فأَبَوْا اتِّباعَهُ ، لـذلك أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بأن يصدع بما فيه تبكيتٌ لهم ، وتَنْبِيهٌ لسائر الناس على افتراء زعمهـم ، أنَّـه صلى الله عليه وسلم مُرسَل إلى العرب خاصة، بل رسالته صلى الله عليه وسلم شـاملة و عامـة للثقلين ، لذلك ذكر لفظ (إليكم جميعاً) حتى يرفع التهمة عن نفسه بالعصبية لـهـا. (3)

---

(1) البحر المحيط :2/ 109 .

(2) التحرير والتنوير : 2/ 114 .

(3) انظر المثل السائر : 2 / 11 ، والبرهان في علوم القرآن : 3 / 317

ولأنّ الأوصاف التي ذكرها الله عزّ وجلّ بعد لفظ (ورسوله) تستحق الاتباع ، والإيمان ، فهي أكبر دليل على صدقه ، وأنه لا يستحقّ الاتباع لذاته ، بل لهذه الخصائص ، فقدَّم لفظ (آمنوا بالله) .

وبيّن أبو حيان السرّ من هذا الالتفات بقوله : " لَمَا ذكر أنّه رسولُ الله أمرهم بالإيمان بالله وبه ، عدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ وأنه هو المأمور باتباعه الموجود بالأوصاف السابقة .... ولما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي بدأ به ثم أتبعه بالإيمان بالرسول ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدّال على نبوّته وهو كونه أمّيّاً " (1)

ويرى أبو السعود في هذا الالتفات إلى الغَيْبة مبالغةً في إيجاب الامتثال لأمره ، و وصفُ الرسول بالنَّبيِّ الأُمِّيِّ زيادةً في مدحه عليه الصلاة والسلام بهما ، وتقريرٌ لأمرِه وتحقيق بأنه المكتوبُ في الكتابين "(2)

وقال الطاهر بن عاشور: "وفي قوله: ﴿ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ﴾ التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، ووصف النبيِّ الأمي بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وإنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله." (3)

وفي سورة آل عمران قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : 56 ، 57]

انتقل بالخطاب من الحديث بصيغة المتكلّم (فأعذّبهم) إلى التعبير بصيغة الغائب (فيوفّيهم) ، وقد اكتفى أبو حيان في التعليق على هذا الالتفات بأنّه تنوّع في الفصاحة على قراءة مَنْ قرأ بالياء، أما من قرأ بالنون (فنُوَفّيهم) فعلى قراءة الجمهور، وذلك حتى يخالف في الإخبار بين النسبة

---

(1) البحر المحيط : 5 / 197 .

(2) انظر تفسير إرشاد العقل السليم : 3 / 281 .

(3) تفسير التحرير والتنوير : 9 / 141

الإسنادية فيما يفعله بالكافر وبالمؤمن، كما خالف في الفعل ، ولأن المؤمن العامل للصالحات عظيم عند الله، فناسبه الإخبار عن المجازي بنون العظمة. (1)

ويرى أبو السعود في هذا الانتقال تبايناً بين الحالين ،حيث قال : " ولعل الالتفاتَ إلى الغَيبة للإيذان بما بين مصدري التعذيبِ والإثابةِ من الاختلاف من حيث الجلالُ والجمال." (2)

ونرى أنَّ مدلول الآية يقتضي هذا التحوّل في التعبير ، فلما كان الأمر متعلّقاً باليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وراموا قتله ، اقتضى الخطاب التهديد والوعيد وذلك باستعمال ضمير المتكلّم ،ولما تعلّق الحديث بالإيذان بالرحمة الواسعة و توفية الأجر ، كان التعبير يتطلّب صيغة الغائب ، لما فيها من الشَّسَاعة والدوام والقدرة على التملُّك .

وكذلك ورد مثل هذا التعبير في قوله تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : 151] ، ولو جرى الكلام على السياق الأوّل لقال (بما أشركوا بي) ، وقد سبق مثل هذا التعبير في الحديث عن سورة البقرة[الآية : 83].

ومِمّا ورد في القرآن الكريم على هذا النسق قوله تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد :41] إذْ عبَّر بصيغة التكلم (أنَّا نأتي) ثمّ انتقل إلى التعبير باسم الجليل (والله) ، وفي ذلك دلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى.

وقد علّل الطاهر بن عاشور هذا الانتقال فقال: "وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار الذي في قوله : ﴿ أَنَّا نأتي الأرض ﴾ لتربية المهابة، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع ، وأيضاً لتكون الجملة مستقلة بنفسها لأنها بمنزلة الحكمة والمثل ".(3)

---

(1) انظر البحر المحيط : 3 / 181.

(2) تفسير إرشاد العقل السليم : 2 / 45 .

(3) تفسير التحرير والتنوير : 13 / 172 ، 173 .

وجاء في قوله تعالى : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ * وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه :1، 2، 3، 4] فالتفت من ضمير التكلّم (أنزلنا) إلى ضمير الغيبة (مِمَّنْ خَلَقَ) ، وقد بيَّن أبو حيان غاية هذا الالتفات ، بقوله :" وجريان هذه الصفات على لفظ الغيبة والتفخيم بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظم نفسه ، ثم إسناده إلى من اختص بصفات العظمة التي لم يشركه فيها أحد فحصل التعظيم من الوجهين."(1)

وقد جَوَّزَ الزمخشري أن يكون الفعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ حكايةً لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه (2). و عقَّب أبو حيان على ذلك بقوله : " وهذا تجويز بعيد بل الظاهر أنه إخبار من الله تعالى عن نفسه ". (3)

أما أبو السعود فيبقى على غرار تخريجاته لمثل هذا الانتقال ، إذْ يرى أنَّ نسبةَ التنزيلِ إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الصفات والأفعال إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق الإبهامِ.(4)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس :33، 34، 35، 36] فنقل الكلام من التكلم (أحيَيْنَاها واخْرَجْنَا ... وفجرنا) إلى الغيبة (سبحان الذي خلق الأزواج) ، فلما كان إحياء الأرض الميتة ، وإخراج الحبّ منها لتصبح جنات ، وتفجير العيون ، اقتضى التكلّم بضمير العظمة الدال على قدرة الإله الواحد الأحد ، ولما كان الأمر كذلك عاد إلى مخاطبتهم ، بأن يُسبِّحُوا مَنْ هذه أفعاله ، وفي لفظ (ليأكلوا) دلالة على لفت نظرهم إلى الحقيقة التي لا مفرّ منها وهي عدم غناهم عن التَقَوُّت من هذه الأرزاق التي قدّرها الله . ولو كانت عنهم ذرة تفكير لَتساءلوا عن سبب تسخير كلِّ ذلك ، أليس من أجلهم ؟

---

(1) البحر المحيط : 9 / 65 .

(2) وانظر الكشاف : 3 / 322 .

(3) البحر المحيط : 9 / 65 .

(4) تفسير إرشاد العقل السليم . :06 / 04 .

وعلَّل أبو حيان هذا الفعل بقوله : "والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر، ومما عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه، وبأن أكله يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه ، وفيه آثار من كد بني آدم ".(1)

وزاد علـــى ذلك أبو السعود بقوله أنَّه : " استئنافٌ مسوقٌ لتنزيهه تعالى عمّا فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ما ذُكر في حيِّزِ الصِّلةِ من بدائعِ آثارِ قُدرته وأسرارِ حكمته وروائعِ نعمائه الموجبةِ للشُّكرِ." (2)

وجـــاء في قول الله تعالى :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : 53] . إذْ في إضافة الرحمة إلى الله التفات من ضمير المتكلم (عبادي) إلى الاسم الغائب (ربك) ، و يرى أبو حيان بأنَّ في إضافة الرحمة إلـــى الله : " سعة للرحمة إذا أضيفت إلى الله الذي هو أعظم الأسماء ، لأنه العلم المحتوي على معاني جميع الأسماء.ثُمَّ أعاد الاسم الأعظم ، وأكد الجملة بـــ (أنَّ) مبالغةً في الوعد بالغفران ، ثم وصف نفسه بما سبق في الجملتين من الرحمة والغفران بصفتي المبالغة، وأكد بلفظ "هو" المقتضي عند بعضهم الحصر". (3)

وجاء في قوله تعالى:﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الدخان: 05، 06] الـــتفات من التكلم إلى الغيبة على أنه خرج من الظاهر إلى المضمر، لكنّه عدل عن الحديث عن الرسول صلىّ عليه وسلّم بقوله (أمراً من عندنا إنّا كنّا مرسلين) إلى الحديث عن جلالته سبحانه وتعـــالى (رحمـــة من ربّك) . فالأمر كان من عند اللّه لذلك قال (أمراً من عندنا) حتّى لا يتوهم الســـامع أنـــه من عند الرسول ، ثمّ إنّه لّما كان الأمر من عند اللّه قال (إنّا كنا مرسلين) فعدل بـــالكلام عـــن جلالته إلى الحديث عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يخاطب المشركين (إنّا كنّا مرســـلين) ويعلّلـــه قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت :18] ، فلا يقتضي الكلام أنّ (أمْراً من عندنا) أنّه من عند الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم

---

(1) البحر المحيط : 9 / 83 .

(2) إرشاد العقل السليم : 7 / 167 .

(3) البحر المحيط : 9 / 212 .

ومـا يعلّـل هـذا الكلام هو قوله تعالى (رحمة من ربّك) أي أنّ ذلك الأمر هو رحمة من ربّك والخطـاب لرسـول اللّـه صلى الله عليه وسلم. لذا نجد كُلاًّ من الزّمخشري وأبي حيان والطاهر بن عاشور، قد رأوا في هذه الآية خروجاً من المضمر إلى الظاهر (1)، على أنّه لو رُوعِيَ ما قبله لكان الكلام (رحمةً منّا) وأنّه التفات من التكلّم إلى الغائب. ففي الآية التفات من التكلم (عندنا) بنون العظمة إلى الاسم الغائب (ربّك)، وذلك إيذاناً بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين (2)، وأنّ نسـبة الأمر إلـى نون العظمة يشمل جميع المخاطبين، لذلك استعمل ضمير العظمة. ولما تعلّق الأمر بذكر الربوبية وجب التخصيص والإفراد حتى يتنبّه القوم وينصرفوا عن الإشراك بالله.

وفي بداية سورة الفتح قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 01 ، 02] انتقل من ضمير المتكلّم (إنّا فتحنا) إلى صيغة الغائب (ليغفر لك الله) ، وإسناد الفتح إلى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقاً وإيجاداً . أما عن التحوّل إلى صيغة الغائب فقال أبو السعود : "والالتفاتُ إلـى اسم الذات المسـتتبعِ لجميعِ الصفاتِ للإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا انتظم في سلك الغايةِ من أفعاله تعالى صادرٌ عنه تعالى من حيثيةٍ غيرِ حيثيةِ الآخرِ مترتبةٍ على صفةٍ من صفاته تعالـى ." (3)

وكذلك نجد هذا النوع من التعبير في السورة نفسها في قوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفتح: 08 ، 09] .

و في سورة الذاريات قال الله تعالى: ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : 57 ، 58] ، حيث انتقل من ضمير المتكلّم (ما أريد) إلى إظهار الاسم الجليل (إنّ الله)؛ وفي هـذا الالتفات قال الفخر الرازي : "وفيه ههنا فائدة وهي أن اسم الله يفيد كونه رزّاقـاً وذلـك لأن الإلـه بمعـنى المعـبود كمـا ذكرنا مراراً وتمسكنا بقوله تعالى: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:127] أي معبوديك، وإذ كان الله هو المعبود ورزق العبد استعمله من غير الكسب

---

(1) يُنظر الكشاف : 3 / 501 ، والبحر المحيط : 9 / 398 ، والتحرير والتنوير : 25 / 281 .

(2) يُنظر البحر المحيط : 9 / 398 .

(3) إرشاد العقل السليم : 8 / 104 .

إذ رزقه على السيد . وههنا لما قال: ﴿ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فقد بيّن أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ بلفظ الله الدال على كونه رزاقاً، ولو قال إني أنا الرزاق لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا ". (1)

وقال الطاهر بن عاشور : "وإظهار اسم الجلالة في ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضاه: إني أنا الرزاق، فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنها سُيرت مسير الكلام الجامع والأمثال". (2)

ونختم هذا النوع من الالتفات بما جاء في سورة الكوثر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر:1، 2] . فبعدما عبّر بضمير المتكلّم (أعطيناك) عدل عنه إلى الغيبة (فصلّ لربك) ، ولو جرى السياق على نسقٍ واحدٍ لكان : (إنّا أعطيناك الكوثر، فصَلّ لنا وانحر)، لكنّه عدل عن ذلك إلى قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، وفي هذا العدول إعظام لجلالته سبحانه وتعالى ، كما فيه إفراد بالعبودية والتوحيد .

وقد وضّح الفخر الرازي فوائد هذا الالتفات توضيحاً مُفصّلاً ودقيقاً ، حيث قال : "أنّ وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة ، و أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، وأن قوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره . وأيضاً كلمة (إنّا) تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظّم نفسه، فلو قال: (صلّ لنا) ، لَتَفَى ذلك الاحتمال وهو أنّه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ ، وقال :﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد الطاعة والعمل لله تعالى .

قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أبلغ من قوله: (فصَلّ لله) لأنّ لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها

---

(1) مفاتيح الغيب : 28 / 236 .

(2) التحرير والتنوير : 26 / 149 .

بقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه ". (1)

وقد زاد الطاهر بن عاشور إضافة إلى ما قاله الفخر الرازي ، فائدة أخرى تتمثل في تشريف النبي صلى الله عليه وسلم والرأفة به حيث قال : "والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ دون : ﴿ فصلِّ لنا ﴾ ، لِمَا في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه ، وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي صلى الله عليه وسلم وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربُّه ويرأف به ".(2)

وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيدٌ لترغيبه صلى الله عليه وسلم في أداء ما أُمِرَ به على الوجه الأكمل .

وممّا عُدَّ التفاتاً عن التكلُّم إلى الغيبة ، ما أشار إليه أبو حيان في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : 03 ، 04] ، إذْ اعتبر قوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ انتقالاً من التكلُّم إلى الغيبة في ﴿ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، والسياق يقتضي أن يقول: (بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ) ، (وَمَا أَنزَلْنَا مِن قَبْلِكَ) (3)

وإذا سلَّمنا بعدم مطابقة الفعل (أُنزِلَ) للفعل (رزقناهم) لأنَّ الأوّل مبنيٌّ للمجهول ، والثاني مبنيٌّ للمعلوم ، فإنَّ الرازق هو المنزِّل ، والفعل (أُنزِلَ) مجهول الفاعل لفظاً معلوم معنىً ، كما أنَّ الفعل (أُنزِلَ) الأوَّل معناه في الماضي ، أما الثاني فمعناه في المستقبل، لأنَّ القرآن لم يترل إذ ذاك إلا البعض منه لا الكل تغليباً للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيهاً على تحقق الوقوع ، فعبَّر بالماضي وكأنه بمترلة النازل قبل نزوله.كما فيه تشبيه جميع المترل بشيء نَزَل في تحقق الوقوع ، لأن بعضه نزل وبعضه سيترل قطعاً فيصير إنزال مجموعه مشبهاً بإنزال ذلك الشيء الذي نزل فتستعار صيغة الماضي من إنزاله لإنزال المجموع .

---

(1) مفاتيح الغيب . 32 / 331 – بتصرف –

(2) التحرير والتنوير : 30 / 574 .

(3) انظر البحر المحيط : 1 / 71 .

لذلك قال أبو حيان : " وهو عندي من الالتفات لأنه تقدم قوله :﴿ومِمَّا رزقناهم﴾، فخرج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة، إذ لو جرى على الأول لَجَاءَ (بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ)، (وَمَا أَنزَلْنَا مِن قَبْلِكَ) ، وجعل صلة (ما) الأولى ماضية لأن أكثره كان نزل بمكة والمدينة ، فأقام الأكثر مقام الجميع، أو غلب الموجود لأن الإيمان بالمتقدم الماضي يقتضي الإيمان بالمتأخر، لأن موجب الإيمان واحد .

وأما صلة الثانية فمتحققة المضي ولم يعد حرف الجر في (ما) الثانية ليدل أنه إيمان واحد، إذ لو أعاد لأشعر بأنهما إيمانان." (1)

وما قاله أبو حيان في تفسير هذا الالتفات ما يُغني عن كلِّ تعليل ، إذْ ألَمَّ بالمعنى الذي يقتضيه .

---

(1) المصدر السابق : 1 / 71 .

3- الالتفات من الخطاب إلى التكلّم :

اتفق العلماء على أنّه لم يرد شاهد في القرآن الكريم بخصوص هذا النوع من أنواع الالتفات، وحاول الإمام الزركشي أن يجد في قوله تعالى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ [طه : 72 ، 73] ، التفاتا على قول مَنْ لم يشترط أن يكون المراد واحداً ، فأما مَنْ اشترطه فلا يحسن أن يُمثّل به .(1) ،ونلاحظ أنّ الضمير في (إنّا أمنّا بربنا) لا يعود على (فاقض ما أنت قاضٍ) ، لذلك لا يجوز هذا الشاهد .

واكتفوا بالتمثيل لهذا النوع بقول علقمة الفحل:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

تُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْـيُـهَا وعادتْ عوادٍ بيننـا وخُطـوبُ (2)

إذ التفت من الخطاب (بك) في البيت الأوّل إلى التكلّم (تُكلّفني) في البيت الثاني ، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحدٍ لكان (تكلّفكَ) .

وقد حاول مصطفى شريقن أن يعثر على شواهد من القرآن الكريم لهذا النوع ، فقال : "ولكن بتوفيق من الله عزّ وجلّ ظفرتُ بدُرَّتَيْنِ لهذا النّوع ."(3) ، فاستدلّ في ذلك بقوله تعالى : ﴿ ثاني اثنين إذْ هما في الغار إذْ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا ﴾ .[التوبة : 40] ، والآية الثانية هي قوله تعالى : ﴿ فحقّ علينا قول ربّنا إنّا لذائقون ﴾ [الصافات :31] (4) .

فأوّلَ قولَهُ (إنّ الله معنا) بقوله (إنّ الله معك) ، وهذا غير جائز لأنّ شرط الالتفات أن يكون الضمير في الجملة الثانية خلافاً لمقتضى الظاهر . فالشاهد الأوّل وإنْ كان عدَل فيه عن الخطاب

---

(1) انظر البرهان في علوم القرآن : 3 / 317 .

(2) ديوان علقمة بن عبدة . ص : 33 .شرح الأعلم الشنتمري . تحقيق : لطفي الصقال – مطبعة الأصيل – حلب .1389 هـ/ 1969 م ، وينظر عروس الأفراح : 1 / 374 . ومختصر السعد : 121 .

(3) رسالة أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره : ص : 127 .

(4) انظر المرجع نفسه : ص : 128 و 130 .

إلى الـتكلُّم ، لكن لا يمكن تأويل قوله (إنَّ الله معنا) بـــ (إنَّ الله معك) ، لأنَّنا نراه في هذه الجملـة على مقتضى الظاهر ، لا يتحمَّل تأويله على خلاف ذلك ، فهل يكون الله عزّ وجلّ مع أبي بكر ويستثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما في حالٍ واحدة ؟! .

يقول الخازن (ت 725هـ) : " ومنها أنَّ الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ، ومَنْ كان الله معه دلَّ على فضل شرفه على غيره ". (1) ؛ والدليل على أنَّ قوله (إنَّ الله معنا) يشملهما معاً هو قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة :40] ، فالإخبار هنا في قوله (أنزل عليه وأيّده) كان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنْ كانت السكينة قد مسَّتْ أبا بكر رضي الله تعـالى عنه . وبذلك كيف يكون في الآية التفات من الخطاب إلى التكلُّم ، والضمير الثاني لا يحتمل التأويل غير ما هو عليه اللّفظ ؟.

أما الآية الثانية في قوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ .[الصافات:31] .فنلاحظ أنَّ سياق الكـلام يجـري علـى نسَـقٍ واحدٍ دون تلوُّنٍ في الخطاب ، فالضمير في (علينا) هو نفسه في (لَذائقـون)، وهو لا يحتمل التأويل ،لأنّ الحوار قبل هذه الآية كان بين الغاوين من أهل الكفر وأتـباعهم والدليل على ذلك هو قوله تعالى على: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ [الصـافات :27 ، 28، 29، 30] وقال الزمخشري:" فلزمنا قول ربنا: ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ ، يعني وعيد الله بأنَّا ذائقون لعَذَابه لا محالة ، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة . ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون ، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم ، لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم" (2) ، وقول الزمخشري واضح ، إذْ أنَّ الحوار كان يجري بين الغاوين وأتباعهم .

فـبما أنَّ الغـاوين هـم الذين كانوا يتحدّثون في قوله : ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴾ فالذي يُفهم من الآية الموالية هو (فحقَّ عليكم قول ربنا

---

(1) علاء الدّين علي بن محمد المعروف بالخازن : لباب التأويل في معاني التنزيل : 2 / 360 . تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين .الطبعة الأولى 1415هـ / 1995 م – دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .

(2)الكشاف : 3 / 339 .

إنّكم لَذائقون) ، أما أنْ نُؤَوِّلَ الثانية ونترك الأولى ،فلا يصحّ ذلك . ولا وجه للالتفات هنا حسب ما قدمنا عن شروط الالتفات .

ونُمثل لهذا النوع من الالتفات أيضاً بقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:22]. ففيه انتقال من الخطاب في قوله :﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى التكلُّم ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، إذ المقصود (مالكم لا تعبدون الذي فطركم)، على ما قدّمنا في الالتفات من التكلّم إلى الخطاب، وقد فصّلنا في ذلك فيُمكن مراجعته هناك .

4- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

قبل أن نشرع في الآيات التي اشتملت على هذا النوع من التلوين في الخطاب نذكر ما توهمه بعض المفسرين على أنّه من الالتفات وهو ليس منه ، من ذلك ما جاء في سورة البقرة ، قال تعالى :﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾[البقرة : 200] قال أبو حيان : " ولو جاء على الخطاب لكان: فمنكم من يقول: ومنكم. وحكمة هذا الالتفات أنهم ما وجهوا بهذا الذي لا ينبغي أن يسلكه عاقل، وهو الاقتصار على الدنيا، فأبرزوا في صورة أنهم غير المخاطبين بذكر الله بأن جعلوا في صورة الغائبين " (1) إذ اعتبر (من النّاس) تعود على المخاطب في (اذكروا)، والخطاب كان مُوجهاً للمسلمين الناسكين ، ثمَّ أخبر عن الكافر ، لأن همه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة .

قال القرطبي : " والمراد المشركون. قال أبو وائل والسدّي وابن زيد: كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها، فنُهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في

---

(1) البحر المحيط :2 / 309 .

صيغة الخبر عنهم. ويجوز أن يتناول هذا الوعيدُ المؤمنَ أيضاً إذا قَصر دعواته في الدنيا ؛ وعلى هذا فـ ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ أي كخلاق الذي يسأل الآخرة. والخلاق النصيب." (1)

ونقف على هذا اللون من التعبير في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 145 ، 146] فبعدما خاطب الله عزّ وجلّ الرسول صلى الله عليه وسلم (أتيتَ ، قِبلَتَكَ ، أنتَ ، اتبعتَ ،جاءَكَ ،إنَّكَ) ، عدل عنه إلى ضمير الغيبة (يعرفونه) ، والضمير هنا يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو حيان في تبيان حكمة هذا الالتفات : " أنه لما فرغ من الإقبال عليه بالخطاب، أقبل على الناس فقال: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ واخترناهم لتحمل العلم والوحي، يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآية السابقة وأمرناه ونهيناه، لا يشكون في معرفته ، ولا في صدق أخباره، بما كلفناه من التكاليف التي منها نسخ بيت المقدس بالكعبة، لما في كتابهم من ذكره ونعته، والنص عليه يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل."(2)

وقال الزمخشري قولا مبهماً مفاده أنّه " جاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع. ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام " (3)

إلا أنّ أبا حيان ردَّ هذا الزعم ، فقال : " ليس كما قالوه من أنه إضمار قبل الذكر: بل هذا من باب الالتفات ، لأنه قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ ، ثمَّ قال : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ ﴾ إلى آخر الآية، فهذه كلها ضمائر خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم التفت عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة "(3). وبعدما وضّح الحكمة من هذا الالتفات عاد

---

(1) أبو عبد الله القرطبي . الجامع لأحكام القرآن : 2 / 433 . الطبعة الثالثة .1387 هـ/ 1967 م – دار الكاتب العربي – بيروت . لبنان .

(2) البحر المحيط : 2 / 33 .

(3) الكشاف : 1 / 321 .

(4) البحر المحيط : 2 / 33 .

لتفنيد قول الزمخشري مستشهداً بقول عمر بن الخطاب فقال : " فقد اتضح بما ذكرناه أنه ليس من باب الإضمار قبل الذكر، وأنه من باب الالتفات، وتبينت حكمة الالتفات. ويؤيد كون الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما روي أن عمر سأل عبد الله بن سلام ، رضي الله عنهما، وقال: إن الله قد أنزل على نبيه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ الآية ، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله: يا عمر، لقد عرفته حين رأيته، كما أعرف ابني، ومعرفتي بمحمد صلى الله عليه وسلم أشدّ من معرفتي بابني. فقال عمر : وكيف ذلك؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقاً ، وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما يصنع النساء. فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت ." (1).

و قال أبو السعود في هذا العائد : "والضميرُ المنصوبُ في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتَهم له عليه السلام من حيث ذاتُه ونسبُه الزاهرُ بل من حيث كونُه مسطوراً في الكتاب منعوتاً فيه بالنعوت التي من جملتها أنه عليه السلام يصلي إلى القبلتين، كأنه قيل: الذين آتيناهم الكتابَ يعرِفون مَنْ وصفناه فيه. وبهذا يظهر جزالةُ النظم الكريم، وقيل: هو إضمارٌ قبل الذكر للإشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علَمٌ معلوم بغير إعلامٍ فتأمل ".(2)

وجاء في سورة آل عمران قول الله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران : 09] ، إذ انتقل من الخطاب (ربنا إنَّك) إلى الاسم الغائب ،وفي هذه الجملة الثانية اختلف علماء التفسير ، هل هو من قول الداعين أم أنَّه من قول الله عزّ وجلّ ؟ ولرفع اللّبس ، ينبغي أن نُورِدَ ما قاله أهل التفسير في ذلك ؛ فقد أورد الزمخشري كلاماً غريباً لا يسلم من آراء المعتزلة إذْ قال : " معناه أنَّ الإلهية تنافي خلف الميعاد، كقولك: إن الجواد لا يخيب سائله، والميعاد: الموعد ." (3)

---

(1) المصدر السابق : 2 / 33 ، وانظر :الجامع لأحكام القرآن : 2 / 162، 163 .

(2) إرشاد العقل السليم : 1 / 176 .

(3) الكشاف : 1 / 414 .

ورد أبـو حيان على هذا الزعم بقوله : "وفيه دسيسه الاعتزال بقوله: إن الإلهية تنافـي خلف الميعاد . وقد استدل الجُبَّائي بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ على القطع بوعيد الفُسَّاق مطلقاً، وهـو عندنا مشروط بعدم العفو، كما اتفقنا نحن وهم على أنه مشروط بعدم التوبة، والشرطان يثبتان بدليل منفصل، ولئن سلمنا ما يقولونه فلا نسلم أن الوعيد يدخل تحت الوعد.

وقال الواحدي: يجوز حمله على ميعاد الأولياء دون وعيد الأعداء، لأن خلف الوعيد كرم عند العرب ، ولذلك يمدحون به ، قال الشاعر:

إذا وَعَدَ السرَّاءَ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَإِنْ وَعَدَ الضرَّاءَ فَالْعَفْوُ مَانِعُهُ (1)

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الداعين، ويكون ذلك من باب الالتفات، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة لما في ذكره باسمه الأعظم من التفخيم والتعظيم والهيبة، وكأنهم لما والوا الدعاء بقولهم: ربنا، أخبروا عن الله تعالى بأنه الوفي بالوعد. وتضمن هذا الكلام الإيمان بالبعث، والمجازاة، والإيفاء بما وعد تعالى ".(2)

وبـيّنَ الفخـرُ الرازي الفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : 194] ، فقال : " الفرق والله أعلم أن هذه الآية في مقام الهيبة، يعني أن الإلهية تقتضـي الحشـر والنشر لينتصف المظلومين من الظالمين، فكان ذكره باسمه الأعظم أولى في هذا المقام، أما قوله في آخر السورة ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: 194] فذاك المقام مقام طلب العبد من ربه أن ينعم عليه بفضله، وأن يتجاوز عن سيئاته فلم يكن المقام مقام الهيبة، فلا جرم أنْ قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ . (3) وعلى رأي أبي حيان ليس في الآية التفات ، لأنَّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ هـو مـن كـلام الله تعـالى لا من كلام الراسخين الداعين وهو يدل على الاستئناف. (4)

---

(1) البيت للسري الـرفّاء الكندي (ت 366 هـ / 976 م) ،شاعر وأديب من أهل الموصل ، كان في صباه يرفو ويطرز في دكان له ، فعُرِفَ بالـرفاء. و (وعـد) الـواردة في عجز البيت في الأصل (أوعد) . ينظر الموسوعة الشعرية 2003م (قرص مضغوط) . إشراف : محمد أحمد السويدي . ولجنة الموسوعة :مجموعة دكاترة . المجمع الثقافي : 1997 – 2003 م .الموقع على الأنترنت : WWW.CULUTRAL.ORG.AE

(2) البحر المحيط : 3 / 33 ، 34 .

(3) تفسير مفاتيح الغيب : 7 / 183 .

(4) انظر البحر المحيط : 3 / 34 .

وفي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء : 47] عدل عن خطابهم (آمنوا) إلى الغيبة (وجوهاً) و (نلعنهم) ، وقد قال الفخر الرازي كلاماً متناقضاً ، إذ اعتبر في قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ " تكليفاً متوجهاً عليهم في جميع مدة حياتهم، فلزم أن يكون قوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ واقعا في الآخرة، فصار التقدير: آمنوا من قبل أن يجيء وقت نطمس فيه وجوهكم وهو ما بعد الموت." (1)

ولما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ قال : " فذكرهم على سبيل المغايبة، ولو كان المراد أولئك المخاطبين لذكرهم على سبيل الخطاب، وحمل الآية على طريقة الالتفات وإن كان جائزا إلا أن الأظهر ما ذكرناه." (2) ونفهم من كلامه أنَّ اللعنة لا تعود على المخاطبين ، وإنَّما هي موجّهة لعامة الكافرين ، مع أنَّ جملة ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ .

لكنَّ أبا حيان حاول أن يرفع هذا اللَّبس فقال عن الضمير في ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ : " قيل: عائد على الوجوه إن أريد به الوجهاء، أو عائد على أصحاب الوجوه، لأن المعنى: من قبل أن نطمس وجوه قوم، أو على الذين أوتوا الكتاب على طريق الالتفات، وهذا عندي أحسن. ومحسن هذا الالتفات هو أنه تعالى لما ناداهم كان ذلك تشريفاً لهم، وهز السماع ما يلقيه إليهم، ثم ألقى إليهم الأمر بالإيمان بما نزل، ثم ذكر أنّ الذي نزل هو مصدق لما معهم من كتاب، فكان ذلك أدعى إلى الإيمان، ثم ذكر هذا الوعيد البالغ فحذف المضاف إليه من قوله: من قبل أن نطمس وجوهاً والمعنى: وجوهكم، ثم عطف عليه قوله: أو نلعنهم، فأتى بضمير الغيبة، لأن الخطاب حين كان الوعيد بطمس الوجوه وباللعنة ليس لهم ، ليبقى التأنيس والهم ، والاستدعاء إلى الإيمان غير مشوب بمفاجأة الخطاب الذي يوحش السامع ويروع القلب ويصير أدعى إلى عدم القبول، وهذا من جليل المخاطبة. وبديع المحاورة ." (3)

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 10 / 116 .

(2) المصدر نفسه : 10 / 116 .

(3) البحر المحيط :3 / 668 ، 669 .

وقال أبو السعود في قوله تعالى ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً ﴾ : "متعلقٌ بالأمر مفيدٌ للمسارعة إلى الامتثال به والجدِّ في الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديدِ الواردِ على أبلغِ وجه وآكَده ، حيث لم يعلَّقْ وقوعُ المتوعَّدِ به بالمخالفة ولم يصرَّحْ بوقوعه عندها تنبيهاً على أن ذلك أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن الإخبار به وأنه على شرف الوقوعِ متوجِّهٌ نحوَ المخاطَبين، وفي تنكير الوجوهِ المفيدِ للتكثير، تهويلٌ للخطب وفي إبهامها لُطفٌ بالمخاطَبين وحسنُ استدعاء لهم إلى الإيمان ". (1)

وجاء هذا اللّون من التعبير في السورة ذاتها ، إذْ قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 64] ، عدل عن مخاطبة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله (جاءوك) إلى اظهار الاسم الغائب (واستغفرلهم الرسول)،ولو جرى الكلام على السياق الأوّل لقال (واستغفرت لهم) ، وفي هذا الانتقال قال الزمخشري " ولم يقل (واستغفرتَ لهم) ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان ." (2)

وقال الفخر الرازي : " إنما قال: ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ ولم يقل (واستغفرت لهم) إجلالا للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم إذا جاؤوه فقد جاؤوا من خصه الله برسالته وأكرمه بوحيه وجعله سفيرا بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله لا يردُّ شفاعته، فكانت الفائدة في العدول عن لفظ الخطاب إلى لفظ المغايبة ما ذكرناه." (3)

والملاحظ هو أنَّ كلَّ مَنْ أشار إلى هذا الالتفات كالنسفي (ت 710هـ) و أبي حيان الأندلسي والشوكاني (ت 1250هـ) ، لم يخرجوا عمّا قاله الزمخشري في اعتبار أنَّ الحكمة منه هي تشريفٌ للنّبي صلى الله عليه وسلم ، وتفخيمٌ لشأنه وتعظيمٌ لاستغفاره (4) ، وإضافة إلى

---

(1) إرشاد العقل السليم : 2 / 185 .

(2) الكشاف : 1 / 538 .

(3) تفسير مفاتيح الغيب : 10 / 154

(4) انظر : عبد الله بن أحمد النسفي : تفسير مدارك التنزيل : 1 / 134 .دار الكتاب العربي .بيروت.لبنان ، و البحر المحيط : 3 / 693 ، و محمد ابن علي الشوكاني : فتح القدير : 1 / 616 .تحقيق يوسف الغوش .الطبعة الثالثة .1417 هـ /1997 م – دار المعرفة – بيروت . لبنان .

ـا قالوه ، فهو إقرار بهذه المكانة ، لأنَّ مكانة النّبي عظيمة ، وإذا كان الأمر كذلك فهو تذكيرٌ بهذه المكانة العظيمة وإقرارٌ بها ، وإشارةٌ إلى قيمة استغفاره لهم ، فالنّبيُّ لم يكن صغيراً حتى يُعظَّم ، وإنّما مكانته أقرَّ بها الكافر قبل المسلم ، وقبل أن يُبعث عليه الصلاة والسلام إذْ شرَّفه الله منذ أن وُلد، وسيرته تشهد على ذلك .

وجاء في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس : 22]. انتقل من المخطابة ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ إلى الغيبة ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، و﴿ جَاءَهُمْ ﴾ ، و ﴿ وظَنُّوا ﴾ ، والضمير في (بهم) عائد على الموجودين في الفلك ، كما نجد في هذه الآية التفاتاً آخر يتمثَّل في الانتقال من الغيبة إلى الحضور ، وسنتكلَّم عن هذا النوع لاحقاً .

وللعلمـــاء في تبـــيان فائدة الالتفات في هذه الآية آراء مختلفة ، إذْ يقول الزمخشري : " فإن قلـت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهُم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح." (1)

وقـد رأى الفخر الرازي الانتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور أنَّهُ :"يدل على مزيد التقرب والإكرام. وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة، يدل على المقت والتبعيد."(2).

إلاّ أنَّ أبا حيان خالف الزمخشري في اعتبار أنّه للمبالغة في الإنكار والتقبيح ، ووافق رأي الرازي وزاد عليه بتفصيل ، فقال: " والذي يظهر ــ والله أعلم ــ أنّ حكمة الالتفات هنا هي أنّ قوله: (هو الـذي يسيركم في البر والبحر) خطابٌ فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين ، والمسيرون في البَرِّ والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل، فحَسُنَ خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر.

ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذُكِرَتْ حالة آل الأمر في آخرها إلى أنْ الملتبس بـــها البغي

---

(1) الكشاف : 2 / 231 .

(2) تفسير مفاتيح الغيب : 17 / 69 .

هو باغ في الأرض بغير الحق، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي. (1)

أما أبو السعود فيرى في هذا الالتفات إنكاراً وتقبيحاً ، حيث يقول : " والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان بما لهم من سوء الحالِ الموجبِ للإعراض عنهم كأنه يُذكر لغيرهم مساويءُ أحوالِهم ليعجِّبهم منها ويستدعيَ منه الإنكارَ والتقبيحَ، وقيل: ليس فيه التفاتٌ بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ إذا كان بعضُكم فيها إذ الخطابُ للكل ومنهم المسيَّرون في البر، فالضميرُ الغائبُ عائدٌ إلى ذلك المضافِ المقدر كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ﴾ [النور : 40] أي أو كذي ظلماتٍ يغشاه موجٌ ." (2)

وأخذ الإمام الزركشي بما قاله الزمخشري ثمَّ أضاف قولا لم يُنسبه لقائله : " وقيل : لأنَّ الخطاب أوَّلاً كان مع النَّاس : مؤمنهم وكافرهم ، بدليل قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، فلو قال : (وجرين بكم) لَلَزِمَ الذَّم للجميع ، فالتفتَ عن الأوَّل للإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية ، فعدلَ عن الخطاب العام إلى الذَّم الخاص ببعضهم ، وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم .

وقيل : لأنَّهم وقت الركوب حضروا ، لأنَّهم خافوا الهلاك وتقلّب الرِّياح ، فناداهم نداء الحاضرين ، ثمَّ إنَّ الرياح لما جرت بما تشتهي النفوس ، وأمنت الهلاك لم يبق حضورهم كما كان على ما هي عادة الإنسان ؛ أنَّه إذا أُمِرَ غاب، فلما غابوا عند جريه بريح طيِّبة فكَّرهم الله بصيغة الغائب، فقال: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ .(3)، وأورد السيوطي الكلام نفسه وبلفظه ، إلا أنَّه أشار إلى أنَّ القول الثاني هو من إشارات الصوفية. (4)

---

(1) البحر المحيط : 6 / 33 .

(2) تفسير إرشاد العقل السليم : 4 / 134 .

(3) البرهان في علوم القرآن : 3 / 318 .

(4) انظر معترك الأقران : 1 / 244 ، 245 ، والإتقان في علوم القرآن : 2 / 167 .

ولعلَّ الطاهر بن عاشور قد أفاد من كلّ هذه الآراء وخرج بما يفضي بفائدة الالتفات في هذه الآية فقال: " ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخصُّ المشركين فقال : ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ على طريقة الالتفات ، أي وجرين بكم.وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس : 23] فإنَّ هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين ، فقد أخرج من الخبر مَن عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلاً على القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين. وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز." (1)

كما اعتبر أنَّ الإتيان بضمير الغيبة في قوله :﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ للتصريح بأن النعمة شملتهم، وللإشارة إلى أن مجيء العاصفة فجأة في حال الفرح مراد منه ابتلاؤهم وتخويفهم. فهو تمهيد لقوله: ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ . (2)

والملاحظ في الآية الكريمةأنَّها صورة فنيّة رائعة تجعل السامع يستحضر المَشَاهدَ في ذهنه ، وكأنَّه يراها بعينيه ، فبعدما أخبر الله جلّت قدرته عن تسيير الخلق في البرِّ والبحر ، وفي ذلك دلالة على أنَّ كلَّ حركات الخلق وسكناتهم هي بيد الله سبحانه وتعالى ، فهاهو ينتقل إلى البحر حيث الفلك وبه رُكَّاب فصوَّر لنا حالهم وهم فرحون بالريح الطيِّبة التي كانت تجري بالفلك ، مطمئنون بما هم فيه ، بينما هم كذلك ، وإذا بالحال تتغيَّر وتأتي عواصف جعلت الأمواج تتلاطم ، ويختل توازن الفلك ؛ وعَلِمَ القومُ أنَّهم على شفا الهلاك ، وأنَّه لا مَنْجَا ممَّا هم فيه إلا اللُّجوء إلى الله ، لأنَّه لاملجأ ولا منجا منه إلاَّ إليه سبحانه ، فتحتَّم عليهم التضرُّع إليه بإخلاص ليُنجيهم ، على أن يكونوا له شاكرين، والله أعلم بهم من أنفسهم. فخطابهم على أنَّهم

---

(1) تفسير التحرير والتنوير : 11 / 135 .

(2) انظر المصدر نفسه : 11 / 135 .

حاضرون ، لتصوير حالة الفرح التي هم عليها، تأنيساً لهم ، ولعلَّهم ادعوا حبَّ الله ، فاستوجب الابتلاء لتمحيص ادعائهم ،وبما أنَّ الله أعلم بما يكتمون التفت عنهم إلى الغيبة كمَنْ يُديرُ وجهه عن المغضوب عليه ، وما يدلُّ على هذا الغضب قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس : 23].

وجاء في سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 92 ، 93] .

وفي سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون : 52 ، 53 ، 54]

ففي الآية الأولى انتقل من ضمير الخطاب ﴿أُمَّتُكُمْ ﴾ ، ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ ، ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ إلى صيغة الغائب ﴿ وَتَقَطَّعُوا ﴾ ،كما سلك نفس الأسلوب في الآية الثانية، حيث انتقل من مخاطبتهم ﴿فَاتَّقُونِ﴾ إلى الإخبار عنهم ﴿ فتقطَّعُوا أمرهم بينهم ﴾ ، وفي هذا الانتقال من الحضور إلى الغيبة معانٍ توحي بمدى اللُّوم الذي بلغه الكفار ، ففي الأنبياء قال ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ تخويفاً لهم ، وفي المؤمنون قال : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ تحذيراً لهم ، ثمَّ أعقب كلتا الآيتين بقوله ﴿ تقطَّعُوا ﴾ ، إيذاناً بأنَّ التقطيع اعتقب الأمر بالتقوى ، وذلك مبالغة في رفضهم ونفورهم عن توحيد الله وعبادته . ولعلَّ المفسرين استقوا هذه المعاني المتمثِّلة في النعي والتقبيح على أفعال الكفار (1) من قول الزمخشري: " والأصل: وتقطعتم ، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله. والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى. ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم ". (2)

---

(1) انظر : تفسير مفاتيح الغيب : 22 / 219 ، و تفسير إرشاد العقل السليم :6 /84 .

(2) الكشاف : 2 / 583 .

إلاَّ أنَّ الطاهر بن عاشور يرى رأياً آخر إضافة إلى احتمال الرأي السابق ؛حيث قال : " ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل. فعلى الوجه الأول الذي قدمناه في ضمائر الخطاب (1) في قوله تعالى :﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: 92] يكون الكلام انتقالاً من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتاً." (2)

وورد مثل هذا اللَّون في سورة النور في قوله تعالى :﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : 12] ، فهذه الآية نزلت لتُفَنِّد التهمة التي رُميت بها أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فبعدما انتشرت الشائعة ، ظنَّ النَّاس حقيقتها ، فجاءت هذه الآية لِردْعهم ، لذلك نجد الخطاب لهؤلاء المُتقوِّلين :﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ بصيغة الحاضر ، ثمَّ تحوَّل إلى الحديث عنهم بصيغة الغائب ، لِما في ذلك من معاني التسفيه والتوبيخ والرَّدع .

وفي ذلك قال الزمخشري : فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟ ولِمَ عَدَلَ عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أنَّ الاشتراك فيه مُقْتَضٍ أنْ لا يُصَدِّق مؤمنٌ على أخيه ولا مؤمنةٌ على أختها قول غائبٍ ولا طاعنٍ. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قَالَةً في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشك. وأن يقول بملء فيه بناء على ظنّه بالمؤمن الخيِّر." (3)

ولعلَّ توضيح الفخر الرازي لِهذا الالتفات زيادة على ما قاله الزمخشري ما يُقرِّب الفهم وتستسيغه العقول ، حيث قال : " وفي التصريح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يظن بالمسلمين إلا خيراً، لأن دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه إلى وجوب الاحتراز عن الضرر، وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن المعصية ، فإذا وجد هذا المقتضى

---

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير : 17 / 139 ، 140 .

(2) المصدر السابق : 17 / 141 ، 142

(3) الكشاف : 3 / 53 .

للاحتراز ولم يوجد في مقابلته راجح يساويه في القوة وجب إحسان الظن، وحرم الإقدام على الطعن." (1) وهذا ما قاله النسفي و الشَّوكاني ، أما الطاهر بن عاشور فقد اكتفى بما قال الزمخشري وأعاده بلفظه . (2)

وجاء في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : 31 ، 32] . انتقل من مخاطبتهم ﴿ لِيُرِيَكُمْ ﴾ إلى الحديث عنهم ﴿ نَجَّاهُمْ ﴾ ، وينطبق على هذا الالتفات ما قلناه عن الآية [22] من سورة يونس ، فيمكن مراجعته هناك .

وجاء في سورة فصّلت قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصّلت: 09 و 13] ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ : التفات خرج من ضمير الخطاب في قوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ إلى ضمير الغيبة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ وفي هذا الانتقال إعراضٌ عن خطابهم ، فلما كان المقام للتذكير بحجج الله الدالة على الوحدانية والقدرة الباهرة اقتضى الأمر مخاطبتهم ليُقبلوا ويؤمنوا به ، ولَمَا كان كفرهم وإعراضهم لا مناص لهم عنه ، استوجبت المغايبة توبيخاً وتحذيراً لهم.

لذلك قال ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً ﴾ : أي أعلمتكم حلول صاعقة . و نلاحظ أنّه كلما كان الحديث مع الكفار لدعوتهم إلى الإيمان ، تطلّب التعبير بضمير المخاطب ، ولما يكون الحديث عن البغي والإعراض يستعمل ضمير الغيبة ، وذلك فيه دلالة على الاحتقار واللامبالاة ومبالغة في التشنيع .

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 23 / 177 .

(2) انظر : تفسير مدارك التنزيل : 3 / 135 ، و فتح القدير : 4 / 17 ، وتفسير التحرير والتنوير : 18 / 174 ، 175 .

ولقد كثر هذا النوع من الالتفات في القرآن الكريم، وسنكتفي بالإشارة إلى الآيات المتضمّنة لهذا اللّون من التعبير ؛ فنجد في سورة النور قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : 64] إذ انتقل من مخاطبتهم (ما أتيتم) إلى الغيبة (ويوم يُرْجَعُونَ) ، وإنْ كان قد خاطب فئة المُكلّفين بصفة خاصة ، بعد الحديث عن المنافقين ، والمكلّفون فيهم المؤمن والمنافق ، فرجوع الخلق إلى الله يوم القيامة عام ، فإن كان قد خاطب فئة المنافقين بقوله ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، فهم يدخلون ضمن الرجوع ؛ وإنْ كان الخطاب ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ موجهاً إلى المسلمين ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ خاص بالمنافقين فليس بالتفات ، وقد سبق وأنْ ذكرنا الحكمة من هذا الانتقال إلى الغيبة ، وسَرَدْنا ما قاله ابن جنّي بتفصيل في الآية [281] من سورة البقرة ، فيمكن مراجعته في " غائية الالتفات وأسراره " من الفصل الأوّل . ونكتفي هنا بما قاله الفخر الرّازي في هذا الالتفات : "والخطاب والغيبة في قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاماً ويرجعون للمنافقين ." (1) .

وفي سورة الروم قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : 39] ؛ فانتقل من مخاطبتهم (آتيتم) إلى ذكرهم بصيغة الغائب ، وهذا مدح للمضعفين .

وجاء في سورة الأحزاب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ ﴾ [الأحزاب :50] . عدل عن مُخاطبة النّبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ إلى الحديث عنه بالغيبة ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ ﴾ وذلك لما في إظهار لفظ ﴿ النَّبِيِّ ﴾ من التفخيم والتكريم.

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 24 / 43 .

وفي سورة الزخرف قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف : 68 ، 69] فخاطبهم ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ﴾ ، ثمَّ قال بصيغة الغيبة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ، كذلك وقع هذا الالتفات في هذا الموضع لمدحهم وتشريفهم لما اتصفوا به من خصال حميدة .

ونجد مثل هذا التعبير السابق في قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات :07] خاطبهم بقوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ ﴾ ثمَّ حدَّث عنهم ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ .

ونجد لَبْساً في الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد:12] ففي قوله ﴿ خَالِدِينَ ﴾ هل هو إخبار عنهم بالخلود في الجنات بصيغة الغائب، أم هو جارٍ على السياق الأوَّل بطريق المخاطبة ؟، ونحن نرى هذا الاحتمال الأوّل ؛ إلا أنَّ أبا حيان رأى في الآية التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة ، حيث قال : " ولا مخاطبة هنا، بل هذا من باب الالتفات من ضمير الخطاب في ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿ خَالِدِينَ ﴾ . ولو جرى على الخطاب، لكان التركيب خالداً أنتم فيها."(1) ونحن لا نرى هذا ، ولا التفات في الآية ، لأنَّ ﴿ خَالِدِينَ ﴾ اسم فاعل فاعله مُضمَرٌ ، يصلح للمخاطب كما يصلح للغائب ، ولا دليل على أنَّه للغائب .

---

(1) البحر المحيط : 10 / 105 .

وهذه أهم الشواهد القرآنية التي تضمَّنت الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، ولا نقول إنَّنا أَلْمَمْنَا بجميع الآيات القرآنية التي توافرت على هذا اللَّون من التعبير ، فحقل القرآن الكريم مَعِينٌ لا يَنْضب ويبقى مفتوحاً للبحث والتمحيص ولا تنقضي عجائبه .

5-الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم :

ورد هـذا اللّون من التعبير كثيراً في القرآن الكريم ، وكلُّ لونٍ تَضمَّنَ أسراراً ولطائف تزيد في رونق الكلام وجماليته ، فالإخبار عن نفس غائبة لتتحوّل إلى متكلّمة لفظاً أو مجازاً فيه من الدلالات اللفظية والمعنوية ما يوحي بجعل السامع منساقاً إلى الاستماع والتأمُّل ، لذا سنورد أهمّ الآيات التي تضمَّنت هذا اللون وأوَّلها ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 22 ، 23] ، إذْ انتقل من الغيبة ﴿أَنزَلَ﴾ ،إلى التكلُّم ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ وفي هذا الانتقال غايةُ ما يكون في التبكيت وإزاحة العلل، خاصة وأنَّه ذكر نبيَّه صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية وأضافه إلى ضميرِ الجلالة لما في ذلك من التشريفِ والتنويه والتنبيهِ على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى ؛ كما أنَّ المقال جاء في مقام التعجيز والتحدي وإلقامِ الحجر، وهذا يقتضي إبراز العظمة والقدرة الإلهية ، – والله أعلم – لذلك قال أبو حيان : " لكن في هذا الالتفات من التفخيم للمُنَزِّل والمُنَزَّل عليه ما لا يؤديه ضمير غائب ، لا سيما كونه أتى بـ (نا) المُشْعِرَةُ بالتعظيم التام وتفخيم الأمر ونظيره، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا ﴾ [الأنعام :99] ، وتعدي (نَزَّل) بـ (على) إشارة إلى استعلاء المُنَزَّل على المُنَزَّل عليه وتمكنه منه، وأنه قد صار كالمُلابسِ له، بخلاف إلى فإنَّها تدل على الانتهاء والوصول ." (1) ، وقد سبقه في هذا المعنى بخصوص إضافة ضمير الجلالة إلى رسول

---

(1) البحر المحيط :1 / 168 .

الله الزمخشـــري الّـــذي بيَّن فائدة الترتيب في الآية حيث قال : " والكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً. وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه، وهو مسوق إليه ومربوط بـــه، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره. ألا ترى أن المعنى: وإن ارتبتم في أنّ القرآن منزل من عند الله. فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه." (1)

ومـا يلاحظ على تخريج أبي حيان لحكمة هذا الالتفات ، هو قوله أنَّ فيه تفخيماً للمُنَزِّل والمُنَزَّل عليه ، واللائق أن يقول : إظهار لفخامة المُنَزِّل والمُنَزَّل عليه ، لأنَّ في هذه اللَّفظة معنى المبالغة في إظهار الشيء على حقيقته ، وكيف يكون ذلك مع العزيز الجبَّار ومع القرآن الكريم ؟ ففخامتهما واقعـة لازمة ، وإنما تحتاج إلى إبرازها وتوصيلها إلى أذهان وقلوب الجاحدين ،؛ فلنحذر من مثل هذه النعوت والألفاظ .

وجاء في قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة :105، 106] ، فهو انتقال من غيبة ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ ، و﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ إلى تكلـــم بصيغة الحاضر ﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾ و ﴿ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ ﴾ ، فلما كان الحـديث عن إنزال القرآن ،رحمةً وإيتاء الفضل على نبيِّه الكريم ، استوجب التعبير بالغيبة إخباراً عن عظمة الله وقدرته ومشيئته ، وذلك الإخبار للكفار ،لما في إيتاء النبوة من الفضل العظيم ، والتعرُّضُ لعنوان الربوبية للإشعار بعليته لتنزيل الخير والإضافة إلى ضمير المخاطبـــين لتشريفهم ، ولإقـناط الكـــارهين والمشكّكين في القرآن ، ممَا علّقوا به أطماعَهم الفارغةَ ، فاقتضى التعبير بضمير المتكلّم الذي فيه تربية المهابة ، ورفع التهمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم أنَّ القرآن من عند محمد وطعنهم في النسخ ، إذْ قالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ؟ (2) ؛ فالتكلم بضمير الحاضر العظيم فـــيـــه

---

(1) الكشاف : 1 / 243 .

(2) انظر الكشاف : 1 / 303 .

زجرٌ وتسفيه لهؤلاء المشكّكين والمُتقوّلينَ . وبذلك علّل أبو السعود هذا الانتقال فقال : "والالتفاتُ بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والإشعارِ بمناط الحكم ، فإن شمولَ القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال في قوله عزَّ سلطانه: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ ﴾ [البقرة : 107] فإنّ عنوان الألوهية مدارُ أحكام ملكوتهما."(1)

ونجد في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ [المائدة : 12] التفاتين مختلفين ، إذْ انتقل الخطاب من الغيبة (أخذ الله) إلى التكلُّم (وبعثنا) ، ثم عاد من التكلُّم إلى الغيبة (وقال الله) ، ولو جرى الكلام على السياق الأوّل ، لكان (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعث منهم ...) ، لكن في هذا الانتقال حكمة لم يتنبَّه إليها المفسِّرون إلاّ أبو السعود الذي رأى أنّه جريٌ على سنن الكبرياء أو لأن البعثَ كان بواسطةِ موسى عليه السلام. (2) ، ولعلَّ الحديث بضمير الغيبة كان موجَّها إلى المسلمين إخباراً عن بني إسرائيل وصفاتهم الدنيئة المتمثّلة في نقض العهود مع نبيِّهم موسى وكذبهم على الله والكفر بآياته، وقتل الأنبياء ، والإفساد في الأرض .كلُّ هذه الصفات كانت في بني إسرائيل، واستحضار ضمير التكلُّم (وبعثنا منهم) فيه إبراز لعظمته سبحانه وتعالى ، وله أنْ يعبِّر بما شاء؛ فأخذ المواثيق مع اليهود كان بواسطة موسى عليه السلام ، وبعث النقباء تلازمه القدرة حتى تتمّ الطاعة والامتثال ، والله أعلم بحالهم .

وقد وردت آيات قرآنية كريمة في سور مختلفة من القرآن الكريم ، نسردها متتابعة لتشابهها في الغاية ، والتعبير ، وهي :

في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ [الأنعام : 99] عدل عن الغيبة (وهو الذي أنزل) إلى التكلُّم بنون العظمة (فَأَخْرَجْنَا) و (نُخْرِجُ) .

---

(1) تفسير إرشاد العقل السليم :1 / 141 .

(2) انظر المصدر نفسه : 3 / 14 .

وفي الأعراف : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف :57] تحوَّل عن الغيبة (وهو الذي يُرْسِلُ) إلى التكلُّم (سُقْنَاهُ) و(فَأَنْزَلْنَا) و(فَأَخْرَجْنَا) .

وفي طه : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه : 53] .ومن التكلُّم (جعل) و(سلك) و(أنزل) إلى الغيبة (فأخرجنا) .

وفي النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] وهنا كان الانتقال من الغيبة (خَلَقَ) و(أَنْزَلَ) إلى الحضور بصيغة المتكلِّم (فأنبتنا) .

وفي لقمان: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : 10] ، عدل عن الغيبة (خلق) و(ألقى) ، و(بَثَّ) إلى التكلّم بنون العظمة (وأنزلنا) ، و(فأنبتنا) .

وفي فاطر : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر : 09] انتقل من (والله الذي أرسل)، إلى الغيبة (فسقناه) و(فَأَحْيَيْنَا) .

وفي فاطر أيضاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر :27] التفت عن الغيبة (أنزل) إلى التكلُّم بنون العظمة (فأخرجنا) .

وفي الزخرف: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف:11] كان التعبير بالغيبة (نزَّل) فعدل عنه إلى التكلُّم (فأنشرنا) ؛ فهذه ثماني آيات وردت بتعبير واحد فيها الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة نون العظمة لإنزال الماء من السماء وإنبات النبات،

مِمّا يدل على عظمة شأن الإنزال والإنبات وفي ذلك برهان على عظيم قدرته ولطيف صُنعه وحِكْمَته سبحانه وتعالى . والله عظيمٌ سواء عبَّرَ عن جلالته بالغيبة أو بالتكلُّم ، إلاّ أنَّ في نون التكلُّم بصيغة الجمع وقعاً بليغاً في نفس السامع ، خاصة إذا كان في قلبه ريب في الإيمان بالله .

وقد استقينا من بديع الزمان النَّورسي (ت 1379 هـ) (1) معنًى لطيفاً في التعبير بنون العظمة ؛ وهو أنَّ إخراج النبات أو إنباته ، يكون عامّاً يَمَسُّ جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وهنا تتجلَّى رحمة الرحمان جَلَّتْ قُدْرَتُهُ . أما الأفعال المُعَبَّر عنها بصيغة الغائب مع تلوُّنها في الدلالة فإنَّها من فعل الله وتقديره سبحانه ، فلا يشاركه فيها أحد ؛ لأنَّ إنزال الماء من السماء أو تسخير السحاب وإرسال الرياح ليس بالضرورة أن ينتفع منه جميع الخلق ، فقد يكون هلاكاً لهم ، حتى للنبات كالأشجار وللبنيان و للدَّوَاب عامة ، لذلك نجد في التعبير بهذه النون رحمةً ونفعاً لجميع المخلوقات .

والأمر الثاني يتجلى في اختلاف هذه الأفعال ، فنجده مرة يُعَبِّرُ بـ (أنزلنا) ومرة بـ (أخرجنا) ومرة أخرى بـ (سقناه) وأخرى بـ (أنشرنا) هذا عند التعبير بضمير التكلُّم ، أما التعبير بصيغة الغائب فنجد الأفعال تتغيَّر من (يُرسِلُ) إلى (جَعَلَ) و(سَلَكَ) و(أَنْزَلَ) إلى (خَلَقَ) و(أَلْقَى) و(بثَّ) إلى (أَرْسَلَ) و(نَزَّلَ) ، وفي هذا التلوين في الأفعال دلالة في الإعجاز خاض فيها أهل التفسير ، فمنهم مَنْ قارب الصواب ، ومنهم مَنْ لا زال يحوم حول حقيقة الفعل .

فقد قال الطاهر بن عاشور في الفرق بين الفعلين (أَنْزَلَ) و(نَزَّلَ) : " والتضعيف في (نَزَّلَ) للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنّما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كمّيته، في الفعل المتعدّي بغير التضعيف، من أجل أنّهم قد أتوا ببعض الأفعال المتعدّية، للدلالة على ذلك، كقولهم: فَسَر وفسَّر، وفَرَق وفرّق، وكَسَر وكسّر، كما أتوا بأفعال قاصرة بصيغة المضاعفة، دون تعدية للدلالة على قوة الفعل، كما قالوا: مَاتَ ومَوّت وصَاح وصيّح. فأما إذا صار التضعيف للتعدية فلا أوقن بأنّه يدلّ على تقوية الفعل، إلاّ أن يقال: إنّ العدول عن التعدية بالهمز، إلى التعدية بالتضعيف، لقصد ما عُهد في التضعيف من تَقوية معنى الفعل." (2)

---

(1) انظر إشارتنا إلى ما قاله عند التطرُّق إلى الالتفات " من الغيبة إلى الخطاب " في سورة الفاتحة .

(2) تفسير التحرير والتنوير : 1 / 147 .

والفعل (نَزَّلَ) في سورة الزخرف وضَّحته كلمة (بِقَدَر) أي أنَّ الماء يترل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم .

والتعبير بـ (أحيينا) ثمَّ في موضع آخر بـ (أنبتنا) ، فلأنَّ الماء سببٌ في خروج النّبات وحياته لذلك عبَّرَ في موضع آخر بـ (أَحْيَيْنَا) فهي آيات متكاملات يُفسِّر بعضُها بعضاً .

لهذا نجد الحكمة من هذه الالتفاتات تكمن فيمايلي :

1- ففي سورة الأنعام من الآية : [99] جاء الالتفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله . وقال الآلوسي: " والالتفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله . وذكر بعضهم نكتة خاصة لهذا الالتفات غير ما ذُكِر وهي أنه سبحانه وتعالى لَمَّا ذكر فيما مضى ما يُنَبِّهك على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجه إليه حتى يخاطب ، واختيار ضمير العظمة دون ضمير المتكلم وحده لإظهار كمال العناية ، أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته "(1)

وفي سورة طه من الآية:[53] دلالة على عظمة الخالق مُنزل الماء ومُحيي النبات ومُخرِجه على اختلاف ألوانه وطبائعه . وما في مقدور الإنسان إلا الحرث وزرع النبات وسقيه.

وقال محمد أمين الشنقيطي (ت 1393هـ) في هذا الالتفات : " وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في إنبات النبات، يدل على تعظيم شأن إنبات النبات لأنه لو لم يترل الماء ولم ينبت شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً. فهو يدل على عظمته جلّ وعلا، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له جلّ وعلا ". (2).

وهناك من ذهب إلى أنَّ (فأخرجنا) من كلام موسى عليه السلام وليس من كلام الله ،

---

(1) تفسير روح المعاني : 7 / 238 .

(2) أضواء البيان في تفسير القرآن : محمد الأمين الشنقيطي : 04 / 22 .طبعة . 1415هـ / 1995 م – دار الفكر – بيروت . لبنان .

وبذلك ليس فيه التفات وقد ردَّ الفخر الرازي هذا الزعم بتفصيل قائلاً: " واعلم أن قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والأول باطل ، لأنَّ قوله بعد ذلك : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه : 54 ، 55] لا يليق بموسى عليه السلام وأيضاً فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لا يليق بموسى لأن أكثر ما في قدرة موسى عليه السلام صرف المياه إلى سقي الأراضي وأما إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها، فليس من موسى عليه السلام فثبت أن هذا كلام الله ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لأنَّ الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال: إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه : 53] ويكون التقدير هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فيكون الذي خبر مبتدأ محذوف ويكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب التفاتاً." (1)

وبهذا الرأي أخذ المفسرون ، وأمنوا اللَّبس ، لذلك لم يتطرق الطاهر بن عاشور لتلك الاحتمالات واكتفى بذكر حسن هذا الالتفات فقال : " وحسنه هنا أنّه بعد أن حَجّ المشركين بحجّة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكلّم المطاع فإن الذي خلق الأرض وسخّر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر، فهو يُخرج النّبات من الأرض بسبب ماء السماء ، فكان تسخير النبات أثراً لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض." (2)

وفي سورة النمل، الآية:[60] ، فائدة الالتفات هي إظهار قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق ، والبرهنة على عجز الإنسان عن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 22 / 68 ، 69 .

(2) تفسير التحرير والتنوير :16 / 237 ، 238 .

والألوانِ والطُّعومِ والرَّوائحِ والأشكالِ مع ما لها من الحُسنِ البارعِ والبهاءِ الرَّائعِ بماءٍ واحدٍ ، ممَّا لا يكادُ يقدرُ عليه إلا هو وحدَهُ، وإن كان الإنسان قد زرع وسقى فليس بمَقدوره إنباته ، وهنا تتجلى قدرته سبحانه وتعالى ، فالمقام يقتضي استعمال نون العظمة ، خاصة وطبيعة القوم يكسوها الـريب ، أما في أنفسهم فيُقرون بهذه الحقائق ، لكنَّهم يعدلُون ، لذلك أعقب هذه الآية بسؤال يُـبْكِتُ كُلَّ مريب إذْ قـال سبحانه : ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُـمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل :60] وفي حكمة هذا الالـتفات قال الفخر الرازي أنَّه : " لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء مـن السـماء لـيس إلا الله تعالى، وربما عرضت الشبهة في أن مُنبتَ الشجرة هو الإنسان، فإن الإنسان يقول أنا الذي ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقـيها الماء وأسعى في تشميسها، وفاعـل السـبب فاعل للمسبب ، فإذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائماً ، لا جرم أزال هـذا الاحـتمال فـرجع من لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ وقال : ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ لأن الإنسـان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلاً بطبعه ومقداره وكيفيته ، فكيف يكون فاعلاً لها ، فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا." (1) وهذا ما قاله أبو حيان وأبو السعود. (2)

وأضـاف الطاهر بن عاشور فائدة لم يُشِرْ إليها سابقوه ، إذْ قال: "ومن لطائفه هنا التنصيص على أنَّ المقصود إسناد الإنبات إليه لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء ، لأنَّ التذكير بالمنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمه." (3)

وفي سـورة فاطـر، الآية :[09] ورد الالتفات هنا من الغيبة إلى التكلُّم لتبيان الدلائل على القـدرة الإلـهية الباهرة ، والتي منها سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها. وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادهما إلى نون العظمة المنبئ عـن

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 24 / 206 .

(2) انظر البحر المحيط : 8 / 257 ، و تفسير إرشاد العقل السليم : 6 / 294 .

(3) التحرير والتنوير : 20 / 11 .

الاختصـــاص به تعالى لِمَا فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبه به بقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربانية .

وعلَّل الزمخشري سبب التعبير بالمضارع ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ بعد الماضي ﴿ أرسل ﴾، و ﴿ سقناه ﴾ فقـــال: "ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهمّ المخاطب ، أو غير ذلك ." (1)

واتفق المفسرون على ما قاله الفخر الرازي في توضيح سبب إسناد الفعل ﴿ أَرْسَلَ ﴾ إلى الغائب ثُمَّ العدول عنه إلى المتكلم ﴿ سُقْنَٰهُ ﴾ ثُمَّ ﴿ فَأَحْيَيْنَا ﴾ إذْ قال: " وذلك لأنَّه في الأول عرَّف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ، ثم لما عُرِفَ قـــال : أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ففـــي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ، وفي الثاني كان نذيراً بالنعمة فإن كمال نعمة الـرياح والسحب بالسَوْقِ والإحياء وقوله: ﴿ سُقْنَٰهُ * وَأَحْيَيْنَا ﴾ بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله: ﴿ أَرْسَلَ ﴾ وبين قوله: ﴿ تُثِيرُ ﴾ ."(2)

وعـــن الرازي نقل أبو حيان هذا التفسير وأعاده بلفظه ، وكذلك نهج الآلوسي ، أما الطاهر بن عاشور فقد اكتفى بما قاله الزمخشري . (3)

لـــذا نجد تشابهاً بين هذه الآية والآية [11] من سورة الزخرف : فَنُونُ العظمة عبَّرَت عنْ كمال العـــناية بأمـــر الإحـــياء والإشعار بعظم خطره، وفي ذلك ردٌّ على منكري البعث . فكلا الآيتين خُـــتِمَت بذكـــر النشور ، وفي التعبيرِ عن إخراجِ النباتِ بالإنشار، الذي هُو إحياءُ المَوتى وعن إحـــيائهم بالإخراجِ ، تفخيمٌ لشأنِ الإنباتِ وتهوينٌ لأمرِ البعثِ لتقويمِ سننِ الاستدلالِ وتوضيحِ منهاجِ القياسِ ، وفي ذلك من الردِّ على منكري البعث ما فيه.

---

(1) الكشاف : 3 / 302

(2) تفسير مفاتيح الغيب : 26 / 07 ، و انظر البحر المحيط : 9 / 17 ، و روح المعانـــي : 22 / 172 .

(3) تفسير التحرير والتنوير : 22 / 268 .

أما في الآية [27] من سورة فاطر فقد ورد فيها الالتفات لإظهارِ كمال الاعتناءِ بالفعلِ لما فيه من الصُّنعِ البديعِ المنبئ عن كمالِ القُدرةِ والحكمةِ . وهذا الالتفات فيه حكمة بليغة ذكرها الرازي إذْ قال : " هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف الأولى: قال أنزل وقال أخرجنا. وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له ، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم ووجه آخر: هو أن الله تعالى لما قال: ﴿ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾ علم الله بدليل، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين، فقال له أخرجنا لقربه ، ووجه ثالث: الإخراج أتم نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتمّ إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب." (1) و ذلك ما قاله أبو حيان أيضاً . (2)

وزاد الطاهر بن عاشور في توضيح غائية هذا الالتفات فقال : " والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿ أَنزَلَ﴾ وقوله: «أخرجنا» لأن الاسم الظاهر أنسب بمقام الاستدلال على القدرة لأنه الاسم الجامع لمعاني الصفات، وضمير التكلم أنسب بما فيه امتنان . وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد." (3)

أما الالتفات إلى التكلُّم بنون العظمة في الآية [10] من سورة لقمان فقد أُشرِب كلّ المعاني التي أوردناها في الآيات السابقة ، من استحضار عظمة الخالق وقدرته على الخلق والإحياء في قلب السامع ، ومن تربية المهابة واتخاذ العبرة من الآيات الربانية .

ونجد في سورة النحل قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل : 51] ، انتقل من الحديث عن جلالته بصيغة الغائب ، إلى التكلُّم بضمير العظمة

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 26 / 20 .

(2) انظر البحر المحيط :9 / 28 ، 29 .

(3) تفسير التحرير والتنوير: 22 / 301 .

(إياي) و (فارهبون) ، ولوجاء الكلام على النظم الأوّل لكان (إنّما هو إله واحد فإياه فارهبوه)، وفي هذا الموضع حضور ضمير التكلُّم أبلغ في الرهبة من التعبير بالغيبة فالأمر يتطلّب الخضوع لله تعالى وكبريائه، كما فيه النهي عن الشرك .

قال الفخر الرازي : " والتقدير: أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله ، فَحِينَئِذٍ يَحْسُنُ منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور، ويقول: ﴿ فَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ ، وفيه دقيقة أخرى وهو أن قوله: ﴿ فَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث، أما القديم الذي هو الإله فهو واحد، وأما ما سواه فمحدث، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات. ثم قال بعده: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا حق، لأنه لما كان الإله واحداً، والواجب لذاته واحداً، كان كل ما سواه حاصلاً بتخليقه وتكوينه وإيجاده." (1)

وقال أبو السعود : "وفيه التفاتٌ من التكلم إلى الغَيبة على رأي من اكتفىٰ في تحقق الالتفات بكون الأسلوب الملتفَتِ عنه حقَّ الكلام ولم يشترِط سبقَ الذكرِ على ذلك الوجه ﴿ فَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدّم المفعولَ وكرر الفعلَ أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياىَ فارهبون لا غيرُ فإني ذلك الواحدُ الذي يسجُد له ما في السموات والأرض." (2)

وعلى نفس التركيب قال الله تعالى في أوّل هذه السورة :﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل :02] إذ انتقل من ذكر جلالته بصيغة الغائب (يُنَزِّل الملائكة) إلى التكلُّم (أنا فاتقون) فالخطاب للمستعجلين لذلك قال الزمخشري : "كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعد." (3) ؛ فإذا

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 20 / 48 ، 49 .

(2) إرشاد العقل السليم : 5 / 119 .

(3) الكشاف : 2 / 400 .

كان الأمر كما ذُكِرَ من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبـــياء عليهم السلام وأمرِهم بأن يُنذِروا الناسِ أنه لا شريك له في الألوهية ، فاتقون في الإخلال بمضمونه ومباشرةِ ما ينافيه من الإشراك وفروعه التي من جملتها الاستعجالُ والاستهزاءُ.

قال أبو حيان : "وحكاية المعنى هنا أبلغ إذ فيها نسبة الحكم إلى ضمير المتكلم المنزل الملائكة ، ثُمَّ دل على وحدانيته ، وأنَّه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض، وهو(1) مقرون بأنه تعالى هو خالقها." (2)

وفي سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء :01] إذْ عدلَ عن الغيبة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ إلى التكلُّم ﴿ بَارَكْنَا ﴾ ثُمَّ من التكلّم (لنريه) إلى الغيبة (إنَّه هو السميع البصير) ، ولو اتخذ الكـلام مجـرىً واحداً لكان : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليُرِيَهُ من آياته ، إنَّه هو السميع البصير).

وفـي هذا الالتفات لطائف جليلة رصدها العلماء ، وبيّنوا أوجه الدلالة فيها ، فالفعل ﴿لِنُرِيَهُ﴾ هـو غايـة الإسراء ، وإشارة إلى أنَّ الحكمة في الإسراء به أنْ يُرِيَهُ آيات مخصوصة بذاته تعالى ، تشـريفا لنبـيِّه الكريم ، هذه الآيات لم يُرِهَا أحداً من الأولين والآخرين إلا سيد المرسلين وخاتم النبـيين فإنه تبارك وتعالى أرى خليله عليه السلام وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه الملكوت كما قـال: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: 75] وأرى حبيبه آيات ربوبيته الكـبرى كما قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 18] ليكون من المحبين المحبوبين فمن بعضـية لأن ما أراه الله تعالى في تلك الليلة إنما هو بعض آياته العظمى وإضافة الآيات إلى نفسه على سبيل التعظيم لها لأن المضاف إلى العظيم عظيم .

---

(1) جاء لفظ "وهم" في المدونة ، والأصح "وهو" والمعنى لا يستقيم بـ (هم) .

(2) البحر المحيط : 6/ 505 .

وقد فصَّل المفسرون في هذه القصَّة وما يهمنا هنا هو الحكمة من هذا الالتفات ، فمن بين كتب التفسير نجد الآلوسي قد تطرَّق لذلك وفصَّل فيه تفصيلاً دقيقاً ، هذا نصّه :" وصرف الكلام من الغيبة التي في قوله سبحانه: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ إلى صيغة المتكلم المعظم في ﴿ بَارَكْنَا ﴾، ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ لتعظيم البركات والآيات لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير تدل على عِظَمِ ما أُضِيفَ إليه وصَدَرَ عنه ،كما قيل إنما يفعل العظيمُ العظيمَ ، وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة وهي أن قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ يدل على مَسيرِه عليه الصلاة والسلام من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فهو بالغيبة أنسب وقوله تعالى: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ دَلَّ على إنزال البركات فيناسب تعظيم المنزل والتعبير بضمير العظمة متكفل بذلك.

وقوله سبحانه: ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ على معنى بعد الاتصال وعز الحضور فيناسب التكلم معه، وأما الغيبة فلكونه صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ليس من عالم الشهادة ولذا قيل إن فيه إعادة إلى مقام السر والغيوبة من هذا العالم والغيبة بذلك أليق وقوله تعالى: ﴿ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ عود إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه، وأما الغيبة في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ على تقدير كون الضمير له تعالى كما هو الأظهر وعليه الأكثر فليطابق قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه وينطبق عليه التعليل أتم انطباق إذ المعنى قرَّبَهُ وخَصَّهُ بهذه الكرامة لأنه سبحانه مطلِّع على أحواله ،عالِمٌ باستحقاقه لهذا المقام." (1)

ورغم تضمُّن كتب التفسير لهذه اللطائف الجليلة ، وجدنا الطاهر بن عاشور يذكر لطائف ثلاث لا بأس أن نستحسن اثنتين ونردُّ الثالثة إذْ قال: " منها: أنه لما استُحضرت الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم.

---

(1) روح المعاني : 15 / 13 .

إنها: الإيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.

إنها: التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ ، فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير لأن الشأن تناسق الضمائر، ولأن العود إلى الالتفات بالقرب ليس من الأحسن." (1)

اعتبر أنَّ الضميرين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُوَٱلسَّمِيعُٱلبَصِيرُ﴾ يعودان إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، وبرَّر ذلك بقوله :" الأظهرُ أن الضميرين عائدان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقاله بعض المفسرين ، واسْتَقْرَبَه الطيبي، ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى. ولعل احتماله للمعنيين مقصود.

وقد تجيء الآيات محتملة عدّةَ معانٍ. واحتمالها مقصود تكثيراً لمعاني القرآن ، ليأخذ كل منه على مقدار فهمه."(2) ، في حين إنَّ في قوله ﴿ إِنَّهُوَٱلسَّمِيعُٱلبَصِيرُ﴾ التفات من التكلُّم (لنُرِيَهُ)إلى الغيبة (إنَّه هو) فالضميران يعودان إلى الله عزّ وجلّ الذي من صفاته (السميع ، البصير)، ولا طائل من تحميل الآية أكثر من المقصود ، مع أنَّ الزمخشري قد وضَّح معناهما حين قال: " ﴿ إِنَّهُوَٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال محمد ﴿ ٱلبَصِيرُ﴾ بأفعاله العالم بتهذيبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب ذلك " (3)

ولعلَّ أرجح تخريج للالتفات في الآية إضافة على ما قاله الآلوسي ، هو قول ابن الأثير، هذا نصه:" لَمَا بدأ الكلام بسبحان ردفه بقوله الذي أسرى ، إذْ لا يجوز أنْ يُقالَ : الذي أسرينا ؛ فلما جاء بلفظ الواحد والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع، استدرك الأوّل بالثاني ؛ فقال :﴿ باركنا ﴾ ثمّ قال : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ فجاء بذلك على نَسَقِ ﴿ باركنا ﴾ ثم قال ﴿ إِنَّهُ هو ﴾ السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره، وتلك حال متوسطة، فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب نائب ." (4)

---

(1) تفسير التحرير والتنوير : 15 / 21 ، 22 .

(2) المصدر السابق : 15 / 22 .

(3) الكشاف :2/ 437

(4) المثل السائر : 2 / 06 .

والذي نلاحظه على هذا النوع من الالتفات هو أنّه كلّما كان العدول إلى التكلُّم بضمير العظمة أفاد تربية المهابة والرهبة في قلوب السامعين ، وإبراز جلالته على ما هو عليه من عزّة و عظمة .

وعلى غرار ما سبق يمكن تفسير الالتفات الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان : 45] إذ التفت من الغيبة (ربِّك)، و (ولو شاء) إلى التكلُّم بصيغة الجمع (جعلنا) ، ولا يخرج هذا الالتفات على ما سبق قوله .

6-من الغيبة إلى الخطاب :

لعلّ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب هو أكثر أنواع الالتفات وروداً في القرآن الكريم ، لذلك سنقتصر على أهمّ الآيات المعبّرة عن حقيقة العدول عن الغيبة إلى التكلّم ؛ وأوّل سورة من كتاب الله تضمّنت هذا النوع من التعبير، إذْ قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة :2، 3، 4، 5] (الحمد لله) ، واضحٌ أنّ هذه السورة استهلّت خطابها استهلالاً التفاتياً ، فممّا لا يخفى على القارئ أنّ الحمد في هذا السياق القرآني توجّهَ لله بصيغة الغَيْبِ ، هذا الغيبُ ما لبثَ أنْ تحوّل إلى شهود على صعيد الخطاب ، من خلال استخدام الآية لضمير المعاينة والمواجهة (إياك) ، فالعلاقة النصّية (الحمد لله – إياك) علاقة غيبة بشهود . والأصل الافتراضي (الحمد لله إياه) لكنّ بلاغة القرآن علتْ من الالتفات أحدَ وجوه سموّها وحيويتها ، ذلك لأنّها بلاغة تستولي على المتلقي بعُدّة بيانية كبرى ، من بينها الالتفات ، واستيلاؤها استيلاءً تنشيطي ، فالمتلقي يدفع به الخطاب القرآني إلى حلقة الفعل ، فيجعله طرفاً . وعلاقة الطرفية هنا في هذه الآية (الله – إياك) ، فالقارئ كان يتحدّث عن الله ، فأضحى فجأةً يتحدّث مع الله وفي حضرته ، بكامل الخضوع والتعظيم اللّذين يستحقّهما الخالق الرحيم .

وهذا الأسلوب في الآية ضبط له العلماء لطائف كثيرة ؛ وقد سبق أن ذكرنا قول ابن جنّي في الفصل الأوّل ، ونعيده هنا لفائدة سنذكرها لاحقاً ، حيث فسّر ابن جنّي سبب العدول عن الغيبة إلى التكلّم في الآية بقوله : " أنّ الحمد معنى دون العبادة ، ألا تراك قد تحمد نظيرك ولا تعبده ، لأنّ العبادة غاية الطاعة ، والتقرّب بها هو النهاية والغاية ؟ ، فلما كان كذلك استعمل لفظ (الحمد) لتوسّطه مع الغَيبة فقال (الحمد لله) ولم يقلْ (لك) ، ولَمّا صار إلى العبادة الّتي هي أقصى أمد الطاعة قال:(إيّاك نعبدُ) ، فخاطبَ بالعبادة إصراحاً بها وتقرّباً منه عزّ اسمه بالانتهاء إلى محدوده منها."(1)

---

(1) المُحتَسَب : 1 / 240 .

وسبب إعادتنا لهذا القول في هذا الموضع هو أنَّ معظم مَنْ جاء بعد ابن جنّي من علماء البلاغة وأهل التفسير أخذوا بهذا القول ولم يزيدوا عليه كالنسفي والشوكاني (1) لكنَّهم لم يشيروا إلى صاحب الفضل ، بل منهم مَنْ أثنى على ابن الأثير كأبي حيان ، وكأنَّ الفضل الأوَّل يرجع إليه. (2)

وقد حاول أبو حيان إثراء هذا القول وازدياده لكنَّه بقي يدور في فلك ابن جنّي؛ حيث قال : "وفائدته في إياك نعبد أنه لما ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك ، والملك لليوم المذكور، أقبل الحامد مخبراً بأثر ذكره الحمد المستقر له منه ومن غيره، أنه وغيره يعبده ويخضع له. وكذلك أتى بالنون التي تكون له ولغيره ، فكما أنَّ الحمد يستغرق الحامدين ، كذلك العبادة تستغرق المتكلم وغيره. ونظير هذا أنَّك تذكر شخصاً متصفاً بأوصاف جليلة، مخبراً عنه أخبار الغائب، ويكون ذلك الشخص حاضراً معك فتقول له: إياك أقصد، فيكون في هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ إياه، ولأنه ذكر ذلك توطئة للدعاء في قوله ﴿اهدنا﴾." (3)

وإذا تفحّصنا هذا القول نجده لا يخرج عمَّا قاله ابن جنّي إلا أنَه زاد شيئاً مبهماً، وهو كون العبادة تستغرق المتكلّم وغيره ؛ فهل يعني أنَّك قد تحمد نظيرك وتعبده ؟!.

ولقد استوقفتني نون الجماعة في قوله (نعبد ونستعين) ، بدل (إياك أعبد وإياك أستعين)، وتساءلتُ عن السرّ في هذا التعبير ، فلمستُ في تفسير أبي السعود لهذا الالتفات ما يشير إلى ذلك؛ إذ اعتبَر تفرّدَ الله تعالى بذاته المقدّسة عمَّن سواه بالكلّية يستوجب العبودية ، واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميِّزة له عن جميع أفراد العالمين ، يوحي بافتقار الكلّ إليه في الذات والوجود ابتداءً وبقاءً . مما يقتضي الترقي من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقلَ من عالم الغَيبة إلى معالم الشهود ، ويلاحظَ نفسَه في حظائر القدْسِ حاضراً في محاضر الأنس، كأنه واقفٌ

---

(1) انظر : المثل السائر :2 / 4 ،5 و معترك الأقران :1 / 246 ، ومدارك التنزيل : 1 / 07 ، وروح المعاني : 1 / 89 .

(2) انظر: البحر المحيط .1 /43 .

(3) المصدر نفسه : 1 / 42 .

لـدىٰ مــولاه ماثلٌ بــين يديه، وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرَعُ بالضَّراعة بابَ المناجاة نـائلاً: يا مَنْ هذه شؤونُ ذاتِه وصفاته، نخصُّك بالعبادة والاستعانة، فإن ما سواك كائناً ما كان بمعزل من استحقاق الوجود، فضلاً عن استحقاق أن يُعبد ويُستعان (1)

وتوقف بديع الزمان النّورسي عند هذه النون ، فرأى فيها شيئاً عجيباً، حيث استفاض في توضيح ذلك ، نقتطف من كلامه هذه المقاطع ، إذ قال : " تأملتُ ذات يوم في "ن" المتكلم مع الغير في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وتحرّى قلبي وبَحَثْتُ عن سبب انتقال صيغة المتكلم الواحد إلى صيغة الجمع (نعبد) فبرَزَتْ فجأةً فضيلةُ صلاة الجماعة وحكمتها من تلك "النون"، إذ رأيت أنه بسبب مشاركتي للجماعة في الصلاة التي أدَّيتها في جامع "بايزيد"(2) يكون كل فرد منها بمثابة شفيع لي. ورأيت أن كل فرد من أفراد تلك الجماعة شاهدٌ ومؤيدٌ لما أظهرته من أحكام وقضايا في قراءتي. فولّد ذلك عندي الشجاعة الكافية لكي أقدم عبادتي الناقصة، وأرفعها مضمومة مع العبادة الهائلة لتلك الجماعة إلى الحضرة الإلهية المقدسة."

ثم بعد هذه الرؤية التي تجلّت له ، توسعتْ تأملاته إلى أن صار ينظر إلى جميع "مساجد استانبول" و الجماعــات الــتي تصــلي فيها ، ثمّ الحشود الملتفة حول الكعبة ، رأى نفسه محشوراً في تلك الصفوف الدائرية على مسجد سطح الأرض . حتى جماعة الموجودات كافة ، المتمثلة في قوله تعالى ﴿كلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحه﴾ [النور : 41] ، رأى نفســه مــع صلاتها الكبرى وفي تسبيحاتها العظمــى؛ فقال في نفسه "الحمد لله رب العالمين".. إنّ لي كل هذه الكثرة الكاثرة من الشفعاء، ومَــن يرددون معي، ويصدقونني في كل ما أقوله في الصلاة."؛ إلى أن قال :"وهناك تمثلت حقيقة أخرى أمام الفكر، حسب قاعدة: (إذا ثبت الشئ ثبت بلوازمه) وهي:ما دام رب العالمين قد اتخذ الإنســان مخاطباً له ، فيتكلم مع جميع الموجودات، وأن هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد قام بتبليغ ذلك الخطاب الرباني الجليل إلى جميع البشر بل إلى جميع ذوي الشعور، وإلى جــميع

---

(1) إرشاد العقل السليم :1 / 16 – بتصرف –

(2) جامع "بــايــزيــد" يقع بتركيا.

ذوي الأرواح ، فلابد أن الماضي والمستقبل معاً قد أصبحا بحكم الزمن الحاضر، وغدت البشرية كافة مجلساً واحداً وجماعة واحدة في صفوف مختلفة متنوعة، حيث الخطاب موجه إليهم جميعاً."(1)

وبعد هذا البسط تجلى لـــي سبب التعبير بنون الجماعة بدل التكلم بالإفراد ، ففي الخطاب بالنون اشتراك المؤمن الواحد مع جميع مَنْ يُردِّدُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

والعجـــيب في هـــذه السورة ، هو تضمُّنها لالتفات غريب ، من الخطاب إلى الغيبة بطريق الفعل المبني للمجهول، وهو في قوله : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7]

ففـــي ذكـــر الـــنعمة نسب ذلك إلى المنعم ، ولما صار الحديث عن الغضب انحرف عن التعريف بالغاضـــب ونسبته إلى المجهول ، وسبب ذلك أنَّ (أنعمت عليهم) موضع تقرب من الله بذكر نعمـــه ، أما الثانية (المغضوب عليهم) فهي محل تلطُّف وتحنُّن ، وفي كلا الالتفاتين تعظيم لشأن المخاطب .(2)

هذا مع فاتحة الكتاب أما سورة البقرة فقد تلوَّنتْ بهذا النوع من الالتفات في آيات عديدة ؛ ففي قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة :27، 28] . انتقل من الحديث عنهم بصيغة الغائبين : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾ و﴿ وَيَقْطَعُونَ﴾ و﴿ وَيُفْسِدُونَ﴾ إلى مخاطبتهم ﴿ تَكْفُرُونَ ﴾ ،﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ ،﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ،﴿ يُمِيتُكُمْ ﴾ ، ﴿يُحْيِيكُمْ ﴾ ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ ، عبَّر عن الكافرين بالغيبة لَما كان بصدد تعداد قبائحهم وظلمهم وفي ذلـــك شدَّة في الاستخفاف والاحتقار ؛ وعند الإنكار عليهم لتلك الأفعال التي تجلب سخط الله ، وتـــذكيرهم بحقيقـــتهم الـــتي لا مفرَّ لهم منها ، واجههم بالخطاب ليكون أبلغ في الإنكار والردع.

---

(1) بديع الزمان النورسي :كليات رسائل النور :المكتوبات : ترجمة : إحسان قاسم الصالحي . ص:506، 507، 508 – بتصرف – الطبعة الثانية : 1413 هـ/ 1992م – دار سوزلر للنشر – القاهرة . مصر . (حقوق الطبع محفوظة للمترجم) .

(2) انظر المثل السائر : 2 /05 .

لـذلك قال أبو حيان : " وفائدة هذا الالتفات أن الإنكار إذا توجه إلى المخاطب كان أبلغ من نـوجهه إلى الغائب لجواز أن لا يصله الإنكار، بخلاف من كان مخاطباً، فإن الإنكار عليه أردع له عـن أن يقع فيما أُنكِرَ عليه ... وأتى بصيغة تكفرون مضارعاً ولم يأت به ماضياً وإن كان الكفر قـد وقع منهم ، لأن الذي أنكر أو تعجب منه الدوام على ذلك، والمضارع هو المشعر به ولئلا يكون ذلك توبيخاً لمن وقع منه الكفر ثم آمن، إذ لو جاء كيف كفرتم ﴿ بِٱللَّهِ﴾ لاندرج في ذلك من كفرتم آمن كأكثر الصحابة رضي الله عنهم." "(1)

وزاد أبوالسعود على هذا التعليل موضّحا القصد من الاستفهام الإنكاري ، فقال : " والاستفهامُ إنكـاري لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة : 07] الخ ، بل المعنى إنكارُ الواقعِ واستبعادُه والتعجيبُ منه، وفيه من المبالغة ما ليس في توجـيه الإنكـارِ إلى نفس الكفرِ بأن يقال: أتكفرون، لأن كل موجودٍ يجب أن يكون وجودُه علـى حـال مـن الأحوال قطعاً فإذا انتفى جميعُ أحوال وجوده فقد انتفى وجودُه على الطريق البُرهانـي."(2)

إلا أنَّ الطاهر بن عاشور يرى الضمير في (تكفرون) عائداً على المشركين من الناس وليس علـى الـيهود ، وقـد قال : "فالخطاب في قوله: ﴿ تَكْفُرُونَ﴾ متعين رجوعه إلى (الناس) وهم المشركون لأن اليهود لم يكفروا بالله ولا أنكروا الإحياء الثاني." (3)

لكنْ إذا سلَّمنا بهذا الرأي ، فلأيِّ سببٍ كان غضب الله على اليهود ؟ ، ألم يقل فيهم الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران :110] ؟

وقـال عـزَّ في علاه : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران : 112] ، لذلك لا يمكن أن ننفي الكفر عن اليهود ، والله أعلم .

---

(1) البحر المحيط : 1 / 209 .

(2) تفسير إرشاد العقل السليم : 1 / 77 .

(3) التحرير و التنوير : 1 / 373 .

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة :83] ، سبقت الإشارة إلى هذه الآية في الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة ، وهنا كان الانتقال من الغيبة في قوله ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، إذْ مواجهتهم بالخطاب بالنهي أبلغ من الغيبة ، للامتثال والانتهاء .

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة : 237] ، هذه الآية فيها مسائل فقهية متضاربة ، إذ اختلف العلماء في المقصود من قوله : ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ ، أهو الولي أم الزوج ؟ ، كما اختلفوا في ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، أهو خطاب للرجال والنساء، أم هو للأزواج فقط ؟

وفي قوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ ذكر ابن كثير(ت 774هـ) وجهين في هذه المسألة واحتجَّ لكلِّ وجهٍ بحديث ؛ الأول ثبت في قوله أنَّه الزوج ، وهذا مذهب الإمام مالك وقول الشافعي من قبل ، وفي الحديث الثاني أنَّه الولي ، وهو مذهب الشافعي من بعد ، وأبي حنيفة وأصحابه ، والثوري وابن شبرمة والأوزاعي، واختاره ابن جرير.(1)

أما في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ قال القرطبي: " وهو خطاب للرجال والنساء في قول ابن عباس فغلب الذكور." (2)

لكنْ أبو حيان جزَمَ بأنَّ المقصود بـ (أن تعفوا) هم الأزواج ، إذ قال:"والذي يظهر أنَّه خطاب للأزواج فقط، وقاله الشعبي، إذ هم الخاطبون في النكاح على ما اخترناه في تفسيره، إلى الخطاب الذي استفتح به صدر الآية، وكون عفو الزوج أقرب للتقوى من حيث إنه كسر قلب مطلقته، فيجبرها بدفع جميع الصداق لها ، إذ كان قد فاتها منه صحبته، فلا يفوتها منه نحلته، إذ لا شيء أصعب على النساء من الطلاق، فإذا بذل لها جميع المهر لم تيأس من ردّها إليه، واستشعرت من نفسها أنه مرغوب فيها، فانجبرت بذلك."(3)

---

(1) انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم :1 / 288 ، 289 – دار الفكر – بيروت . لبنان .

(2) الجامع لأحكام القرآن : 3 / 208 .

(3) البحر المحيط : 2 / 539 .

فلو سلّمنا بقول القرطبي وابن كثير فلا التفات في الآية ، وعلى رأي أبي حيان فيها التفات .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 265] قال أبو حيان : "والمعنى: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من الأعمال والمقاصد من رياء وإخلاص، وفيه وعد ووعيد." (1) ، أي أنَّ الالتفات إلى الخطاب فيه وعد للمؤمنين المنفقين ،ووعيد للمخالفين ، والمواجهة بالخطاب أبلغ في التحذير والتقريع .

وفي سورة آل عمران نجده في قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : 28] خرج من الغيبة ﴿ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى الخطاب ﴿ أَن تَتَّقُوا ﴾ ، لأنَّ في الأول كان النهي عن الموالاة للكفار، وفيه تحذير منها ، لكن لما كانت الإباحة اقتضى الخطاب مواجهتهم بذلك لما في خطاب الحاضر من رأفة وتلطُّف ، وقد تنبَّه أبو حيان لذلك فقال : " لأنه خرج من الغيبة إلى الخطاب، ولو جاء على نظم الأول لكان: إلا أن يتقوا، بالياء المعجمة من أسفل، وهذا النوع في غاية الفصاحة ، لأنه لما كان المؤمنون نُهُوا عن فعل ما لا يجوز، جعل ذلك في اسم غائب، فلم يواجهوا بالنهي، ولما وقعت المسامحة والإذن في بعض ذلك ووجهوا بذلك إيذاناً بلطف الله بهم، وتشريفاً بخطابه إياهم." (2) ، فالالتفات من الغيبة إلى الخطاب كان تلطُّفاً بالمؤمنين وتشريفاً لهم .

وفي سورة آل عمران أيضاً ورد قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران :106] عدل عن الحديث عنهم ﴿ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ إلى مواجهتهم بالخطاب ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ﴾ ، وفي هذا الالتفات إلى الخطاب من التوبيخ والإهانة

---

(1) المصدر السابق : 2 / 671 .

(1) المصدر نفسه : 3 /93 ، 94 .

والتوعُّد ما فيه ، لأنَّهَ سَبَق وأن عدَّد قبائحهم التي بسببها استحقُّوا العذاب ؛ فالاستفهام إنكاري على سبيل التوعُّد ، إذْ ينتفي عنه اللَّوم ، وإلا لكان يضع بدل همزة الاستفهام كيف . وفي هذا الالتفات ، ولم يهتم المفسرون بهذا الالتفات ، واكتفى أبو حيان بالإشارة إليه دون تعليل .(1)

وفي قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : 179] اختلف المفسرون في قوله (أنتم) ، أيقصد المؤمنين والمنافقين ، أم المؤمنين وحدهم ؟ ؛ فقال الزمخشري :" فإن قلت: لمن الخطاب في ﴿ أَنتُمْ ﴾ ؟ قلت: للمصدّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل: ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم ."(2)

فإذا كان الخطاب بـ (أنتم) للمؤمنين فقط فهو التفات لقصد التشريف ، وإن كان للمؤمنين والمنافقين فلا يكون التفاتاً ؛ لذلك قال أبو السعود : " ففيه التفاتٌ في ضمن التلوين، والمرادُ بما هم عليه اختلاطُ بعضِهم بعضاً واستواؤهم في إجراء أحكامِ الإسلامِ عليهم، إذ هو القدرُ المشترك بين الفريقين، وقيل: إنه للكفار والمنافقين وهو قولُ ابنِ عباسٍ والضحاكِ ومقاتلٍ والكلبيِّ وأكثرِ المفسرين ، ففيه تلوين فقط ." (3)

ونجد هذا العائد المبهم كذلك في سورة النساء إذْ قال تعالى :﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:83] والمتمثِّل في ﴿ جَاءَهُمْ ﴾ و ﴿ أَذَاعُوا ﴾ إذ اختلف المفسرون حولها. لذلك ينطبق على هذه الآية ما قلناه في الآية السابقة .

---

(1) انظر: المصدر السابق : 3 / 296 .

(2) الكشاف :1 / 483 .

(3) إرشاد العقل السليم : 2 / 118 .

هذا وقد وردت آيات تتشابه من حيث غاية الالتفات تُجملُها ، وإنْ اختلف المُعيَّن فالمدلول واحد ، ناتج عن غضب المولى عزَّ وجلّ؛ ففي قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم 34] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل :57] .

كما جاء في سورة الدخان قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان : من 43 حتى 50]

وقوله تعالى : ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ [القيامة : 34]

وفي قوله تعالى : ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:90]

ففي سورة الروم والنحل واجههم بالخطاب مبالغةً في تهديدهم ، واللام الداخلة على الفعل المضارع في سورة الروم للعاقبة وكونها تقتضي المهلة ولذا سميت لام المآل ،كقوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص : 08].

أمَّا الالتفات في سورة الدخان ، فحكمته المبالغة على سبيل الاستهزاء والاستخفاف .

وفي سورة القيامة كان الالتفات إلى الخطاب مبالغة في التهديد والوعيد.فكلَّما كان الأمر يخص الكفار أو المشركين، أغلظ الله عزَّ وجلّ في تهديدهم بسبب طغيانهم، ومواجهتهم بالخطاب أبلغ من الغيبة .

وفي مقابل هذا الخطاب الشديد ، نجد خطاباً لطيفاً موجهاً للمؤمنين المتّقين ، إذْ فيه تقدير وتشريف لهم ، وقد وَرَدَ في عدة آيات نقتطف منها ما يلي : -قوله تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة :111]

وقال الله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان : 20، 21] .

ففي الآية الأولى فيه ترغيب للمزيد من الأعمال الصالحة ، وفي ذلك قال أبو السعود : "التفاتٌ إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادةً لسرورهم على سرور، والاستبشارُ إظهارُ السرور."(1)

وفي سورة الإنسان التفت إلى مخاطبتهم رضاً بحالهم ، وتقديراً لأعمالهم ، وتشويقاً لهم في جناته.

وفي سورة مريم قوله تعالى :﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم :88، 89] .التفت إليهم بالمخاطبة لتبيان سخطه وغضبه عليهم ، وذلك ما قاله أبو حيان : " أو يكون التفاتاً خرج من الغيبة إلى الخطاب زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله والتعرض لسخطه وتنبيه على عظيم ما قالوا."(2)

وقال الآلوسي : "رَدٌّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة ." (3)

وفي سورة عبس قوله تعالى : :﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس :1، 2، 3] التفت إلى مشافهته مبالغة في عتابه ، كذلك قال أبو السعود :" فإنَّ المشافهةَ أدخلُ في تشديدِ العتابِ أيْ وأيُّ شيءٍ يجعلُكَ دارياً بحالِه حتى تُعرضَ عنْهُ "(4)

وقال الطاهر بن عاشور:" وصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر، وهو اقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى مَنْ يرجو منه قَبُولَها مع الذهول عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدين ممَّن آمن ، ولما كان صدور ذلك من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه

---

(1) إرشاد العقل السليم : 4 / 106 .

(2) البحر المحيط : 6 / 205 . دار الكتب العلمية – بيروت – ط 1 .1421 هـ / 2001 م . تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين .

(3) روح المعاني : 16 / 139 .

(4) إرشاد العقل السليم : 9 / 107 .

أنه المقصود بالكلام ، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أنَّ يرقب المعني من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم ليقع العتاب في نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً ، ونظير هذا قوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:4] "(1)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء :02] انتقال من الغيبة (بني إسرائيل)إلى الخطاب (ألا تتخذوا) ومن الخطاب؛ بعد أن كان الالتفات في الآية الأولى من الغيبة إلى التكلّم ، ثمَّ من التكلم إلى الغيبة ، وقد سبق توضيح ذلك . والغاية من هذا الالتفات هو التنبيه والتحذير ، والخطاب أنسب وأبلغ من الغيبة . ففي الآية الأولى ذكر الله تعالى إكرامه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أسرى به، وذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَآ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى ﴾ أي يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق.

قال الفخر الرازي نقلاً عن أبي علي الفارسي: " إن قوله: ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون (أنْ) ناصبة للفعل فيكون المعنى: وجعلناه هدى لئلا تتخذوا. وثانيها: أن تكون (أن) بمعنى أي التي للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قراءة العامة كما انصرف منها إلى الخطاب. والأمر في قوله: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ ﴾ [ص: 06] فكذلك انصرف من الغيبة إلى النهي في قوله: ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ . وثالثها: أن تكون (أن) زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير: وجعلناه هدى لبني إسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دوني وكيلاً ".(2)

---

(1) التحرير والتنوير :30 / 104 ، 105 .

(2) تفسير مفاتيح الغيب : 20 / 153 .

ونختم هذا النوع من الالتفات بما جاء في سورة التين في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين :4، 5، 7].

عدل عن الحديث عن الإنسان إلى مواجهته بالخطاب لتشديد التوبيخ والتبكيت أيْ فما يجعلكَ كاذباً بسببِ الدينِ وإنكاره بعدَ هذه الدلائلِ والمَعنى أنَّ الله عزّ وجلّ خَلَقَ الإنسان منْ نطفة وقوَّمَهُ بشراً سوياً وحوَّلَهُ منْ حالٍ إلى حالٍ كمالاً ونُقصاناً فهذا من أوضحِ الدلائلِ على قُدرة الله عزَّ وجلَّ على البعثِ والجزاءِ فأيُّ شيءٍ يضطركَ بعدَ هَذَا الدليلِ القاطعِ إلى أنْ تكونَ كاذباً أيُّها الإنسانُ ؟

وهكذا نجد أنَّ الحكمة من الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب إما للتحذير والوعيد أو الاستهزاء والتبكيت لإظهار السخط والغضب ، وإما للتشويق والترغيب أو للتقدير والتشريف .

وذكر السيوطي عن ابن أبي الإصبع شاهداً من القرآن الكريم على أنَّه من الالتفات وذلك في قوله تعالى :﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 6، 7، 8]

إذ ذكر مذكورين مرتين ، فأخبر عن الأوّل منهما وهو الإنسان بقوله ، ثمَّ انصرف إلى الثاني وهو الله عزّ وجلّ للإخبار عنه ، ثمَّ عاد إلى الإخبار عن الإنسان (1) .

والملاحظ أنَّ هذه الآية لا تتضمن الالتفات المتعارف عليه ، كما سبق وأن بيَّنا ؛ لذلك اكتفى السيوطي باعتباره التفاتاً غريباً ، دون أن يبيِّن حقيقته .

---

(1) انظر معترك الأقران :1 / 246، 247 ، والإتقان : 2 /169 .

الفصل الثالث

- الضرب الثاني : الالتفات بالأفعال .

-الضرب الثالث : الالتفات بالأعداد .

ب- الضرب الثاني : الالتفات بالأفعال:

في الضـــرب الأوّل لاحظنا أنّ الالتفات كان بواسطة الأفعال والأسماء ، فقد يكون بالانتقال من فعل إلى فعلٍ ، أو من فعل إلى اسم ، أو من اسم إلى فعل . وفي هذا الضرب يكون الالتفات بالأفعال حسب الأزمان ، فقد يرجع عن الفعل الماضي أو المضارع إلى فعل الأمر، وقد يعبِّر عن المستقبل بلفظ الماضي، أو العكس ،كما يرجع عن المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول ،سواء كان بواســطة الأفعال أو ما ينوب عنها كاسم الفاعل واسم المفعول . ونكتفي هنا بالأقسام الأربعة الموالــية دون الاهتمام ببناء الأفعال ، لتداخلها مع هذه الأقسام الأربعة ، أو مع الأقسام الواردة في الضرب الأوّل ؛ وهذه الأقسام هي :

1- الرجوع عن الفعل الماضي إلى الأمر .

2- الرجوع عن الفعل المضارع إلى فعل الأمر .

3 - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي .

4- التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل.

أولاً : - الرجوع عن الفعل الماضي إلى الأمر :

وشواهد هذا القسم في القرآن الكريم قليلة ، إذ نجده في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف :29] ، ولو جرى الكــلام على سياق واحد مراعاةً للعطف لكان : أمر ربِّي بالقسط، وبإقامة وجوهكم عند كلِّ مســجدٍ ؛ فعــدل عن الماضي إلى الأمر لتأكيده في نفوسهم ، لذلك قال أبو حيان : " وأقيموا معطوف على ما ينحل إليه المصدر الذي هو القسط أي بأن أقسطوا وأقيموا وكما ينحل المصدر لـــ (أن) والفعل الماضي نحو عجبت من قيام زيد وخرج أي من أن قام وخرج وأن والمضارع نحو: لَلُبْــــسُ عبــــاءة وتقــــرّ عينـــــي(1) ؛ أي لأَنْ أَلْبَسَ عباءة وتَقَرَّ عيني ." (2)

---

(1) هذا صدر بيت لامرأة اسمها " هيسون بنت بحدل " وكانت امرأة من أهل البادية ، فتزوّجها معاوية بن أبي سفيان ؛ والبيت هو :

لَلُبْــــسُ عبــــاءة وتقــــرّ عينـــــي أَحَــبُّ إِلَيَّ مِــنْ لُــبْــسِ الْشُــفُــوفِ .

يُنظَر الموسوعة الشعرية إصدار 2003 م (قرص مضغوط). إشراف الدكتور محمد أحمد السويدي . لــجنــة الموسوعة : مجموعة دكاترة . المجمع الثقافي : 1997 – 2003م .

(2) البحر المحيط : 5 / 37 .

ثانياً: الرجوع عن الفعل المضارع إلى فعل الأمر:

الرجوع عن الفعل المضارع إلى فعل الأمر نجده في قوله تعالى : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنة .وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك *وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون ﴾ [هود : 53، 54] عدل عن الفعل المضارع (أُشهِدُ) إلى فعل الأمر (واشهدوا) والسياق يقتضي أن يقول (أُشهِدُ اللهَ وأُشهِدُكم) ، قال الزمخشري: (فإن قلت): هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم (قلت): لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة." (1)

ثالثاً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

ورد التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل في قوله تعالى : " ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ [الأعراف : 44] ، أي : وينادي أصحاب الجنّة أصحاب النار ، لأنّ دخول الجنة أو النار في المستقبل لم يتحقّق وقوعه بعد ، وإنّما عبر بالماضي لتحقّق وقوعه .

ولو تأمّلنا في الفعلين (وعدنا و وعدَ) نجد نكتة بلاغية لطيفة ، وهي أنّهم حينما ذكروا وعد الله لهم نسبوه إلى ضمير الفصل (نا) ، ولما وجهوا الخطاب لأصحاب النار ذكروا الفعل(وعد) دون (كم) ، والسياق يقتضي القول : (أنْ قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً ؟) . فما العلّة في ذلك ؟ .

إنّ الفعل (وَعَدَ) من الأضداد ، ومُمَيِّزُهُ هو مصدره (إمّا الوعد أو الوعيد) ، ونظيره في ذلك كلمة (أخ) ، تُجمَعُ على إخوان و إخوة ؛ فذِكرُ (نا) في (وعدنا) تشريفٌ لهم لانتسابهم لله عزّ وجلّ ، وقربهم منه ، مثل : (عباد الرحمن ، عباد الله ، عباداً لنا) .

---

(1) الكشاف : 2 / 286 .

أما حذف الضمير (كم) من (وعدكم) رغم أنّه فعل متعد ، فليُبْعِدهم عن الله عزَّ وجلَّ ، وهو وعيدٌ ، عكس الأوّل فهو وَعْدٌ ، وفي ذلك إذلالٌ لأصحاب النار ، وإسقاطٌ لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد .

وقال الزمخشري في سرِّ هذا الالتفات: "وإنما قالوا لهم ذلك اعتباطاً بحالهم وشماتة بأهل النار وزيادة في غمّهم وليكون حكايته لطفاً لمن سمعها وكذلك قول المؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين وهو ملك يأمره الله تعالى فينادي بينهم يسمع أهل الجنة وأهل النار." (1)

وقال أبو حيان : " عبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقّق وقوعه وهذا النداء فيه تقريع وتوبيخ وتوقيف على مآل الفريقين وزيادة في كرب أهل النار بأن شرفوا عليهم ، وبخلق إدراك أهل النار لذلك النداء في أسماعهم ." (2) .

وجاء مثل هذا في نفس السورة أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48] إذ كرَّر ذكر المناداة ، إلا أنَّ المنادى في الآية الأولى كان يعمُّ أصحاب الجنَّة مطلقاً ، أما في هذه الآية فقد خصَّص أصحاب الأعراف ، وفي هذا التخصيص قال الآلوسي : " كرر ذكرهم مع كفاية الإضمار لزيادة التقرير. وقيل: لم يكتف بالإضمار للفرق بين المراد منهم هنا. والمراد منهم فيما تقدم فإن المنادي هناك الكل وهنا البعض. وفي إطلاق أصحاب الأعراف على أولئك الرجال بناءً على أن مآلهم إلى الجنة دليل على أن عنوان الصحبة للشيء لا يستدعي الملازمة له كما زعمه البعض."(3)

وفي سورة النمل جاء قوله تعالى :﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 47] إذ قال (وحشرناه) بلفظ الماضي بدلاً من (ونحشرُهُم) ، وقد سبقه فعلان مضارعان (نسيِّرُ ، و ترى) ، فعدل عن المضارع إلى التعبير بلفظ الماضي دلالة على تحقُّق وقوع الحشر.

---

(1) الكشاف : 2 / 80 .

(2) البحر المحيط : 5 / 55 .

(3) روح المعاني :8 / 125 .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل : 87] حيث عبَّر بلفظ المضارع (يُنفَخُ) ثمَّ عدل عنه إلى الماضي (فَفَزِعَ) ، وذلك ، لأنَّ الفزع عند النفخ في الصور أمرٌ محقَّقٌ لا شكَّ فيه ، والخلق في حالة خوف ورهبة ، فلما كان الأمر محقَّقاً لا نزاع فيه عبَّر بالفعل الماضي الذي يدل على وقوع الأمر فعلاً ، لذلك قال الزمخشري : " فإن قلت: لم قيل: ﴿فَفَزِعَ﴾ دون فيفزع ؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون" (1)

ونجد هذا النوع من التعبير كذلك في سورة هود في قوله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود : 98] أي : فيُوردُهم النار ؛ فعدل عن المضارع (يَقدُمُ) إلى الماضي (فأوردَهُم) لتحقق وقوع الورود في النار وقوعاً لا شكَّ في ذلك .

وسورة النمل أيضاً جاء قوله تعالى : ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل : 90] أي : وتُكبُّ وجوههم في النار ، وهذه كذلك دلالة على الوقوع .

وفي سورة فصلت قال تعالى :﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت :21] ، أي : ويقولون لجلودهم : لِمَ تشهدون علينا ؛ لأنَّ القول والشهادة في الآخرة ، وهو أمر واقع محقَّق .

رابعاً : *التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل* :

من ذلك ما جاء في سورة البقرة ،في :﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ . [البقرة : 87] ، أي : وفريقاً قتلتُم .

وقوله تعالى :﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : 91] أي : فَلِمَ قتلتُم .

وفي قوله تعالى :﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة : 102] أي : واتبعوا ما تَلَتْهُ الشياطين .

---

(1) الكشاف : 3 / 161 .

ففي الأولى عبَّر بالمضارع (تقتلون) لاستحضار تلك الصورة البشعة في قتل الأنبياء ، لتثبيتها في القلوب وتنفير النفوس منها لشدَّة فظاعتها ودلالتها على فسادهم وطغيانهم .

وفي ذلك قال أبو حيان: " وأتى بفعل القتل مضارعاً، إما لكونه حكيت أنه الحال الماضية، إن كانت أريدت فاستحضرت في النفوس، وصور حتى كأنه ملتبس به مشروع فيه، ولما فيه من مناسبة رؤوس الآي التي هي فواصل، وإما لكونه مستقبلاً، لأنهم يرومون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك سحروه وسموه. وقال صلى الله عليه وسلم عند موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري». وكان في ذلك على هذا الوجه تنبيه على أن عادتهم قتل أنبيائهم، لأن هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل." (1)

وفي الآية الثانية عبَّر بالمضارع لاستحضار صورة القتل البشعة والمروِّعة ، وفي ذلك شدّة في الإنكار والتوبيخ. وقد علّل أبو حيان هذا التعبير بالمضارع بقوله : " وجاء يقتلون بصورة المضارع ، والمراد الماضي، إذ المعنى: قل فلم قتلتم، وأوضح ذلك أن هؤلاء الذين بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصدر منهم قتل الأنبياء، وأنه قيد بقوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ، فدل على تقدم القتل. قال ابن عطية: وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر.

ألا ترى أن حاضري محمد صلى الله عليه وسلم لما كانوا راضين بفعل أسلافهم، بقي لهم من قتل الأنبياء جزء، وفي إضافة أنبياء إلى الله تشريف عظيم لهم ، وأنه كان ينبغي لمن جاء من عند الله أن يعظم أجلّ تعظيم ، وأن ينصر، لا أن يقتل. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل: إن نافية أي ما كنتم مؤمنين، لأن من قتل أنبياء الله لا يكون مؤمناً." (2)

أما الآية الثالثة فقد عبَّر بالمضارع (تتلوا الشياطين) لاستمرار الحالة الماضية في المستقبل في تعليم الناس السحر ، وقد قال الطاهر بن عاشور : " وقوله: ﴿ تَتْلُواْ ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية على ما قاله الجماعة، أو هو مضارع على بابه على ما اخترناه من أن الشياطين هم أحبارهم فإنهم لم يزالوا يتلون ذلك فيكون المعنى أنهم اتبعوا اعتقدوا ما تلته الشياطين ولم تزل تتلوه." (3)

---

(1) البحر المحيط : 1 / 483 .

(2) المصدر نفسه : 1 / 493 .

(3) التحرير والتنوير : 1 / 629 .

وجاء في سورة آل عمران قوله تعالى :﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران :59] ، وكان يجب أن يعتبر المقام الذي يقتضي صيغة الماضي لا المضارع فيقول :قال له كن فكان ، وذلك للإشارة إلى أن قدرة الله على إيجاد شيء ممكن وإعدامه لم تنقض ، بل هي مستمرة في الحال والاستقبال في كل زمان ومكان ، فالذي خلق آدم من تراب فقال له (كن) فكان ، قادر على خلق غيره في الحال والاستقبال (فيكون) بقوله تعالى (كن).

وقد تطرق الفخر الرازي إلى هذه المسألة فقال : " في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال: ثم قال له كن فكان فلَمْ يقل كذلك بل قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ .

والجواب: تأويل الكلام، ثم قال له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فكان.

واعلم يا محمد أنَّ ما قال له ربك ﴿كُن﴾ فإنه يكون لا محالة ." (1)

وقال الآلوسي : " والتعبير بالمضارع مع أن المقام مقام المضي لتصوير ذلك الأمر الكامل بصورة المشاهد الذي يقع الآن إيذاناً بأنه من الأمور المستغربة العجيبة الشأن، وجوز أن يكون التعبير بذلك لما أن الكون مستقبل بالنظر إلى ما قبله، وذهب كثير من المحققين إلى أن ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الأخبار لا في المخبر به، وحملوا الكلام على ظاهره، ولا يضر تقدم القول على الخلق في هذا الترتيب والتراخي ... " (2)

وفي سورة الأنعام جاء قوله تعالى :﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام : 48] بصيغة المضارع ، دلالة على تجدُّد الإرسال ، قال الطاهر بن عاشور: " وعُبِّر بـ﴿نُرْسِلُ﴾ دون ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للدلالة على تجدّد الإرسال مقارناً لهذين الحالين، أي ما أرسلنا وما نرسل، فقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالان مقدّرتان باعتبار المستقبل ومحقّقتان باعتبار الماضي. "(3)

ونجد هذا التعبير في سورة الحج ، في قوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج : 83] ، فلَمْ يقل (فأصبحت الأرض مخضرة) ، مع أنَّ قبلها فعلاً

---

(1) مفاتيح الغيب : 8 / 76 .

(2) روح المعاني : 3 / 187 .

(3) التحرير والتنوير :7 / 238 .

ماضياً (أنزلَ) ، وعبَّر بالمضارع دلالة على استمرار الاخضرار. فنزول الماء يكون بصفة مؤقتة، أما أثره على النبات فيبقى ظاهراً لا يزول ولا يخفى .

ومثل هذا جاء في قوله تعالى :﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر : 09] قال (فتثير) ولم يقل (فأثارت) ، وقد سبقه فعل ماضٍ (أرسل) ، وبعده فعل ماض كذلك (وأحيينا) ، وعبَّر بذلك مبالغة في استحضار صورة إثارة الرياح للسحاب ، ولتصوَّرها النفوس ، وتستقرَّ في القلوب .

لذلك قال الطاهر بن عاشور " وإذ قد كان القصد من الاستدلال هو وقوع الإحياء وتقرر وقوعه جيء بفعل الماضي في قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾ . وأما تغييره إلى المضارع في قوله:﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ للحكاية الحال العجيبة التي تقع فيها إثارة الرياح السحابَ وهي طريقة للبلغاء في الفعل الذي فيه خصوصية بحال تستغرب وتهم السامع. وهو نظير قول تأبط شرًا:

بأني قدْ لَقِيْتُ الغُولَ تَهْوِي بسَهب كالصحيفة صَحْصَحان

فأَضربُها بلا دَهَشٍ فخرَّتْ صريعـاً لليَدَيْـنِ وللجِـرَان (2)

فابتدأ بـ (لقيت) لإفادة وقوع ذلك ثم ثنى بـ (أضربها) لاستحضار تلك الصورة العجيبة من إقدامه وثباته حتى كأنهم يبصرونه في تلك الحالة. ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع بخلاف قوله في سورة الروم ﴿اللهالذي يرسل الرياح﴾ الآية لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهاراً لإمكان نظيره وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه."(3)

وفي سورة الصافات جاء قوله تعالى :﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : 102] قال :(أرى في المنام) ، بلفظ المضارع الذي يدل على الحال ، وسياق الكلام يقتضي أن يقول: (رأيتُ في المنام) ، فرؤيا إبراهيم عليه السلام للحلم كانت قبل زمن

---

(1) المصدر السابق : 7 / 238 .

(2) الديوان : ص : 75 . ط 1 . 1424 هـ/ 2003 م .دار المعرفة . بيروت . لبنان .اعتنى به : عبد الرحمن مصطاوي .

(3) التحرير والتنوير : 2 / 268 .

التكلُّم ، وعبَّر بالفعل المضارع لأنَّه كان يستحضر صورة الرؤيا التي كانت لا تفارق خياله ، إذْ كان يراها ماثلةً أمام بصره بصفة متجدِّدة ؛ لذلك يلزم التعبير عن هذه الصورة الحاضرة بلفظ المضارع لأنَّه أبلغ في نقلها إلى ذهن ابنه.(1)

ونختم هذا النوع بما جاء في سورة الزلزلة ، في قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : 07 ، 08] قال (يعمل) والسياق يقتضي قوله (عمل) وهذا التعبير فيه نكتة بلاغية ذكرها محمد أمين الشنقيطي ، ولم يُسْبَق إليها ، إذْ قال : " والمقام في هذا السياق ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ ، وهو يوم البعث، وليس هناك مجال للعمل، وكان مقتضى السياق أن يقال: فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره. ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع، والمقام ليس مقام عمل، ولكن في السياق ما يدل على أن المراد يعمل مثقال ذرة أي من الصنفين ما كان من ذلك، لقوله تعالىٰ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ، فهم إنما يروا في ذلك اليوم أعمالهم التي عملوها من قبل، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات، حيث كان السياق أولاً من أول السورة في معرض الإخبار عن المستقبل: إذا زلزلت الأرض زلزالها، وإذا أخرجت الأرض أثقالها، وإذا قال الإنسان ما لها . في ذلك اليوم الآتي تحدث أخبارها، وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً ليُرَوْا أعمالهم التي عملوها من قبل كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ :40]، وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف : 49] ، ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير، فمن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة شراً يره في الآخرة." (2)

و نستخلص ممَّا سبق أنَّ التعبير عن الماضي بلفظ المضارع فيه دلالة على استحضار الصورة أو الأمر حتى زمن التكلُّم وقد يستمر ذلك إلى زمن المستقبل ، وذلك أنَّ تحقُّق وقوعه مؤكَّدٌ وليس على وجه الاحتمال، لذلك يحسن أن نعرض لما قاله ابن جنِّي في هذا الصدد ، فقد أفاض

---

(1) انظر: أثر النحاة في البحث البلاغي : 293 ، و فن البلاغة : 294 .

(2) تفسير أضواء البيان في تفسير القرآن : 9 / 58 ، 59 .

شرحه وتفصيله ، مبيِّناً أصل الكلام وحقيقة ما قاله المتأخّرون في أنَّ سرَّ العدول في التعبير بلفظ المضارع بدلاً من الماضي هو نكتة بلاغية ترجع إلى استحضار الصورة في الذهن ، أما التعبير بلفظ الماضي وإرادة المضارع فقد قالوا لتحقُّق الوقوع ؛ كما أنَّ ابن جني يتحرى الأمانة العلمية ، إذ ينسب الرأي إلى من أخذ عنهم ، فقد نقل عن أستاذه أبي علي الفارسي (ت 277 هـ) ، والذي هو بدوره أخذ عن أستاذه أبي بكر السراج (ت 316 هـ) ، حيث قال : " ومن قولهم : لم يقم زيد، قد جاءوا فيه بلفظ المضارع وإن كان معناه المُضيِّ . وذلك أنَّ المضارع أسبق رتبة في النفس من الماضي ، ألا ترى إلى أنَّ أوَّل أحوال الحوادث أن تكون معدومة ، ثـمَّ توجد فيما بعد - فالمضارع معدوم باعتبار أنَّه لم يقع بعد ، أما الماضي فقد وقع وانتهى - فإذا نفى المضارع الذي هو الأصل ، فما ظنُّك بالماضي الذي هو الفرع .

وكذلك قولهم : إن قمت قمت ، فيجيء بلفظ الماضي ، والمعنى معنى مضارع ؛ وذلك أنَّه أراد الاحتياط للمعنى فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه ، حتى كأنَّ هذا قد وقع واستقر، لا أنَّه متوقَّع مترقَّب ، وهذا تفسير أبي علي عن أبي بكر ، وما أحسنه.

ونفهم من هذا القول أنَّ التعبير بالماضي لإرادة التوكيد ، لأنَّك عندما تنفي المضارع الذي هو الأصل فكأنَّك نفيتَ الماضي وهو الفرع ، وفي هذا النفي نوع من التوكيد. (1)

أما التعبير بالماضي بدلا من المضارع فيُستَعمل لتحقق وقوعه وليس لترقب مجيئه ، وذلك إذا أُمِنَ اللَّبس في استعمال الأفعال الماضية بدل المضارعة جاز أن يقع بعضها موقع بعض ، على حد قول ابن جنِّي . (2)

---

(1) الخصائص : 3 / 105 – بتصرف – ، وينظر : أثر النحاة في البحث البلاغي : 294 ، و فن البلاغة : 295 .

(2) انظر الخصائص :3 / 303 – 333 .

ج- الضرب الثالث : الالتفات بالأعداد :

هذا الضرب قريب من الضرب الأوّل باعتبار إتيان الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، و ينقسم إلى ستة أقسام :

1 – الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين .

2 – الانتقال من خطاب الواحد إلى الجمع .

3 – الانتقال من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد .

4 – الانتقال من خطاب الاثنين إلى الجمع .

5 – الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد .

6 – الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الاثنين .

أولاً : الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين :

ونجده في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس :78] فالخطاب في البداية كان موجّهاً إلى موسى عليه السلام من طرف فرعون ومَلَئِه بقولهم ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ ، ثمّ عدلوا عنه إلى صيغة المثنى بقولهم ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾وهو خطاب موجّهٌ إلى موسى وأخيه هارون .

وقد أُفرِدَ موسى عليه السلام بالخطاب لأنّه كان هو المتكلّم بالرسالة الإلهية ، فردُّوا عليه حسب ما جاء في تلك الرسالة ، ثمّ ذهب بهم الظنّ إلى أنّ مجيء موسى كان طمعاً في السيادة والكبرياء وإخراجهم من أرضهم ، كما جاء في سورة الأعراف ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: 110] ، وهذا الأمر يستلزم مشاركة هارون فيه لأنّه كان حاضراً وقت الحديث ، لذلك عدلوا إلى مخاطبتهما معاً ، وبهذا فسّر الطاهر بن عاشور هذا العدول عن الإفراد، بقوله : "وعطف ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ على الفعل المعلّل به ، والمعطوف هو العلة في المعنى لأنّهم أرادوا

أنهم تفطنوا لغرض موسى وهارون في مجيئهما إليهم بما جاءوا به ، أي أنهما يحاولان نفعاً لأنفسهما لا صلاحاً للمدعوين، وذلك النفع هو الاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة .... ولما كانوا ظنوا تطلبهما للسيادة أتوا في خطاب موسى بضمير المثنى المخاطب لأن هارون كان حاضراً فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين . وإنّما شرّكوا هارون في هذا الظن من حيث إنّه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظاً لنفسه."(1)

ويرى أبو السعود أنّ التثنية في الموضع الثاني لشمول الكبرياء لكليهما عليهما السلام والتصديق لأحدهما هو تصديق للآخر ، أمّا إفراد موسى بالخطاب في الأوّل فلأنّه صاحب الشريعة .(2)

وكذلك فسّرَ الشوكاني هذا العدول بقوله : "وقد أفرد الخطاب لموسى في قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾، ثم جمعوا بينه وبين هارون في الخطاب في قولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ووجه ذلك أنهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم إلى موسى، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم ، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين ، لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم ، ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون." (3)

أما السورة التي كثرت فيها صيغة التثنية فهي سورة الرحمن ولا نجد فيها انتقالاً من الإفراد إلى التثنية . لكن هناك نكتة لطيفة استوجب علينا التوقّف عندها لتوضيح ما اعتقده السابقون من المفسّرين ، وهي اعتبارهم في قوله تعالى :﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : 19 – 23] تعبيراً عن المفرد بالمثنى ، وقالوا إنّ اللؤلؤ والمرجان لا يعيشان إلاّ في الماء المالح ، لذلك فهو تعبير عن المفرد الذي هو الماء المالح بالمثنى (يخرج منهما) ؛ إلاّ أنّ العلم الحديث اكتشف أنّ اللؤلؤ يحيا في الماء المالح والعذب ، أما المرجان فلا يحيا إلاّ في الماء المالح . (4) ، وبهذا فلا تعبير بالمثنى عن المفرد

---

(1) التحرير والتنوير : 11 / 252 .

(2) انظر :إرشاد العقل السليم : 4 / 169 .

(3) فتح القدير : 2 / 582 .

(4)نقلنا هذه المعلومة عن محاضرة للدكتور "زغلول النجار"، بعنوان " القرآن والكون " إنتاج شركة مكة للبرمجيات .القاهرة .مصر.

في الآيــة ، إلا أنَّــنا وجــدنا شــريقن مصطفى يتناول هذه المسألة ويبسطها في أكثر من ثلاث صفحات، وخَصَّصَ صفحتين كاملتين للنيل من العلماء السابقين ، ووصفهم بما لا يليق بمقامهم، لا لشيء إلا لأنَّهم أخطأوا في مسألة علمية بسبب إمكاناتهم المحدودة لمعرفتها ، إذْ وصف تخريجهم ذاك بالمتعسِّف الذي لا سند له إلا الوهم والقصور في العلم ، ثُمَّ قال : " فعلى هذا الأساس الجائر خطَّأَ ابــن قتيبة أبا ذؤيب الهذلي في بيت ..." (1) ، فقد بذل علماؤنا في تفسير القرآن الكريم قُصــارى جهدهم ، على حسب ما لديهم من أثر ، وما جادت بــه قرائحهم من معانٍ لطيفة ، وهــم مأجــورون على اجتهاداتهم سواء أصابوا أم أخطأوا. والعجيب أن نفخر بهم في مواطن ، ونُلْقي عليهم باللائمة والعتاب في مواطن أخرى .

ثانياً : *الانتقال من خطاب الواحد إلى الجمع* :

جــاء في ســورة البقــرة : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة 17]. ضرب الله مثلا عن المنافقين بأحدهم ، فأفرد الخطاب عند استيقاد النار، لأنَّ هــذا الفعــل يــتطلَّب فرداً واحداً ، ولما كان الإخبار عن الحالة بعد الضياء ، حوَّل الضمير إلى الجماعة تصويراً لحالهم ، لأنَّ الضياء يُصيبهم جميعاً .

فالــنّار لمــا أضاءت شملة نورها مع من كان حوله ، فكان عقاب الله أنها ذهبت بأبصارهم جميعاً، ونلاحــظ أنه قال (ذهب) وذلك أبلغ من أذهب ، لأن ذهب بالشيء اصطحبه ومضى به معه ، فكأنما أراد الله أن يذكرهم أنَّهم يرون بنور الله وفى معيته ، وحيث أنَّهم اختاروا طريق الظلمة فقد أخذ الله نورهم وتركهم في ظلمات أنفسهم التي اختاروا البقاء فيها.

ووضَّح الطاهر بن عاشور هذه الصورة البديعة فقال : "﴿ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ مفردٌ مُرادٌ به مشبه واحد لأنَّ مستوقد النار واحد ولا معنى لاجتماع جماعة على استيقاد نار ولا يريبك كون الحالــة

---

(1) انظر :رسالة أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره : ص.155 .

المشبه حالة جماعة المنافقين، كأن تشبيه الهيئة بالهيئة إنما يتعلق بتصوير الهيئة المشبهة بها لا بكونها على وزن الهيئة المشبهة فإن المراد تشبيه حال المنافقين في ظهور أثر الإيمان ونوره مع تعقُّبه بالضلالة ودوامه، بحال من استوقد ناراً." (1)

كما بيَّنَ سبب التعبير بالجمع بعد الإفراد وأفاض في توضيح العلاقة بين المشبه والمشبه به في هذه الآية، نورده بنصِّه، إذْ قال :"وجمع الضمير في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ مع كونه بلصق الضمير المفرد في قوله: ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ مراعاة للحال المشبهة وهي حال المنافقين لا للحال المشبه بها؛ وهي حال المستوقد الواحد على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي وهو انطماس نور الإيمان منهم، فهو عائد إلى المنافقين لا إلى (الذي) ، قريباً من رد العجز على الصدر فأشبه تجريد الاستعارة المفردة ... وحسنه أنَّ التمثيل جمع بين ذكر المشبه وذكر المشبه به فالمتكلم بالخيار في مراعاة كليهما لأن الوصف لهما فيكون ذلك البعض نوعاً واحداً في المشبه والمشبه به، فما ثبت للمشبه به يلاحظ كالثابت للمشبه. وهذا يقتضي أن تكون جملة ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جواب (لَمَّا) فيكون جمع ضمائر بنورهم وتركهم إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر إذ مقتضى الظاهر أن يقول ذهب الله بنوره وتركه، ولذلك اختير هنا لفظ النور عوضاً عن النار المبتدأ به ، للتنبيه على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة ليدل على أن الله أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين ، فهذا إيجاز بديع كأنه قيل فلما أضاءت ذهب الله بناره فكذلك ذهب الله بنورهم وهو أسلوب لا عهد للعرب بمثله فهو من أساليب الإعجاز." (2)

وفي قوله تعالى :﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة :112] أفرد الخطاب (من أسلم وجهه لله وهو محسن) ، ثم عدل عنه إلى الجمع (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ؛ ونجد مثل هذه الآية في قوله تعالى :﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : 38] .

---

(1) التحرير والتنوير : 1 / 307 .

(2) المصدر نفسه : 1 / 308 ، 309 .

وفي الأنعام قوله تعالى :﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام :48] والسياق يقتضي أن يقول : (لا خوف عليه ولا هو يحزن) لكنه عدل عن ذلك إلى صيغة الجمع تشريفاً لهم ، لِمَا في الخوف والحزن من أثر على الإنسان ، ولذلك قال الفخر الرازي في الآية الأولى [البقرة : 112] : " فأما الخوف فلا يكون إلا من المستقبل، وأما الحزن فقد يكون من الواقع والماضي كما قد يكون من المستقبل فنبه تعالى بالأمرين على نهاية السعادة بناله ولا يخاف انقطاع ما هو فيه وتغيره فقد بلغ النهاية وفي ذلك ترغيب في هذه الطريقة وتحذير من خلافها الذي هو طريقة الكفار المذكورين من قبل. " (1)

كما أنَّ استشعارَ الخوف والخشيةِ فيهما استعظامٌ لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارٌ للجدّ والسعي في إقامة حقوق العبودية ، وذلك من خصائص الخواصّ والمقرّبين، والمرادُ بيانُ دوام انتفائهما لا بيانُ انتفاءِ دوامهما كما يُتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً لما تقرر في موضعه أن النفي وإن دخَلَ على نفس المضارعِ يُفيد الدوامَ والاستمرارَ بحسب المقام ، وفي إظهارِ الهدى مضافاً إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيدِ وجوب اتّباعه . ولعلّنا نجد في هذا الجمع تعريضاً بالكفار، وإشارةً إلى أنَّ الخوفَ مُستَوْلٍ عليهم .

وفي سورة يونس جاء قوله تعالى :﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ﴾ [يونس : 61] والشأن وتلاوة القرآن هما أمران مخصوصان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، لذلك فالخطاب بالإفراد والجمع (تكون و تتلوا) كلاهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي صيغة الجمع تفخيم لشأن الرسول كما أنَّ هذين الأمرين وإنْ خُوطب بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّهما موجَّهان للأمة جمعاء ، ثُمَّ إنَّ همَّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان القرآن الكريم لذلك خاطبه بمفرده ، ولما كانت تلاوة القرآن الكريم تخصُّ الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، عدل إلى الجمع بقوله (تتلوا) ،كذلك قال الطاهر بن عاشور : " ولذلك توجه الخطاب ابتداء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم توجه إليه وإلى من معه من المسلمين." (2)

---

(1) مفاتيح الغيب : 4 / 04 .

(2) التحرير والتنوير : 11 / 211 .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس : 83] ، الضمير في (ملئهم) يعود على فرعون ، إذْ أفرده بذكر اسمه ، ثُمَّ عند الإضافة ذكره بصيغة الجمع ، وذلك لأنَّ فرعون له ما له من السلطان ، والجاه والعظمة بين قومه وعشيرته ، فمن كان هذا شأنه فهو يعدلُ مجموعة من الناس وليس فرداً واحداً، فالتعبير عنه بالجمع يتناسب مع هذه المكانة ، ولذلك قال تعالى: ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ ، ولم يقل (مَلَئِه) .

إلا أنَّ المفسرين اختلفوا في تحديد الضمير في (قومه) ، وفي (ملئهم) ، هل يعودان على موسى أم فرعون ؟ أم أنَ الأوَّل يعود على موسى ، والثاني على فرعون ؟ ، وقد أطال في هذه المسألة صاحب البحر المحيط ، إذْ سَرَدَ أقوالاً متضاربة ورجَّح عودة الضمير في (قومه) على فرعون ، حيث قال : " فالذي يترجح بحسب هذا أنّ الضمير عائد على فرعون. ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاورة موسى ورده عليهم ، وتوبيخهم على قولهم هذا سحر، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذي هذه أقوالهم. وتكون القصة على هذا التأويل بعد ظهور الآية والتعجيز بالعصا، وتكون الفاء مرتبة للمعاني التي عطفت."(1)

أما عن عودة الضمير في (وملئهم) فذكَرَ أبو حيان أيضاً عدَّة أقوال متضاربة ولم يرجِّح منها أيَّ قول (2) ؛ لكنَّ الظاهرَ أنَّه عائد على فرعون على حسب ما وضَّحنا سابقاً – والله أعلم – .

وجاء هذا النوع من التعبير في سورة الطلاق في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ [الطلاق : 01] أفرد ذكر النبي ثُمَّ عدل إلى صيغة الجمع (إذا طلَّقتُم النساء) ، والسرُّ في هذا العدول هو على سبيل التعظيم والتكريم ، فلفظ النبي إذا خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،كان تشريفاً له ومِمَّا اختُصَّ به نبيُّنا الكريم ؛ ثُمَّ أنَّ الأمر هنا بِخُصوص التشريع ، فهو يشمل أمَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم ، ولَمْ يكن الخطاب موجَّهاً

---

(1) البحر المحيط : 6 / 94 ، 95 .

(2) المصدر نفسه : 6 / 95 .

للرسـول خاصة فإنَّه يُخَاطَبُ بلفظ (يا أيُّها الرسولُ) ، وهذا ما نقله الطاهر بن عاشور عن أبي بكـر بن عربي حيث قال :"وهذا قولهم أن الخطاب له لفظاً، والمعنى له وللمؤمنين ، وإذا أراد الله الخطـاب للمؤمنين لاطفه بقوله : ﴿يا أيها النبي﴾، وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال : ﴿يا أيها الرسول﴾ [المائدة: 67] اهـ." (1) ، وقال الزمخشري : " خُصَّ النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء رفعاً بالخطاب ، لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهاراً لتقدّمه واعتباراً لترؤّسه ، وأنه مدرة قومه ولسانهم، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادّاً مسدّ جميعهم." (1) .

وتـبعه معظم المفسرين في هذا القول ، وبهذا فإنَّ تخصيصُ النداءِ بالنبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ مع عُمومِ الخطابِ لأمته أيضاً وذلك لتشريفه عليه الصلاةُ والسلامُ وإظهارِ جلالةِ مكانته .

وقـد أثار شريقن مصطفى مسألةً وردت في سورة يوسف معتقداً أنَّها تعبير عن المفرد بلفظ الجمع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف : 33] إذ اعتبر الضمير في (كيدهن) يعود على امرأة العزيز وحدَها ، كما أورد ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في قضية المراودة والسجن ، وقد خطَّأه فيما قاله باستخفاف مَقيت كعادته مع العلماء كُلَّمَا عثر لهم على هفوة. (2)

والواضح من خلال قصَّة يوسف أنَّ مَنْ راود يوسف عن نفسه امرأة العزيز ، وهو ما يبيِّنه قوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف : 23]، فلما شاع الخبر وسمعت نسوة المدينة بذلك كَثُرَ الحديث واللوم على هذا الفعل المنكر ، ممَّا دفع امرأة العزيز إلى أن تقطع دابر تلك الإشاعة فاستدعتهن واعتدت لهن متكأً وأحضرت لكلِّ واحدة منهن سكيناً ، ثُمَّ أدخلت يوسف عليهن، فلمَّا رأينه أكبرنه وقطَّعن أيديهن ، إلاَّ أنَّ القصّة لم تتطرَّق إلى موقـف

---

(1) التحرير والتنوير : 28 /294 .

(2) الكشاف : 4 /117 .

(3) انظر رسالة : أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره ص : 169 .

النسوة من يوسف بعد تقطيع أيديهن فهل اكتفت امرأة العزيز بكشف جمال يوسف لهن وانتهى الأمر ، أم أنَّها كانت تهدف إلى التماسها العذر منهن على فعلها ذاك ؟

حسب ما أورده أهل التفسير فإنَّ النسوة سعين لإقناع يوسف عليه السلام بالاستجابة لطلب سيدهن ، كما قال الزمخشري:" وقال ﴿يَدْعُونَنِي﴾ على إسناد الدعوة إليهنّ جميعاً، لأنهنّ تنصحن له وزَيَّنَّ له مطاوعتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربِّه عند ذلك وقال: ربِّ نزولُ السجن أحبّ إلي من ركوب المعصية." (1)

وربَمَا طلبت كلُّ واحدة منهن نفس الطلب الذي طلبته امرأة العزيز كما قال أبو السعود : "وإسنادُ الدعوةِ إليهن جميعاً لأنَّ النسوة رغّبنه في مطاوعتها وخوَّفنه من مخالفتها، وقيل: دعَوْنه إلى أنفسهن."(2)

والدليل على أنَّ جميع النسوة أَلْحَحْنَ على يوسف ارتكابَ الخطيئة هو قوله :﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾[يوسف : 51] ، فالضمير في (كيدهن) لا يعود على امرأة العزيز بمفردها ، وإنَّما يشمل جميع تلك النسوة والله أعلم .

وقد أوضح ذلك ابن قيِّم الجوزية بقوله : " أنَّها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال ، فأَرَتْهُ إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال :﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : 33] .(3)

لذلك كان الأحرى بهذا الباحث ألاَّ يختار هذا الشاهد ، وألاَّ يثير هذا الأمر الواضح ، ما دام همّه هو البحث عن الآيات التي تتضمن الانتقالَ في التعبير من المفرد إلى الجمع ، إذ إنّ هذا الشاهد لا يخدم مبتغاه .

---

(1) الكشاف : 2 / 317 .

(2) إرشاد العقل السليم : 4 / 274 .

(3) ابن قيِّم الجوزية : الجواب الكافي لِمَنْ سأل عن الدواء الشافي .ص : 210 – الطبعة الأولى ك 1418 هـ / 1997م – دار الكتب العلمية . بيروت .لبنان.

ثالثاً : الانتقال من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد :

ونجد هذا النوع من الانتقال في سورة التوبة في قوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:62] ، وفي سورة الجمعة قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة : 11] ، ففي التوبة قال (أنْ يُرضوه) والسياق يقتضي أن يقول (أنْ يرضوهما) ، لأنّه ذكر قبل هذا الفعل الواقع خبراً للمبتدأ (الله) وعطف عليه (رسوله) ، فلماذا أفرد الفعل ولم يُثَنِّ ؟

وفي سورة الجمعة أفرد جواب الشرط (انْفَضُّوا إليها) مع أنَّ الشرط ذكر فيه معطوفين (تجارةً أو لهواً) ، فخصَّص التجارة بالفضّ دون اللهو ، والسياق يقتضي أن يقول (انفضوا إليهما) ، فما السرّ في ذلك ؟ .

لقد طرق بعض المفسرين هذا الأمر ، وذكروا سبب الإفراد دون التثنية ؛ فبخصوص الإفراد في سورة التوبة نقل أبو حيان آراء بعض العلماء ثُمَّ علَّقَ عليها فقال : " وأفرد الضمير في أن يرضوه لأنهما في حكم مرضي واحد، إذ رضا الله هو رضا الرسول، أو يكون في الكلام حذف. قال ابن عطية: مذهب سيبويه أنهما جملتان، حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه. وهذا كقول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـ ـدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ (1)

ومذهب المبرد: أنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره: والله أحق أن يرضوه ورسوله. وقيل: الضمير عائد على المذكور كما قال رؤبة:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ (2)

انتهى. فقوله: مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها أنْ كان الضمير في (أنهما) عائداً على كل واحدة من الجملتين ، فكيف تقول: حذفت الأولى ولم تحذف الأولى إنَّما حذف خبرها ؟ ، وإن كان الضمير عائداً على الخبر وهو أحق أن يرضوه ، فلا يكون جملة إلاَّ

(1) ذُكِرَ هذا البيت في الموسوعة الشعرية ونُسِبَ لشاعرين هما : قيس بن الخطيم ، و أُحيحة بن الجلاّح .

(2) انظر الموسوعة الشعرية .

باعتقاد كون أنْ يرضوه مبتدأ وأحق المتقدم خبره، لكن لا يتعين هذا القول: إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير: أحق بأن يرضوه. وعلى التقدير الأول يكون التقدير: والله إرضاؤه أحق. وقدره الزمخشري: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك. إن كانوا مؤمنين كما يزعمون، فأحق من يرضونه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة والوفاق." (1)

وفيما جاء في سورة الجمعة من إفراد بعد المعطوفين قال أبو حيان نقلا عن ابن عطية : "وقال ابن عطية: وقال إليها ولم يقل إليهما تهمماً بالأهم، إذ كانت سبب اللهو، ولم يكن اللهو سببها. وتأمّل أن قُدِّمتْ التجارة على اللهو في الرؤية لأنها أهم، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبيَنِ. انتهى."(2)

ونخلص من كلّ هذا أنَّ سبب التعبير بالإفراد موضع التثنية في الآيتين هو أنَّ الأوّل تابعٌ للثاني، ومتعلّقٌ به ، فتخصيص الأوّل بالذكر يستوجب إرادة الثاني .

ونجد هذا النوع من التعبير كذلك في قوله تعالى :﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه : 117] ، فتحذير الله عزَّ وجلَّ من إبليس كان موجَّهاً لآدم وزوجه معاً ، ثُمَّ خَصَّ آدم لوحده بالشقاء بصيغة الإفراد ، والسرُّ البلاغيُّ في هذا الإفراد دون التثنية يكمن في تحمُّل رب الأسرة لأعباء النفقة والعيش ، ويكون دور المرأة داخل البيت . فالرجل هو الذي يُنفق على المرأة وليس العكس في غالب الحالات ، وبالتالي فشقاء الرجل يلزم شقاء المرأة ، وسعادته تقتضي سعادتها هي أيضاً لأنَّهما يشتركان في أمر واحدٍ . وقد أشار أبو حيان إلى هذا الأمر حيث قال: " وأسند الشقاء إليه وحده بعد اشتراكه مع زوجه في الإخراج من حيث كان هو المخاطب أولاً والمقصود بالكلام ، ولأن في ضِمن شقاء الرجل شقاء أهله، وفي سعادته سعادتها فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة."(3)

---

(1) البحر المحيط : 5 / 450 ، 451 .

(2) المصدر نفسه : 10 / 176 .

(3) البحر المحيط : 6 / 863 . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت .ط1 . 2001 . تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين .

وفي سورة الشعراء قال الله تعالى :﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 16] ثنّى بقوله (فأتيا ، فقولا) ثُمَّ أفرد (رسولَ)، والسياق يقتضي أنْ يقول (إنَّا رسولا ربِّ العالمين) ، بخلاف ما جاء في سورة طه قوله تعالى :﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ [طه : 47] ، فما السرُّ في إفراد لفظ (رسول) في الشعراء ، وتثنيته في طه ؟ .

وأجاب الزمخشري عن هذا السؤال فقال :" فإن قلت: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله:﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : 47] ؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه – إذا وصف به – بين الواحد والتثنية والجمع، كما يفعل بالصفة بالمصادر...

ويجوز أن يوحد ، لأنّ حكمهما لتساندهما، واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد." (1)

وهذا ما قاله الفخر الرازي (2) ، وقد ذكر النسفي رأياً مقارباً لما قاله الفخر الرازي ، فقال : " لم يُثَنِّ الرسول كما ثنّى في قوله (إنَّا رسولا ربك) لأن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثمة بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته، وجعل هنا بمعنى الرسالة فيستوي في الوصف به الواحد والتثنية والجمع، أو لأنهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد، أو أريد إن كل واحد منا." (3)

و مِمَّا قاله المفسرون ندرك أنَّ السرَّ في التثنية في قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ هو تشريف لهارون ، لأنَّ موسى عليه السلام هو الذي طلب من الله عزَّ وجلَّ أن يجعل له

---

(1) الكشاف : 3 / 107 .

(2) انظر مفاتيح الغيب : 24 / 124 .

(3) مدارك التنزيل : 3 / 180 .

من أهله وزيراً يؤازره ويُعينُهُ ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طـه : 29 – 32]، فكانـت الرسـالة مشتركة بينهما ، ثُمَّ إنَّ رحلة موسى وهارون عليهما السـلام كانت محفوفة بالأخطار والمخاوف ، حسب ورود القصة في سورة طه ، ومن ثَمّة استلزم الأمر أن يُعبِّر بصيغة التثنية مراعاة لما تقدَّم في تلك الرحلة .

أما إفراد لفظ (رسول) في الشعراء لاعتبار المكلَّف الرئيسي بالرسالة هو موسى عليه السلام ، وهـارون هو مساعده في تبليغ هذه الرسالة ، والإفراد هنا يُفْهَمُ منه الاشتراك في أمرٍ واحدٍ وهو تبليغ الرسالة إلى فرعون ؛ أي إنَّا أُرسِلْنا برسالة من رب العالمين . والله أعلم .

رابعاً : *الانتقال من خطاب الاثنين إلى الجمع :*

نجد الانتقال من خطاب الاثنين إلى الجمع في سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة : 38] ، وفي سورة التحريم قوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم : 04] ، ففي المائدة قال (أيديهما) والسياق يقتضي (يديهما) ، وفي التحريم قال (قلوبكما) و كان يقتضي أن يعبِّر بـ (قلبيكما) لأنَّ في الآيتين سبقت التثنية ، فما العلَّة البلاغية في هذا الجمع بدل التثنية ؟

أجاب الزجاج عن هذه المسألة في الكتاب المنسوب إليه " إعراب القرآن " ، وقد سبق وأن ذكرنا ذلك في الفصل الأوَّل " نشأة الالتفات والاصطلاح عليه " ، ولا بأس أن نُعيده هنا ، إذْ قال : " إنَّ التعـبير بالجمـع أفصح من التعبير بالمثنى ، فقولك: (ضربت رؤوس الزيدين ، وقطعت أيديهما وأرجلهما) أفصح عندهم من (رأسيهما) ،كرهوا أنْ يجمعوا بين تَثْنَيْنِ في كلمة واحدة ، فصرفوا الأوّل إلى لفظ الجمع ، ولا بأس من ذلك ، فالتثنية جمعٌ في المعنى." (1)

وتوضيح كلامه أنَّ المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة ؛ فإذا كان المضاف مثنى ، والمضاف

---

(1) إعراب القرآن : 3 / 787 .

إليه -وهو الضمير - مثنى ، لزِم أن يجتمع في كلمة واحدة - وهي المضاف والمضاف إليه - مثنيان : مثل يديهما ، وقلبيهما ، وفي ذلك من الثقل والبعد عن الفصاحة ما لا يخفى .(1)

وقال الفرّاء : " وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنين في الإنسان : اليدين والرجلين والعينين ، فلما جرى أكثره على هذا ذُهِبَ بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب التثنية." (2)

وهذين التعليلين اكتفى جميع المفسرين ، ولم يخرجوا عليهما ، حتى وإن حاول بعضهم اختيار سياقات أخرى في التعبير، لكنّه بقي يدور في فلكهما، فمنهم من نسب القول لصاحبه كالفخر الرازي ، ومنهم مَن ضرب صفحاً عن ذلك، وانشغل بأمر الرفع والنصب في (السارق أو السارق).(3)

وفي سورة يونس جاء قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : 87] خاطبهما بصيغة التثنية ، ثُمَّ عدل إلى صيغة الجمع ، ثُمَّ أفرد موسى بالذكر (وبشِّر) ، وذلك لأنَّ تبوُّءَ البيوت كان خاصاً بموسى وأخيه ، أما جعل البيوت قبلة ، وإقامة الصلاة فيها فهو يشمل موسى وأخاه وقومهما ، لذلك عدل إلى الجمع . ولعلَّ في تفسير الزمخشري لهذا الانتقال ما يُغني عن كلِّ تفسير ، حيث قال : " فإن قلت: كيف نوّع الخطاب، فثنى أوّلاً، ثم جمع ، ثم وحد آخراً. قلت: خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوآ لقومهما بيوتاً، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عامّاً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنّ ذلك واجب على الجمهور، ثم خصّ موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض، تعظيماً لها وللمبشر بها." (4)

---

(1) انظر فن البلاغة : 309 ، 310 .

(2) معاني القرآن للفراء : 1 / 307 .

(3) انظر الكشاف : 1 / 611 ، ومفاتيح الغيب : 11 / 223 ، و إرشاد العقل السليم : 3 / 34 ، وروح المعاني : 6 / 132 ، 133 .

(4) الكشاف : 2 / 249 .

ونجـد أيضاً في سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء : 78] ، فالعدول عن التثنية في قوله ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ إلى الجمع في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾، سببه أنَّ داوود وسليمان حكمان، لذلك كان الإخبار عنهما التثنية ، أما العدول إلى الجمع فلأنَّ الحكم يشمل الحاكمَيْنِ والمتحاكمَيْنِ إليهما.

أمـا العدول عن التثنية إلى الجمع في قوله تعالى:﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج :19] لـأنَّ الجملة في الآية مستأنفة مسوقة لسرد قصة المتبارزين يوم بدر وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحـارث وعتـبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة.فالتقدير أنَّ هؤلاء القوم صاروا في خصومتهم علـى نوعين. وينضوي تحت كل نوع جماعة كبيرة من البشر، نوع موحدون يسجدون لله وقسم آخر حق عليه العذاب كما نصَّت عليه الآية التي قبلها، لذلك فالتثنية وبالتالي فإنَّ كلّ جماعة تمثل خصماً ، لذا استوجبت التثنية ، وفي التعبير عن تلك الجماعتين جاز الجمع. لذلك قال أبو حيان: "وخصم مصدر وأريد به هنا الفريق، فلذلك جاء ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ مراعاة للمعنى إذ تحت كل خصم أفراد." (1)

وكمـا قـال الطاهر بن عاشور : " واسم الخصم يطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا اتحدت خصـومتهم كما في قوله تعالى:﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21] فلمراعاة تثنية اللفـظ أُتِيَ باسم الإشارة الموضوع للمثنى ولمراعاة العدد أُتِيَ بضمير الجماعة في قوله تعالـى : ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ ." (2)

وجـاء الانتقال من التثنية إلى الجمع أيضاً في سورة الشعراء ؛ إذْ قال الله تعالى :﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء : 15] ، والسرّ في هذا الانتقال هو أنَّ الخطاب في التثنية كان لموسى وهارون عليهما السلام ، أما الجمع في قوله (إنَّـا معكم) فيشمل موسى وهـارون

---

(1) البحر المحيط : 6 / طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط1 ـ 2001 ـ تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين .

(2) التحرير والتنوير :17 / 229 .

لفرعون وقومه ، لأنَّ الاستماع يكون للحوار الدائر بينهما وبين فرعون وقومه ،وقد قال الزمخشري : " يريد: أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه . فأُظْهِرُكُمَا وأُغَلِّبُكُمَا وأَكْسِرُ شَوْكَتَهُ عَنْكُمَا وأُنكسُهُ." (1)

وفي سورة فصلت قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت :11] ، فإضافة إلى الانتقال من التثنية إلى الجمع ، نجد كلمة (طائعين) قد جُمعتْ جمع مذكر سالم ، مع أنَّ السماء والأرض مؤنثان لفظاً ، والانتقال من الاثنين إلى الجمع فلأنه يوجد سبع سموات كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 29] .

أما جمعُ المؤنث السالم جمع تذكير فلكون السماء والأرض في معرض الخطاب والجواب ، ولا وجه للتأنيث عند إخبارهم عن أنفسهم لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط .كما قال الآلوسي (2)

وقد تطرق الطاهر بن عاشور إلى هاتين المسألتين فقال: " وإنما جاء قوله: ﴿ طَائِعِينَ ﴾ بصيغة الجمع لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات كما قال تعالى إثر هذا ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [فصلت: 12] فالامتثالُ صادر عن جَمع، وأما كونه بصيغة جمع المذكر فلأنَّ السماء والأرضَ ليس لهما تأنيث حقيقي .

وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة مثل قوله تعالى:﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف:04]." (3)

خامساً : *الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد :*

ورد الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد في قوله تعالى :﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ الآية[البقرة : 38] ، قال (منِّي) بعد قوله (قلنا) ولو جرى الكلام على سياق واحد لكان : (قُلْنَا اهبطوا فإمَّا يأتينَّكم منَّا هدىً) ، فتكلَّمَ بصيغة الجمع الدالة على العظمة في

---

(1) الكشاف : 3 / 107 .

(2) روح المعاني : 24 / 103 .

(3) التحرير والتنوير : 24 / 248 .

نـوله (قلـــنا) لأنَّه أمرٌ من الملك العظيم إلى عباده ، أما سبب التعبير بضمير المفرد فلأنَّ الأمر يتطلَّب التخصيص ، فالهدى ليست إلا بيد الله سبحانه وتعالى ولا يقدر على امتلاكها أحد غيره ، حتى حبيبه صلى الله عليه وسلَّم أكَّد له سبحانه بأنَّها ليست بيده في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : 56] ، وجاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الآية [272] ، لذلك أَتْبَعَ جملة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ بقوله : ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ .

وفي ذلـــك قـــال أبو حيان : " وحكمة هذا الانتقال هنا أن الهدى لا يكون إلا منه وحده تعالى، فناســـب الضـــمير الخاص كونه لا هادي إلا هو تعالى، فأعطى الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره الضمير الخاص الذي لا يحتمل غيره تعالى فأتى بكلمة (من) الدالة على الابتداء في الأشياء، لينبه على أن ذلك صادر منه ومبتدأ من جهته تعالى." (1)

وتضـــمَّنت سورة الحج هذا النوع من التعبير في قوله : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج 02].

فلِمَ نسب الضمير في (يوم تروها) للجماعة المخاطبين ثُمَّ عدل عنه إلى الإفراد (وترى) ؟

فـــلأنَّ الهـــاء في (تـــروها) متعلِّقة بالزلزلة ، فجعل الناس جميعاً رائين لها، فلما صار كلُّ الناس سكارى استوجب رؤية كلِّ واحد منهم للآخرين على حالتهم تلك.

قال أبو حيان : " وعن الحسن أيضاً ﴿سُكَارَىٰ﴾ بسكر وقال أو لا تروها على خطاب الجمع جعلوا جميعاً رائين لها . ثم قال: ﴿وَتَرَى﴾ على خطاب الواحد لأن الرؤية معلقة بكون الناس على حـــال الســـكر، فجعل كل واحد رائياً لسائرهم غشيهم من خوف عذاب الله ما أذهب عقولهم وردهم في حال من يذهب السكر عقله وتمييزه." (2)

وقال أبو السعود :"والاختلافُ بالجمعيةِ والإفرادِ لِمَا أنَّ المرئيَّ في الأولِ هي الزلزلةُ التي يشاهدُهَا

---

(1) البحر المحيط : 1 / 272 .

(2) البحر المحيط : 6 / 326 . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت .ط1 . 2001 . تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين .

لـوله (قلـنا) لأنَّه أمرٌ من الملك العظيم إلى عباده ، أما سبب التعبير بضمير المفرد فلأنَّ الأمر يتطلَّب التخصيص ، فالهدى ليست إلا بيد الله سبحانه وتعالى ولا يقدر على امتلاكها أحد غيره ، حتى حبيبه صلى الله عليه وسلَّم أكَّد له سبحانه بأنَّها ليست بيده في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : 56] ، وجاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الآية [272] ، لذلك أَتْبَعَ جملة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ بقوله : ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ .

وفي ذلـك قـال أبو حيان : " وحكمة هذا الانتقال هنا أن الهدى لا يكون إلا منه وحده تعالى، فناسـب الضـمير الخاص كونه لا هادي إلا هو تعالى، فأعطى الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره الضمير الخاص الذي لا يحتمل غيره تعالى فأتى بكلمة (من) الدالة على الابتداء في الأشياء، لينبه على أن ذلك صادر منه ومبتدأ من جهته تعالى." (1)

وتضـمَّنت سورة الحج هذا النوع من التعبير في قوله : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج 02].

فلِمَ نسب الضمير في (يوم ترونها) للجماعة المخاطبين ثُمَّ عدل عنه إلى الإفراد (وترى) ؟

فـلأنَّ الهـاء في (تـرونها) متعلِّقة بالزلزلة ، فجعل الناس جميعاً رائين لها، فلما صار كلُّ الناس سكارى استوجب رؤية كلِّ واحد منهم للآخرين على حالتهم تلك.

قال أبو حيان : " وعن الحسن أيضاً ﴿سُكَارَىٰ﴾ بسكر وقال أو لا ترونها على خطاب الجمع جعلوا جميعاً رائين لها . ثم قال: ﴿وَتَرَى﴾ على خطاب الواحد لأن الرؤية معلقة بكون الناس على حـال السـكر، فجعل كل واحد رائياً لسائرهم غشيهم من خوف عذاب الله ما أذهب عقولهم وردهم في حال من يذهب السكر عقله وتمييزه." (2)

وقال أبو السعود :"والاختلافُ بالجمعيةِ والإفرادِ لِمَا أنَّ المرئيَّ في الأولِ هي الزلزلةُ التي يشاهدُهَا

---

(1) البحر المحيط : 1 / 272 .

(2) البحر المحيط : 6 / 326 . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت .ط1 . 2001 . تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين .

الجميعُ وفي الثَّاني حالُ مَن عَدَا المخاطبِ منهم فلا بدَّ من إفرادِ المخاطبِ على وجهٍ يعمُّ كلَّ واحدٍ منهم من غيرِ اعتبارِ اتِّصافِه بتلكَ الحالةِ ، فإنَّ المرادَ بيانُ تأثيرِ الزَّلزلةِ في المرئيِّ لا في الرَّائي باختلافِ مشاعرِه لأنَّ مدارَه حيثيةُ رؤيتِه للزلزلةِ لا لغيرِها كأنَّه قيلَ:ويصيرُ النَّاسُ سُكارى الخ ، وإنما أوترَ عليهِ ما في التنزيلِ للإيذانِ بكمالِ ظهورِ تلك الحالةِ فيهم وبلوغِها من الجلاءِ إلى حدٍ لا يكادُ يخفى على أحدٍ ." (1)

لكن قد يتساءل أحدنا كيف بإمكان أحدهم أن يرى غيره على تلك الحالة وهو يعيش نفس الحالة ؟ ، وذلك للإيذان بكمال ظهور تلك الحال فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد. ثُمَّ إنَّ قدرة الله عزَّ وجلَّ تفوق تصوُّرَنا لما نحن عليه اليوم ، كما أنَّه عبَّرَ بلفظ سكارى ، فالسكران يمكن أن يرى غيره لكنه لا يعي ، لشدّة سكره ، وهنا لقصد التشبيه ، لأنَّه قال: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ، فكيف الحال مع هول المطلع ؟.

وفي سورة الشعراء ورد قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء :20 ، 21 ، 22] ، الحوار دائر بين موسى عليه السلام وفرعون ، فخاطبه بصيغة الجمع في قوله ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ ، وضمير الجمع لفرعون وقومه الذين ائتمروا على قتل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: 20]. ولما كان الأمر يتطلَّب الرد على امتنان فرعون بقلب النعمة نقمة و تذكيره بأنَّ نعمة تربيته ما كانت إلا بسبب إذلال بني إسرائيل، إذ أَمَرَ فرعون بقتل أطفال بني إسرائيل، وكان سبب إلقاء أمّ موسى بطفلها في اليمّ حيث عثرت عليه امرأة فرعون ومن معها من حاشيتها، فلما كان الأمر كذلك كان الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه ينقض الإحسان و المنّة بالكلّية . لذلك فالخطاب بصيغة الجمع كان مقصوداً به فرعون وقومه ، أما الإفراد فخُصَّ به فرعون دون سواه ، و لجأ إلى المَنِّ حين عجز عن إقناع موسى عليه السلام للرجوع عن قوله .

---

(1) إرشاد العقل السليم : 6 / 92 .

وفي نفس السورة السابقة جاء قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء :100 ، 101]

إذ جمع الشافعين وأفرد الصديق ، فما السرُّ في ذلك ؟، الجواب تطرَّق إليه الزمخشري حيث قال :

"فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق. ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق ـ وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك ـ فأعز من بيض الأنوق." (1)

وفي هـذا التفسـير ما يغني عن كلِّ قول .كما أنَّه يصحُّ إطلاقُ الصديق لإرادة الجمعِ ،كالعدوِّ تشبيهاً لهما بالمصادرِ كالحنينِ والقَبولِ .

سادساً : الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الاثنين :

تضمَّنت سورة البقرة في إحدى آياتها هذا النوع من الالتفات ، وذلك في قوله تعالى :﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقـرة : 229] وفـيه نوعان من الالتفات، فقد عدل من الخطاب (لكم أن تأخذوا) إلى الغيبة (أن يخافا) ، كما فيه انتقال من الجمع إلى التثنية ، فلو جرى الكلام على سياقٍ واحـدٍ لكان (ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا ممَّا آتيتموهن شيئاً إلا أن تخافوا ألا تقيموا حدود الله) ؛ والظاهـر أنَّ الخطـاب هنا للأزواج من الرجال ، والسبب في العدول عن الجمع إلى التثنية هو الخـوف الذي يشترك فيه الرجال والنساء ، ولما كان الطلاق بيد الرجل ، كما الإمساك بيده، خاطبه في زمرة الرجال لتبيان أحكام الطلاق ، كما أخبر عن النساء بصيغة الغيبة .

وعند اشتراك الزوج والزوجة في أمر واحدٍ وهـو الخوف غلَّب صيغة الغائـب على المخاطـب لتساوي الزوجين في الحكم .

---

(1) الكشاف : 3 / 119 .

لكنَّ أبا حيان يرى غير ذلك حيث قال: " الألف في يخافا ويقيما عائد على صنفي الزوجين، وهو من باب الالتفات، لأنه إذا اجتمع مخاطب وغائب، وأسند إليهما حكم كان التغليب للمخاطب، فتقول: أنت وزيد تخرجان، ولا يجوز يخرجان ، وكذلك مع التكلم نحو: أنا وزيد نخرج ، ولما كان الاستثناء بعد مضى الجملة للخطاب جاز الالتفات ، ولو جرى على النسق الأول لكان : إلاَّ أن نخافوا أن لا تقيموا ، ويكون الضمير إذ ذاك عائداً على المخاطبين وعلى أزواجهم ، والمعنى: إلاَّ أن يخافا أي: صنفا الزوجين، ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من حقوق الزوجية ، بما يحدث من بغض المرأة لزوجها حتى تكون شدة البغض سبباً لمواقعة الكفر، كما في قصة جميلة مع زوجها ثابت." (1)

فكيف قال " إذا اجتمع مخاطب وغائب، وأسند إليهما حكم كان التغليب للمخاطب ." ، والملاحظ في الآية أنَّ قوله (إلا أن يخافا) جاء بصيغة الغائب ؟ ، وفي أمر الخوف وإباحة أخذ المال من الزوجة ، بيَّن الفخر الرازي أربعة أوجه للمسألة لخَّصها ثُمَّ فصَّل فيها ، ونكتفي بذكر هذا الملخص ، إذْ قال : " اعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الشرط هو حصول الخوف للرجل وللمرأة، ولا بُدَّ هَهُنَا من مزيد بحث ، فنقول: الأقسام الممكنة في هذا الباب أربعة لأنه إما أن يكون هذا الخوف حاصلاً من قبل المرأة فقط، أو من قبل الزوج فقط ، أو لا يحصل الخوف من قبل واحد منهما، أو يكون الخوف حاصلاً من قِبَلِهِمَا معاً." (2)

وفي كلِّ هذه الحالات جاز للرجل الأخذ من مال الزوجة بوجود شرط الخوف .

ويرى الآلوسي في الالتفات من الخطاب إلى الغيبة نكتة لطيفة وهي أنَّه لا يخاطب مؤمن بالخوف من عدم إقامة حدود الله.(3)

أما الطاهر بن عاشور فيرى في خطاب (أن تأخذوا) أنَّه موجَّهٌ للحكام ، وعلَّلَ ذلك بقوله : " لأنه لو كان للأزواج لقيل: فإن خفتم ألا تقيموا أو ألا تقيما، قال في «الكشاف»: «ونحو ذلك

---

(1) البحر المحيط :2 / 470 .

(2) مفاتيح الغيب : 6 / 101 .

(3) انظر روح المعاني : 2 / 189 ، 140 .

غير عزيز في القرآن» اهـ، يعني لظهور مرجع كل ضمير من قرائن المقام ونظره في «الكشاف» بقوله تعالى في سورة الصف [13] :﴿وبشر المؤمنين﴾ على رأي صاحب الكشاف ، إذ جعله معطوفاً على ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلخ لأنه في معنى آمنوا وجاهدوا أي فيكون معطوفاً على الخطابات العامة للأمة ".(1)

والضمير في قوله (إلا أن يخافا) قال : " وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ قرأه الجمهور بفتح ياء الغيبة، فالفعل مسند للفاعل، والضمير عائد إلى المتخالعين المفهومين من قوله:﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ وكذلك ضمير ﴿يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا﴾ وضمير ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ ، وأسند هذا الفعل لهما دون بقية الأمة لأنهما اللذان يعلمان شأنهما. وقرأ حمزة وأبو جعفر ويعقوب بضم ياء الغائب والفعل مبني للنائب والضمير للمتخالعين ؛ والفاعل محذوف هو ضمير المخاطبين؛ والتقدير: إلا أن تخافوهما ألا يقيما حدود الله." (2)

ولو سلّمنا بقول الطاهر بن عاشور بأنّ خطاب الجمع للحكام ، والتثنية للمتخالعين إذاً فلا التفات في الآية ، خلافاً لما قاله صاحب البحر المحيط ، والظاهر أنّ خطاب الجمع هو لجميع الأزواج من الأمة ، أما التثنية فهي للمتخالعين ، ولا دخل للحكام في أمر الأخذ ، والدليل هو قوله تعالى :﴿ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ ، ولا ينبغي تحميل الآية معاني لا تقتضيها .

والانتقال من الجمع إلى التثنية كذلك ورد في قوله تعالى:﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:79] إذ الانتقام كان من قوم شعيب وهم المذكورون باسم أصحاب الأيكة لأنّ النبيّ شعيباً عليه السلام كان مبعوثاً إليها فقال:﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ دلالة على القوم ،ثُمَّ عدل عن الجمع إلى التثنية بقوله ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾، ولو جرى الكلام على سياق واحد لكان (فانتقمنا منهم ، وإنّهم لَبِإمامٍ مبين) ، فما السر في العدول عن الجمع إلى التثنية ؟.

---

(1) التحرير والتنوير : 2 / 408 .

(2) المصدر نفسه : 2 / 409 .

بقول الفخر الرازي : "وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ فيه قولان : القول الأول: المراد قرى قوم لوط عليه السلام والأيكة .

والقول الثاني: الضمير للأيكة ومدين لأن شعيباً عليه السلام كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله:﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي بطريق واضح والإمام اسم ما يُؤتَمُ به . قال الفراء والزجاج: إنما جعل الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع. قال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يحتمل أنه مبين في نفسه ويحتمل أنه مبين لغيره، لأن الطريق يهدي إلى المقصد."(1)

وقال الطاهر بن عاشور : " ويظهر أن ضمير التثنية عائد على أصحاب الأيكة باعتبار أنهم قبيلتان، وهما مدين وسكان الغيضة الأصليون الذين نزل مدين بجوارهم، فإن إبراهيم عليه السلام أسكن ابنه مَدين في شرق بلاد الخليل، ولا يكون إلا في أرض مأهولة. وهذا عندي هو مقتضى ذكر قوم شعيْب عليه السلام باسم مَدين مرّات وباسم أصحاب الأيكة مرّات."(2)

وقد اتفق جمع المفسرين على هذا التفسير للضمير في (وإنَّهما) بأنَّه يرجع على قوم لوط وقوم شعيب ، أو على أصحاب الأيكة ومدين لأنَّ شعيباً كان مبعوثاً إليهما معاً فكان هلاكهم جميعاً .

ولا داعي للخوض في هذا الأمر في ترجيح قولٍ على آخر ، إذْ لا دليل يشير إلى قبيلة سدوم – وهم قوم لوط – ونكتفي بما رجَّحه الفخر الرازي ، على اعتبار عودة ضمير التثنية في (وإنَّهما) على أصحاب الأيكة ومدين .

كما اتفقوا على أنَّ قوله (بإمامٍ مبين) الطريقُ الواضح ، يعني: في اللوح المحفوظ وهو الكتاب ، ويسمى الطريق إماماً؛ لأن المسافر يأتم به ويستدل به ، ويسمى مطمر البناء إماماً وهو الزيج أي الخيط الذي يكون مع البنائين .

وفي سورة الرحمن كثرت التثنية والجمع ، ففي الجمع يتوجه الخطاب إلى كل أفراد الإنس والجن،

---

(1) مفاتيح الغيب : 20 / 204 ، 205 .

(2) التحرير والتنوير : 14 / 72 .

وفي التثنية ، نجد الخطاب موجَّه للثقلين ، الإنس والجن ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن :31، 32، 33، 34] ، خاطب مَعْشَرَ الجن والإنس بصيغة الجمع ، ثُمَّ ثَنَّى المُخَاطب بقوله : (فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان) ، وهذا الخطاب الأخير تكرَّر في جميع السورة للتأكيد والتبكيت والتعجيز.

ونجد نوعا جديداً من صور الالتفات لم يُشر إليه أحد من قبل ، وهو الانتقال من التأنيث إلى التذكير، لكنّه لم يرد كثيراً في كتاب الله عزَّ وجلّ ، و نجده في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل:66] ونظير هذه الآية نجده في سورة المؤمنون في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون :21] إذ أظيف لفظ (بطون) إلى صيغة المؤنّث .

ففي النحل ذَكَرَ الأنعام وهي اسمٌ مؤنَّث ثُمَّ أضاف البطون إلى ضمير مذكر ، فما هي العلَّة في هذا التذكير، والسياق يقتضي التأنيث ؟ لنا جواب على هذا السؤال سنذكره في الفصل الثالث، وهنا سنورد ما قاله بعض المفسرين بهذا الخصوص ؛ قال أبو السعود : " والتذكيرُ هنا لمراعاة جانب اللفظ فإنه اسم جمع ولذلك عدّه سيبويه في المفردات المبنيّة على أفعال كأكباش وأخلاق كما أن تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى، ومَن جعله جمعَ نَعَمٍ جعل الضميرَ للبعض فإن اللبَن ليس لجميعها، أو له على المعنى، فإن المرادَ به الجنسُ ." (1)

و قال الآلوسي : " وهو اسم جمع واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه وتأنيثه وجمعه باعتبار معناه ، ولذا جاء بالوجهين في القرآن وكلام العرب كذا قيل." (2).

لكنّنا نرى في هذا التذكير الّذي حقُّهُ التأنيث عَجَباً عجيباً ، يتجاوز مراعاة جانب اللّفظ والمعنى كما ذهب أبو السعود والآلوسي ، وسنُفَصِّلُ في ذلك في الفصل الرابع فيمكن مراجعته هناك .

* * *

(1) إرشاد العقل السليم : 5 / 124 .

(2) روح المعاني : 14 / 176 .

الفصل الرابع

استنباط الأحكام الفقهية والبيانية

من خلال أسلوب الالتفات

هـــذا الفصل هو خلاصة ما قرأناه عن أسلوب الالتفات ، بعد جولة كاملة عبر أزمنة متتابعة ومتكاملة ، تظافرت لتُشكِّلَ دائرة مشحونة بالإبداع والتصورات ، والرؤى المتباينة ، انطلاقاً ممَّا أسَّسَـــهُ علماء اللُّغة وأهلُ البلاغة لهذا الأسلوب ؛ مروراً بلمسات علماء التفسير وتعليلاتهم لآيِ القـــرآن الكريم المتضمِّنة لذلك النوع من التعبير ؛ وصولاً إلى ما استخلصه المحدثون من هؤلاء الســـابقين ، وتســـخير ذلك لخدمة النّص القرآنـــي ، مواكبةً لِما استقرَّ عليه العلم الحديث من اختراعات لوسائل تُسهِّل عملية البحث في شتى المجالات .

وعلـــيه فـــإنَّ جهود العلماء السابقين في هذا المجال الذي نبحث فيه تدفع بنا إلـــى إمكان تسخير أسلوب الالتفات في استنباط الأحكام ؛ وهذه الأحكام ليست بالضرورة أن يكون الفقه شرطها الأوحد ، بل تتعدى إلى قضايا عقلية ، فاتحة مجال النظر للمتبحِّرين في هذا المنحى ، وإلى نُكَتٍ تُولِجُ إلى حوارٍ قصد التذوّق والتمعُّن .

وسنتوقف على بعض الآيات التي تناولناها في الفصلين السابقين ، كما سنتناول آيات أخرى تضمَّنت أسلوب الالتفات غير الّتي أشرنا إليها من قبل.

ونـــبدأ بفاتحـــة الكـــتاب التي تضمَّنت نوعين من الالتفات ، ونكتفي بما جاء في قوله تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 02 – 05] .

فمـــا نســـتنبطه من هذه الآيات حسب ما وضَّحنا من قبل ، أنَّ الإنسانَ ضعيفٌ بمفرده ، قَوِيٌّ بالجماعـــة ، حسب ما ذهب إليه النّورسي (1) ؛ فالإنسان لا يطمئنُّ إلى قبول عملـــه عند الله ، إلاَّ بوجـــود جمـــعٍ كبيرٍ ، هذا الجمع لا يخلو من عابدٍ مقبولٍ عند الله عزَّ وجلَّ ، وذلك مقياس لشهادة الأحياء للميِّت عند تشييعه في التكفير عن سيئاته ، إنْ كان صالحاً .

فإذا رأيتَ غيركَ مُقبلاً على منهج الله ، وأنت في غفلة عن هذا المنهج في بعض الأحايين ، فإيـــاك

(1) انظر ما أوردناه في الفصل الثاني عمَّا قاله سعيد النّورسي في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب الوارد في سورة الفاتحة .ص : 88

أنْ تخسـرَه ، لأنَّك في وقتٍ ما ستحتاج له للانضمام إليه ، فمن الخير أن يتواجد أناس منقطعون لله، بينهم وبين الله وِفْقٌ ؛ لأنَّك حين تقول : (إياك نعبد) فقد يعمُّنا الخير معك ، بخلاف إذا قلت (إياك أعبد) فالنفع قد يرجع عليك وحدك ؛ ولهذا لا ينبغي أن يكون حظّهم منك أن تَسْخَرَ منهم ، وأنْ تلمزهم وتحتقرهم ، فإنْ فعلت فإنَّك تُضيِّقُ على نفسك أطواق النجاة في الحياة ... فالإنسان القادر إذا تحرَّك ،فإنَّ هذه الحركة تَسَعُهُ وتَسَعُ مَنْ لا يتحرَّك ، ولو من باب الشكر لله الذي جعله قادراً ، ورفَعَ عنه الضعف في تلك الحياة .(1)

إذن برسوخ هذا المفهوم وتطبيقه ، يتحقَّق في نفس الإنسان الولاء الجماعي ، واستطراق العبودية ، ويتيح لنفسه سبيلاً إلى النجاة ؛ لذا يجبُ أنْ نُعبِّرَ عن أنفسنا وعن غيرنا بـ (إياك نعبد وإياك نستعين) . فصلاة الجماعة وُجِدَتْ لمصلحة الجميع ، والفرق بين المتديِّن وغير المتديِّن ، أنَّ الثاني لا يهمُه إلاَّ نفسه ، أمّا الأوَّل فإنَّه يعمل لنفسه ولأهله ، ولِمَنْ لا يقدرُ على الحركة ؛ والأمر يبقى نسبياً ، فقد نجد الاستقامة تتوفر في غير المتديِّن ، كما نجد الانحراف يطبع سلوك بعض المتظاهرين بالتديُّن . ومن كلِّ هذا نستخلص أنَّ : " المؤمن ضعيفٌ بمفرده ، قويٌّ بالجماعة ".

ولقد تضمَّنت سورة البقرة التفاتات عديدة منها ما يصلح لأنْ نستنبط منه بعض الأحكام ، ففي قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة : 143] فالالتفات من الخطاب (كنتَ) إلى الغيبة (الرسول) يجعلنا نتساءل عن السرّ في هذا العدول .

إنَّ اجتماع المسلمين – وكذلك جعلهم ربُّهم – يؤول إلى الخير كلِّه ويدع القبائح ما ظهر منها وما بطن ، لاستبقاء عهد الله عليهم وعلى النّاس كافّةً ، لأنَّ (العهد) كان مسؤولاً .

فيلزم هذا الاجتماع على كلِّ واحد منهم عدالةً لا تجريح فيها ، فتنمو به وبه تضيق مناطق الزلل

---

(1) انظر محمد متولي الشعراوي : أسئلة حرجة وأجوبة صحيحة . ص :158 ، 159 ، 160 . ط .1982 . دار العودة .القاهرة .مصر.

لدفع الفساد أينما كان . ومن كرم الله تعالى على هذه الأمّة شهادتها على غيرها والّتي هي من شهادة الرّسول عليها والتي هي من شهادة الله على الخلق كلّه ؛ يقول الله تعالى : ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : 166] ، ويقول أيضاً : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : 140] ، فالوسطية عند جلّ المفسّرين هي العدالة ، وعند فلاسفة اليونان هي الوسط الذّهبي بين رذيلتين ، إذا اعتبرناه فضيلةً .

جاء الالتفات في خطاب الله تعالى للمسلمين (جعلناكم) ، ثُمَّ التفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم (كنت عليها) ، ثُمَّ ذكره بصيغة الغائب (الرّسول) ، واختتمه بالالتفات إلى كافة النّاس ليبيّن مدى الشهادة الموسومة بالدّقة والخطورة .

فالقاعدة الفقهية المستنبطة من هذا الالتفات هي : المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلاّ مجرّباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حدٍّ أو ظنيناً في ولاءٍ أو قرابة .

"وهي قاعدة فقهية تتعلّق بالشهادة ، وقد اعتبرناها قاعدة لأنّ الشهادة تتعلّق بأكثر أبواب المعاملات ، وتتعلّق أيضاً بأبواب الحدود والجنايات."(1)

ومن نكت هذه الآية الكريمة توسُّطها سورة البقرة (143) لأنّها وقعت انتصافاً للعدد (286) الّذي هو عدد آي سورة البقرة عند جلّ القرّاء ؛ لذلك - والله أعلم - أشار الله عزّ وجلّ إلى هذه الوسطية بقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ .

وفي قوله تعالى من السورة نفسها : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة :229] خاطبهم بصيغة

---

(1) القواعد الفقهية : ص : 180 .

الجمع (أن تأخذوا) و (آتيتموهن) وهذا الخطاب للأزواج ثُمَّ عبَّرَ عنهما بصيغة الغائبين (أن يخافا) .

وقد سبق وأن وضَّحنا أسرار هذا الالتفات من خلال ما قاله جمهور المفسرين ، وهنا نشير إلى ما يقتضيه من أحكام ، فالانتقال من الجمع الحاضر إلى المثنى الغائب أَنْبَأَ بمستويات التقاضي ، ويوحي بأنَّ لكلِّ مشكلٍ حلاً ، وأنَّ الشقاق الأسري من اهتمام القضاء الأوَّل ، إنْ عُولِجَ بحكمة تحقَّقتْ مصلحة المجتمع ، ومنها مصلحة الدولة ، وبها يُرسِي العدلُ أساسَهُ ؛ وإنْ أُهْمِلَ حبلُه على غاربه سارَ بالمجتمع إلى الضرر .

ومن الأحكام المستنبطة من هذا الخطاب الرباني مثلاً : الضرر لا يكون قديماً ، لأنَّ الأصل في الأشياء البراءة (الفطرة) ، والضرر استثناء ، والصلح جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً (1)

وإذا انتقلنا إلى الآية [233] من سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ نجد الالتفات من الغيبة بصيغة المثنى (أرادا - منهما - عليهما) إلى الخطاب بصيغة الجمع (فإن أردتُمْ أن تسترضعوا أولادكم...)، فهذه الآية تناولت جانباً هامّاً من حياة الإنسان ، وهي مرحلة الرّضاع ، وجاءت عَقِبَ موضوع الطلاق حتى يتبيَّن الشارع حقوق الرضيع كاملة غير منقوصة على عاتق الوالدين ، فتبقى مصونةً محفوظةً وثابتةً في تغيُّر الأحوال الأسرية . وكلُّ هذا حاصل عن الإرادة وليس عن ردود أفعالٍ (أَرَادَا) و (أَرَدْتُمْ) .

قال أبو السعود : " فالفصال الوارد هو الفطام قبل تمام الحولين ، والتنكير للإيذان بأنَّه فصالٌ غيرُ معتادٍ . و (إن أردتم) بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام ، والالتفات إلى خطاب الآباء لِجَذْبِهِمْ إلى الامتثال بما أُمِروا به ." (2)

---

(1) أ .د.محمد بكر إسماعيل : القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه :ص : 198 . ط 1 . 1417 هـ / 1997 م – دار المنار – بيروت .لبنان.

(2) تفسير إرشاد العقل السليم : 1 / 230 .

بيَّن الفخر الرازي هذه المسألة بقوله : " اعلم أنا قد بينا أن الأم أحق بالإرضاع، فأما إذا حصل مانع عن ذلك فقد يجوز العدول عنها إلى غيرها، منها ما إذا تزوجت آخر، فقيامها بحق ذلك الزوج يمنعها عن الرضاع، ومنها أنه إذا طلقها الزوج الأول فقد تكره الرضاع حتى يتزوج بها زوج آخر ، ومنها أن تأبى المرأة قبول الولد إيذاء للزوج المطلق وإيحاشاً له، ومنها أن تمرض أو ينقطع لبنها، فعند أحد هذه الوجوه إذا وجدنا مرضعة أخرى وقَبِلَ الطفل لَبَنَهَا جاز العدول عن الأم إلى غيرها، فأما إذا لم نجد مرضعة أخرى، أو وجدناها ولكن الطفل لا يقبل لبنها فههنا الإرضاع واجب على الأم. " (1) ، وهذا عود على بدء : والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين ... .

أمَّا بلاغة الالتفات في هذه الآية دَلَّتْ على قاعدة ضابطة بيّنَهَا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ. (2)

وفي سورة النساء قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء :128]

فعدل عن الزوجين الغائبين (يُصلحا بينهما) إلى جمع المخاطب (وإن تحسنوا وتتَّقُوا) .

والحديث في الآية يدور حول الخلية الأسرية ، ولأنّ هذه الخلية تتألّف من اثنين ، إلا أنَّ الإحسان والتقوى ينطلقان من المثنى إلى الجمع ، إذْ نرى مظاهر الإحسان والتقوى بين الزوجين إلى الأولاد ، وإلى الجيران ، وإلى ذوي القربى ، وإلى المجتمع كلّه .

وفي هذه المسألة وجهان :

الوجه الأوَّل : أنَّ إعراض الزوج عن زوجته ونشوزه يقتضي محكمة ولو مصغّرة للفصل ، إمَّا للصلح ، وإمَّا للطّلاق ،كما في الآية [130] من السورة نفسها .

فالانطلاق من المثنى الّذي يُمثّلُ أصل النزاع والإشكال ، إلى الجمع للصلح بينهما ، يؤسِّسُ لِحُكْمِ التكافل الاجتماعي ، وهذا ما أبرزه هذا الالتفات .

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 6 / 124 .

(2) القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه . ص : 96 .

الوجه الثاني : إنَّ سياق المثنى جاء تَنَاظُراً للآيتين [34 ، 35] من السورة نفسها ، اللّتين دلّتا على الالتفات من الجمع إلى المثنى ، وذلك لحصر الصراع بين الزوجين ، ووأده عندهما ، اتباعاً للخطوات الثلاث (الوعظ والهجر في المضاجع ، والضرب) ، فإن تعذَّر ذلك كان المجال للحكم ، وهذا إرساء لمبدأ التحكيم .

ونستنبط من هذا الالتفات مبدأين : مبدأ التكافل الاجتماعي ونصَّت عليه الآية [02] من سورة المائدة : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

ومبدأ التحكيم الّذي نصَّت عليه الآية [35] من سورة النساء : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ .

وفي سورة الأعراف قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : 11] ، إذ توجَّهَ بالخطاب لآدم عليه السلام بصيغة الجمع ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ ثُمَّ عبَّر عنه بصيغة المفرد الغائب ﴿ لِآدَمَ ﴾ ، ونظير هذه الآية هو قوله تعالى من السورة نفسها : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الآية : 172] ، ونظيرها أيضاً الآية [27] من سورة لقمان : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

ومن استنباطاتها القاعدة التي تقول : إنَّ الأصل " بقاء ما كان على ما كان " ، أو " مصدر الاستصحاب ". (1)

فكلُّنا من آدم وآدم من تراب ، كما جاء في الأثر ، فآدم عليه السلام أبو البشر ، وأبو الأنبياء والمرسلين ، عصى ربَّه ببشريته معصيةً واحدةً ، وتلقى منهج الله ليُلَقِّنَهُ لذريته . ومن هذا جاءت هذه القاعدة مؤكِّدَةً لفطرة الله الّتي فطرَ النّاس عليها ، عندما تدخَّلتْ يدُ الإنسان جاعلةً لهُ منهجاً من عند نفسها ، موازياً لمنهج الله .

---

(1) محمد بكر إسماعيل :القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه .ص : 58 .

والالتفات في هذه الآية أوّماً إلى الآية [172] من السورة نفسها ، إذْ إنَّ الخَلْقَ بكامل نسماته ثمَّ إنشاؤه ؛ فقيُومِيَةُ الله عزّ وجلّ اقتضت أنّه يُبدي الأمور ولا يَبْتَديها ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ . والتعليل على ذلك هو توجيه الخطاب للنّاس عامة ، ثُمَّ التحوُّل إلى ذِكْرِ آدم على سبيل الغيبة .

وفي سورة التوبة نجد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : 111] إذ التفات من الغيبة ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ إلى الخطاب ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم ﴾ ، وقد لاحت لنا من خلال هذا الانتقال بعض الأحكام سنبيِّنها بعد هذه التوطئة .

لقد خلق الله الخَلْقَ ، وأمرهم أن يعبدوه عبادةً تليقُ بعظمته وكبريائه سبحانه وتعالى ، وفطرهم على حبِّ الخير وبُغْضِ الشرِّ ؛ فلمَّا انحرفوا عن هذا الناموس الأعظم ، بَعَثَ إليهم الرُسُلَ مبشرين ومنذرين ، يحثونهم على توحيد الله من غير شرك ظلوم ، ولا رياء مُحْبِط ؛ وكلَّما وَقَعَ طغيان منهم ، سلَّطَ عليهم عِقابَهُ ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

أمَّا الرسالة المحمّدية ، تلك الرسالة الخاتمة لجميع الرسالات، فقد جاءت بخصائص مُمَيَّزَة عن سابقاتها. ولعلَّ ما يُميِّزُها هو الجهاد ، هذه القلادة الربانية الّتي جعلها الله تعالى في أعناق أمّة محمد صلى الله عليه وسلّم لإرساء وتمكين مبدإ الاستعمار في الأرض لقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : 61] .

والاستعمار هو إبقاء الصالح على صلاحه ، وإصلاح الفاسد إذا طَرَأَ ؛ والجهاد الّذي هو سنام

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يتأرجح فرضه بين العين والكفاية للدفاع عن الفطرة الّتي فطرَ الله النّاسَ عليها ، ولا تبديل لكلمات الله .

ومن بديع هذه الفريضة أنّها تجارة (بيع وشراء) ، وقد تؤول إلى الخسارة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف : 10] ، فالشاري هو الله تعالى ، والبائع هو المؤمن ، والبضاعة هي النّفس والمال ، فهذا الأقنوم (1) ثابت في الأحوال جميعها .

وإذا تحوّلنا إلى بلاغة الالتفات في هذه الآية من الغيبة (يقاتلون) إلى الخطاب (فاستبشروا) ، نجدها وَمِيضاً يكشف عن أسرار حكمٍ أزلي ، يدفع بنا إلى التأمّل في دفع النّاس بعضهم بعضاً للمحافظة على قواعد الخلافة في الأرض .

إنّ الباعث في العمل هو تقدير مرماه ؛ فالّذي يدفع الأجير إلى بذلِ المستطاع من الجهد ، هو الأجرة ، والّذي يبعث الطالب إلى التحصيل والسهر هو الشهادة ؛ فلما كان باعث المجاهدين هو الجنّة ، وقد يحصلُ تقاعسٌ في ذلك ، لأنّ النّفس البشرية لا تميل إلى المشقة والتعب ، وقد يعروها الوَهَنُ ، ولأنّها جُبِلَتْ على الاستعجال ، كانت مواجهتهم بالخطاب اطمئناناً لهم وتأكيداً لسعاهم، فقال (فاستبشروا) .

فالإنسان يعمل وقد لا يَرَى بواكير عمله إلاّ بعد سنين عديدة ، وقد تُرَى بعد رحيله عن الدنيا في بعض الأحايين .

قال : (فاستبشروا) لِتَقرَّ أعينهم ، ولا يحزنوا ، بل فرحين بما آتاهم الله تعالى من فضله العظيم.

ومنه نستشفُّ معنى الحبِّ في الله ، وإخلاص العبادة له ، وما سُنَّ الجهاد إلاّ لطارئٍ حصَلَ لإعادَةِ الأمور إلى معاقلها الأولى .

والحكم المستنبط من هذا البلاغ الالتفاتي هو: مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .(2) وهذا الحكم مُسْتَنْبَطٌ من حديث نبوي شريف جواباً عن سؤالٍ ، يريد فيه صاحبه أن يعرف متى يكون الجهاد في سبيل الله حقّاً يُثابُ عليه فاعله .(3)

---

(1) الأقنوم هو كلّ شيء يتركب من ثلاث رؤوس (أصول) (TRIO) ، وجاء في لسان العرب :" الأقانيم : الأصول ، واحدها أُقْنُوم ؛ قال الجوهري: وأحسبها رومية ." انظر لسان العرب . باب القاف ، و أما الثنائي فيسمى (DUO).

(2) القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه . ص : 410 .

(3) انظر المرجع نفسه . ص : 410 .

والشـــرط في صـــحة وقبول هذا الجهاد أن تتوفَّر النيّة الخالصة ، فالدين كلُّه مؤسَسٌ على هذا الشرط ، لأنّ الدين النصيحة ، والنصيحة هي الإخلاص .

وفي هـــذه الآيـــة نكتة لطيفة تتمثَّلُ في أنَّ المال سابقٌ النفسَ في كلِّ الآيات ، إلاَّ في مقام الجهاد العيني (فرض عين) ، ففيه النفسُ سابقةٌ المالَ .

ونجد في سورة إبراهيم قوله تعالى : ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبـراهيم : 34] ، وفي سورة النحل : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل : 18] ، فالالتفات ورد في قوله ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ ﴾ ، فكيف ذلك ؟.

أَمَا ترى أنَّ النَّفس البشرية يستهويها الحقُّ وتُطربُها الخلالُ الكريمةُ طرباً يُوصلُها بالملكوت الأعلى لتُسبِّحَ مع الملائكة في أَرْيَحيَّة مطلقة ، هذه النَّفس الّتي وصفها القرآن بالمُطمئنَّة .

برئَتْ هافيةً إلى ما يُريحها من خيرٍ ، وكثيراً ما يُنعشُها المعروف إذا ما صدئت ، ففي الصّقل الربَّاني نَعَمٌ ونِقَمٌ على سواء ، علمتْ وهي تسمو بنفسها من الدركات إلـــى الدرجات أنَّ الله سبحانه وتعالى سَنَّ لها مقابلَ الإسداء طرق الثناء ولا يتأتَّى لها ذلك إلاّ بالشكر لاستبقاء الزيادة مكفولة غير منقوصة لقوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : 07] وهذا حمد الفواضل ، فإنْ لَمْ تكن فذاك حمد الفضائل .

أمّا قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ فيه جملة من المحطّات تُوقفُنا للتدبُّر فـــي أنفسنا وعلاقتهنَ بباريهنَ وفي مآلهنَ :

فالمحطّة الأولى بيَّنتْ خطاباً التفتَ فيه من الجمع إلى المفرد ، فالسياق يقتضي (وإنْ تعدوا نعَمَ الله)، والضابط هو العدُّ ، والعدُّ أدناه اثنان ، وهذا ما نسميه وسَمَّاه القرآن الكريم من قبلُ بالحساب والإحصاء غير العَدِّ ، لأنَّه يُجلِّي الحصر من غير زمـــان ومكـــان ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس : 12] ، أمَّا الثاني (العدّ) فيكون في الزمان و في المكان ، لقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم : 94] ، وفعل الله جامعٌ بينهما ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن : 28] ، لأنَّه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وما يريد .

المحطّة الثانية : بدأ المعنى بـــ (إنْ) الشرطية الّتي يكون فيها الشّكُ وارداً خلافاً لما تحمله (إذا) الّتي يكون الإخبارُ بها يقينياً لا محالة ، والشرط مُنْتَفٍ بالعدِّ لانتفاء الإحصاء من بعد ، لأنَّ المقام يلزم قول (إنَّكم لا ولن تعدُّوا نعمة الله إذنْ لا ولن تحصوها) ؛ واعلم أنَّ الجزم في الأولى واجب لتقييد الخبر بحدوده ، لِدَرْءِ الشَّكِ عن حيثياته ، ممَّا يدلُّ هذا الدرء عن وجود الشَّكِ ، فيتعقَّبُهُ الاحتمال والتخمين . أمَّا في الثاني استغنت عن الجزم لمَحمول اليقين لا تجزئة فيه .

المحطّة الثالثة : جاءت تاءُ (نِعْمَتَ) مفتوحةً وهذا يدلُّ على أنَّ الكلام وَقْفٌ من عند الله تعالى ، وشاهدٌ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قد بَلَّغَهُ أمَّتَهُ ، إذْ كيفَ نفسِّرُ ربطها في الآية (18) من سورة النحل ؟ ؛ ففتحها ههنا يومئ إلى جريانها في الكون ، لا حدَّ يوقفها ولا عدَّ يحصرها ، يُسْبِغُها الله سبحانه وتعالى بِمَنِّهِ على خلقه ، فلا ذنوبهم تصرمها ، ولا عصيانهم يقطعها .

فالجود منه غير عابئٍ بِمَا يُبادرون به من المخالفات ؛ ففتحها للدّلالة على انتفاء العدِّ والإحصاء ، إذْ يُتَمَّانِ في حدودٍ معيَّنة ، بيد أنَّ نِعَمَ اللهِ غيرُ محدودة .

المحطّة الرابعة : إذا وازنَّا بين الآيتين ؛ آية إبراهيم (34) ، وآية النحل (18) نستخلص ما يلي :

1 – أنَّ التذييل مختلفٌ ، فظلمُ الإنسان وكفره مقال مغفرة الله ورحمته .

2 – أوضَحَ بديعَ النَّسقِ القرآنـــي .

3 – التاء المفتوحة للدلالة على تعجيز الخلق بالعدِّ والإحصاء ، والتاء المربوطة لِحَلِّ المعضلة بمغفرة الله ورحمته .

المحطّـــة الخامسة : نجدها ملخّصةً فيما قاله الفخر الرازي : " أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقـــال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 18] ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني

غفوراً رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إن كنتَ ظلوماً فأنا غفورٌ، وإن كنتَ كفاراً فأنا رحيمٌ أعلم عجزَك وقصورَك فلا أقابل تقصيرك إلاَّ بالتوفير ، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء ، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة ." (1) وقوله أيضاً : " أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعلم أنه تعالى قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 34] وقال ههنا: ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ والمعنى: أنه لما بين أن الإنسان لا يمكنه القيام بأداء الشكر على سبيل التفصيل: قال: (إن الله لغفور رحيم) أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه، رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عليكم بسبب تقصيركم." (2)

فالقاعدة المستنبطة من كلّ هذا هي قاعدة بيانية تتجلّى في أنَّ رحمة الله وسعت كلَّ شيء لقوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : 54] وقوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : 156] ، ولله الحمدُ والمنّة .

وفي سورة النحل في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل : 66] ، انتقل من ذكر الأنعام وهي اسم مؤنَّث ، إلى التذكير بالضمير المضاف إلى البطون ، والسياق يقتضي أن يقول (في بطونها) ؛ ونجد الآية نفسها في سورة المؤمنون في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون : 21] حيث نجد الضمير في (بطونها) مؤنَّثا يجري على السياق السابق ؛ وقد أشرنا سَلَفاً إلى أنَّ هذا التفات جديد لم تسبق الإشارة إليه ، فما هو السرُّ في التذكير بدل التأنيث ؟ ، وما الحكم المستنبط من هذا الالتفات ؟ .

إنَّ القرآن كلام الله تعالى ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، يُخاطبُ الوجدان والجنان ، ليَجعلَ بينهما توازناً كتوازن المادة والروح ، الذي تعداهما إلى كلّ شيء معلوم

---

(1) مفاتيح الغيب : 19 / 130 ، 131 .

(2) المصدر نفسه : 20 / 15 .

وغير معلوم ، ويشدّ الآذان لِيَلِج إلى الأذهان مُستَجْلِياً المزيد من الحقائق التي جلبها الله عزّ وجلّ لِدَفْعِ الغفلة والنسيان .

ومن كرم الله تعالى على بني آدم ، أنْ أنعم عليهم بنعمة العقل حتى يتأمّلوا ويقارنوا بين البدائل ، ليكون القرب منه به ، ولِيَلحقُوا بِمَواكب الملائكة ، بل بالكون كلّه ،مسبِّحين ومسبِّحين في نسقٍ بديع ، مقرِّين بالعبادة لله تعالى وحده .

فإذا قارنّا بين الآيتين المذكورتين ، لاحظنا التفاتاً عجيباً يدعو إلى الحيرة التي تستهوي المعرفة، وتستنهض حصافة الفكر ؛ فمن التذكير (بطونه) إلى التأنيث (بطونها) ، لِموضوع واحد (الأنعام) ، والعجب كلُّ العجب الذي يُغشي النفوس هو تذكير ما حقُّه التأنيث في هذا الموضع من القرآن الكريم . فالظاهر أنَّ التذكير الوارد في سورة النحل جاء شارحاً تذييل الآية [65] من السورة نفسها :﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

فبعد أن يُنزِلَ اللهُ الغيثَ لِيُحيي الأرض بعد موتها ، فلِمَ السمع ، إذا كانت هذه الصورة حاستها البصر ؟ ، فالسمع حاصل عند كلِّ صوت عند تَجَوُّل الأمواج عامّةً ، وعند الكلام خاصّةً ؛ فنزول الغيث لِيُلامِسَ الأرض ، يستلزم صوتاً وليس لغطاً ، صوتاً مفهوماً معقولاً مُبيناً. وهذا يدفعنا إلى القول : إنَّ ما في السموات وما في الأرض - الظرف والمظروف -يُسبِّح لله ، والتسبيح أقلُّ درجاته قول : (سبحان الله) ، وسبحان الله يدلّ على الكلام ، والكلام ترجمان العقل ، والعقل تكريم الله الأسمى والأجلّ .

قال الله تعالى:﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:44] لا غروَ أنَّ المخلوقات تتكلّم كلاماً لا يفقهه البشر ، فالنمل خاطب معشره ، والهدهد جاء بنبإ يقين ، ودابة الأرض تُكلِّم الناس يوم وقوع القول (1) ؛ والسماء والأرض أَقَرَّتا بالطاعة لله ربِّ العالمين ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .[فصلت:11]

---

(1) انظر الآيات 18 ، 22 ، 82 من سورة النمل .

فالنظـــرية الأحادية الخاصّة بالفكر واللّغة عند الفلاسفة (1) تُوضّح هذا التلازم ، وهذا التمازج بينهما ، فلا لغة خارج الفكر ، ولا فكر بدون لغة .

والحصـــافة نِـــتاجُ وســـطٍ بـــين رذيلتين ، وهذا دعامة ديننا السامقة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقـــرة : 143] ، نلحـــظ تفاعلها باستقامة سويّةٍ ، لا ميل ولا زيغ في اللبن ، هذا الشراب الســـائغ الـــذي يخرج من بين نجاستين (الفرث والدم) ايحاءً منه تعالى إلى سلوك العقل ؛ هذه الوسيلة التي ميَّزته عن الخلق كلّه في حرّية مضبوطة مُؤَسَّسٍ لها .

إنَّ السماء تسبِّح عند نزول الغيث ، والأرض تسبِّح عند استقباله ، فيتفتَّقُ البذرُ عنها ، والأنعام عـــند هضـــم ما تُخرِجُهُ الأرضُ ليُسْقَى الإنسان منها لبناً سائغاً ، فعليه أن يسبِّح لتكتملَ دائرة التسبيح .

فالإســـراء أتـــتْ بمصدر التسبيح (سبحان) والحشر والصف جاءتا بالفعل الماضي (سبَّحَ) ، والجمعة والتغابن جاءتا بالفعل المضارع (يُسبِّحُ) ، وختمت هذه الحلقة بفعل الأمر (سبِّح) في سورة الأعلى ، الّتي هي من أحبِّ السور إلى نفس النبيّ ، إذْ أمر بأن نجعلها في سجودنا .

إذاً فالتذكير جاء مصداقاً للتسبيح ، أما التأنيث الوارد في سورة المؤمنون (الآية : 21) دلَّ على التسخير ، وحيثياته في سياق الآية نفسها ، وفي الآية التي بعدها .

ونافلـــة القـــول أنَّ الالتفات الحاصل غير مصنَّف عند علماء البلاغة المتقدِّمين ، من التذكير إلى التأنـــيث ، لأنَّهـــم رأوا أنَّ الخروج من الأصل إلى الفرع ليس التفاتاً ، بل مجازاً ، فورود الفرع مكان الأصل ، كورود بعض الشيء بدل كلّه ، ولكنَّه هنا التفتَ الكلام من مقامٍ إلى مقامٍ آخر غير واقع جزءاً منه ، بل موضّحاً ما يأتـــي :

أنَّ كلَّ المخلوقات فُطِرَتْ بصفحتين: صفحة الإقـــرار بالوحدانية والتسبيح ، وصفحة التسخـــير لِمَنْ هو الأعلى منها مرتبةً ؛ فالجماد مسخَّرٌ للنبات ، والنبات مسخَّرٌ للحيوان ، والحيوان مسخَّر

---

(1) ويسمى هذا الإتجاه كذلك بالاتجاه الواحدي ، ومن الفلاسفة القائلين بهذا الرأي نجد : "جون لوك" و "ميرلوبونتي" .
النقاية

للإنســـان ، فالإنسان يزداد قرباً وحظوة من الله إذا انصهر في التسبيح مع الكون ، فتسبيحه عن طـوع غير مكره ؛ فإن عشا عن ذكر الرحمن كان أحطَّ مرتبةً من الجماد ، بل غير مصنَّفٍ ، بل قرين الشيطان اللّعين .«1»

وجـــاء في قوله تعالى من سورة الإسراء : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء : 100] إذْ عبَّر بالفعل المضارع (تملكون) ثم عدل عنه إلى الماضي (أمسكتم) ؛ وفي هذا العدول نلمس حقيقة الإنسان ، وخاصة الكافر بالله ، فالكفار طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدهم لِتكْثُرَ أموالُهُم ، وتتّسع عليهم معيشتهم ، فبيَّن الله تعالى أنّهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لَبَقَوْا على بخلهم وشُحِّهم ، ولَمَا أقدموا على إيصال النفع إلـــى أحدٍ . وعلى هذا التقدير فلا فائدة في إسعافِهم بهذا المطلوب الّذي التمسوه ، فهذا هو الكلام من جهة النَّظم ، والله أعلم .

وفي الآيـــة نكتـــتان : الأولى نحوية والثانية بيانية ، أمَّا الأولى فتتعلَّق بـــ (لو) الّتي تدخل على الأفعـــال والآثار لا الأسماء ، وكلُّ هذا تقوية للنكتة البيانية الّتي دلّتْ على أنّهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشّح الكامل .

أي أنّكم لو تملكون خزائن فضل الله وخيراته ورحمته ، لبقيتم على الشّح ، وهذه مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشيء .

وهـــذه الآية أفصحت عن أصلٍ في الإنسان هو البخل ، وما ذُكِرَ الإنسان في القرآن إلاَّ وتبعته مثالبه ؛ فالأصل في الإنسان البخل والعجل والضعف والكفر والظلم والجهل .. وهذا ما نستنبطه من هذه الآية .

---

(1) انظر محمد متولي الشعراوي : على مائدة الفكر الإسلامي.ص:142 إلى 146 . ط 1402 هـ / 1982م .دار العودة . بيروت .لبنان .

وإذا انتقلنا إلى سورة الكهف ووقفنا على قوله تعالى :﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف : 79 ، 80 ، 81 ، 82] نجد الفعل (أراد) يتحول من المفرد المتكلّم إلى جمع المتكلمين إلى المفرد الغائب ، وكلُّ هذه الأفعال جاءت مسبوقة بالفاء .

ويوضّح هذا الالتفات جانباً هاماً من جوانب العقيدة المحضة الخالصة ، مبيّناً للإرادة ؛ فالإرادة المطلقة عند الله تعالى ونسبيتها نعمة الله تعالى لخلقه ، فإذا كان للجدار إرادة في قوله ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف : 77] ، فمن بابٍ أولى أن تكون لدى الإنسان ، وعليها تحدّد مسؤوليته في نطاقها الشامل . وما هذا الالتفات إلا دليل صريح على دقّة هذه المسألة (فأردتُ) إفساد محض أسنده الرجل الصالح إلى نفسه ، لأنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن العيب والذّان ؛ و(فأردنا) إفساد الرجل الصالح من حيث القتل ، وإنعام الله تعالى من حيث التبديل. و(فأراد) إنعامٌ محض أسنده إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا يفعل ربُّك إلاّ خيراً. (1)

فالحكم المستنبط من هذا : هو بيان العقيدة في ضوء الإرادة ؛ والمقصود بالعقيدة الجوانب التي تتطرّق إلى صفات الله تعالى (صفات ذاته ، وصفات أفعاله) ، فصفات أفعاله تقبل النقيض (يُحيي ويُميت ، يرفع ويخفض ، يبسط ويقبض) ، أما صفات الذات فلا تقبل النقيض مثل: (هو الحي الذي لا يموت) .

والإرادة هي طلب الشيء أو شوق الفاعل إلى الفعل ، فإذا فعله كفَّ الشوق وحصل المراد، ويشترط في الفاعل : معرفة الأسباب المؤدية إلى الغرض ، والأسباب الصادرة عنه ، والإقبال أو الإحجام .

---

(1) أبو يحيى زكريا الأنصاري : فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن . ص :347 . تحقيق : الشيخ محمد علي الصابوني . الطبعة الثانية : 1408هـ / 1988 م . مكتبة رحاب . الجزائر العاصمة . الجزائر .

يمرُّ الفعل الإرادي بالمراحل الآتية: التصوُّر، الحوار والمناقشة ، إصدار الحكم (إقدام وإحجام) ، التنفيذ : يُخرِجُ الفعل من التفكير إلى التنفيذ .

ففعل الله ليس فعل معالجة (1) وإرادة الله ليست إرادة معالجة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة :253] بل كلٌّ من الفعل والإرادة مطلقان. تعالى الله عمَّا يقولون علوّاً كبيراً.

وقال الله تعالى في سورة النور: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:31]، ذكر الطفل بلفظ المفرد ونعته بلفظ الجمع (الذين) ، مع أنَّ السياق يقتضي الجمع (أو الأطفال) ، وإذا تابعنا قراءة السورة نجد قوله تعالى :﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ [النور : 59] . فالبلاغة اقتضت أنَّ الإفراد دلَّ على الأصل الذي هو من خصائص الاسم التي تميِّزه عن الفعل والحرف حسب إجماع النحاة ؛ ودلَّ على غير معيَّن ، بل مرحلةً محدَّدَةً من مراحل عمر الإنسان ، أمَّا جمعها في الآية [59] ، فقد نصَّ على أنَّ البلوغ عند الإنسان غير معيَّن بسنٍّ ، وهذا مسايرةً لما أودعه الله في الطبيعة من أسرار.

فلا شطَطَ إذا قلنا إنَّ هذه الموازنة أظهرت مرونة الشريعة الإسلامية ، وصلاحيتها لكلِّ زمان ومكان ؛ فحياتها من حياة الّذي لا يموت سبحانه وتعالى :﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى :52] .

فمن جهة نلحظ ثباتاً بقواعد لا تحيد ولا تميد ، ومن جهة أخرى نجد مرونةً حسب مقتضى أحوال الأمور ، وهذا ما نستنبطه من هذا كلِّه ، ونعنونه تحت القاعدة القرآنية : ﴿مَا لِهَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف : 49] .

وفي سورة النور أيضاً ورد في قوله تعالى :﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور :46] التفات عن التكلُّم بنون العظمة إلى إظهار الاسم الجليل في صورة الغائب .

فبلاغة هذا الالتفات هي ورود الفعل (أنزل) بصيغة الجمع الدّالة على تكرار الحث بقيُّومِيَة

---

(1) المقصود بـ (فعل معالجة) هو تقسيم الفعل إلى أجزاء محسوبة بأجزاء زمنية .

الله عـــزَّ وجلّ ، خاصة إذا تعلَّق الأمر بالآيات الكونية ، والتكلُّم هنا يدعو إلى مشاهدتها ؛ أمَّا إظهار الاسم الجليل مفرداً في صورة الغائب ، فلوِحْدَانِيَته سبحانـــه المطلقة بيده قلوب خلقـــه ، يهـــدي منها من يشاء ويضلُّ من يشاء ، وفعل الهداية خاصٌّ به وحده . والغيبة دلَّت على سبل الهداية الخفية الّتي لا يعلمها إلاَّ هو سبحانه وتعالى .

والحكم المستنبط منها هو : خلوص الدين لله لقوله تعالى : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر : 53] .

والعجـــيب في هذه السورة هو ورود لفظ الجلالة (الله) ثمانين مرَّةً دون ذكر الربوبية ؛ والعبرة في ذلـــك هـــي إرســـاء التكاليف والواجبات ، خاصة الأسرية منها ، مثلها في ذلك مثل سورة الحجرات الّتي تطرَّقت إلى العلاقات الاجتماعية بورود لفظ الجلالة (27) سبعاً وعشرين مرَّةً .

وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان : 74] قال (إمامـــاً) والسياق يقتضي (أئمة) ، قال الفخر الرازي " وقوله ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ الأقرب أنّهم سألوا الله تعالى أنْ يُلِّغهم في الطاعة الْمَبْلَغَ الّذي يُشارُ إليهم ويُقْتَدى بهم ، وقد قيل في الآية ما يدلُّ على أنَّ الرياسة في الدِّين يجب أنْ تُطلَبَ ويُرغَّب فيها .

قال الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء : 84] ، وقيل نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنّة. (1)

قال الفرّاء : " قال (إماماً) ولم يقل أئمة وهو واحد يجوز في الكلام أن تقول :أصحاب محمد أئمة الـــنّاس وإمـــام النّاس كما قال ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : 16] للاثنين ومعناه اجعلنا أئمة يُقتدى بنا ." (2)

وقـــال أبو حيان : " وأفرد ﴿إِمَاماً﴾ إما اكتفاء بالواحد عن الجمع ، وحُسْنُهُ كونه فاصلة ويدل على الجنس ولا لبس ، وأما لأن المعنى واجعل كل واحد ﴿إِمَاماً﴾ وإما أن يكون جمع آمّ كحال وحلال، وإما لاتحادهم واتفاق كلمتهم قالوا: واجعلنا إماماً واحد ادعوا الله أن يكونوا قدوة في

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب : 6 / 124 .

(3) معاني القرآن : 2 / 274 .

وإذا تفحّصْنا هذه الآية من جهة أخرى نجد القول الواحد يُضْمَنُ تطبيقه ، فإن تفرَّقَ إلى أقوال فلا طائلَ من ورائه ، ولا يُورَثُ منه إلاَّ الضغائن والتَّطَاحُن ، وهناك تنفكُّ عُرَى اللُّحمَةِ عُرْوَةً عُرْوَةً ، ثُمَّ يتفرَّق النّاس بعد ذلك أَيَادِيَ سَبَـأ .

إنَّ الشجرة جذعها واحد بأفنانٍ متعدِّدةٍ ، قد تحمل ثماراً طيِّبةً وأخرى نيِّئةً ؛ كذلك القول بأعماله وذنوبه .

وقد يجلبُ القولُ الْمَقْتَ إنْ بقيَ من غير فعلٍ قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2 ، 3] ، ونظير هذه الآية ما جاء في الآية التاسعة [09] من سورة النِّساء .

أمّا الحكم المستنبط من هذا الالتفات فهو عبارة عن قواعد قرآنية تتمثَّل في قوله تعالى :

- ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران :103]
- ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء :92]
- ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون :52]

والالتفات الوارد في سورة يس في قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الآية [21 ، 22] قد أسهبنا في استنباط أسراره البلاغية من أقوال علماء التفسير، وهَهُنا نُوجز ما استخلصناه من حكمٍ أخلاقي: وهو أن يكون الداعية قدوةً لغيره، وأن يَزْجُرَهُ على ترك المحظور قبل وقوعه .

والتقـريع من وجهة أخرى أَوْمَـأَ إلى أنَّ المعارضين دعوا المتكلِّمَ إلى عبادة ما يعبدون . وكلمة الفطرة دلَّت على ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : 172] ، كما أنَّ الفطرة ليست الخَلْقَ ، والدليل على ذلك قوله تعالـى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 30] ، فقـال (خَلْقِ الله) ولم يَقُلْ فطرة الله .

وخلاصة هذا القول أنَّ الفطرةَ تقتضي تعلُّقَها بأحكام الدِّين الثابتة ، ويدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ، والقيِّم ينتفي عنه الاعوجاج ، كما أنَّه مُقَوِّمٌ لغيره .

وورد الالتفات في أوَّل سورة الفتح في قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح : 01 ، 02] إذ انتقل من ضمير المتكلّم (فتحنا) وهو جمع ، إلى إظهار الاسم الجليل (ليغفرَ لك الله) وهو مفرد ؛ ونجد في هذه السورة لطائف جليلة منها ذِكْرُ لفظ الجلالة في تسعة وثلاثين موضعاً ، كما تكرَّرَ الضمير (هو) ثلاث مرات وخُلو السورة من لفظ (ربّ) .

فالفتح الّذي تَمَّ جاء بكلّ المقاييس الّتي تفوق مدارك النّاس ، وجاء أيضاً مَعْلَماً مُغَيِّراً لمجرى التاريخ ، وهذا يُعَدُّ محطّةً من المحطات الّتي مرَّت على البشرية ، لذَلِكَ استعملَ ضمير المتكلّم للجمع بنون العظمة ، للدلالة على انفراده ، الذي لا مثيلَ له .

أمَّا الالتفات إلى الغائب بإظهار الاسم الجليل (الله) فللدلالة على تكاليف الله الّتي أمرَ بها عبادَهُ أنْ يمتثلوا بها ، وأنْ يأتوها على الوجه الأكمل، في شكل أصول ثابتة بفروع متغيِّرة ، تساير مقتضيات كلّ عصر ؛ والحكم المستنبط هنا : الأمور بمقاصدها .(1)

وإذا انتقلنا إلى سورة الحجرات في قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات : 09] ، نجد الالتفات من المثنى (طائفتان) إلى الجمع (اقتتلوا) ، ولو جرى الكلام على نسقٍ واحد لكان : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلتا) .

ونرى أنَّ سبب التعبير بالجمع بعد التثنية راجع إلى انضواء جمع من الأفراد تحت كلّ طائفة ، وأكثر من ذلك فإنَّ الجمع متعلّقٌ بكلّ أفراد المجتمع وليس بالطائفتين وحدهما ، لأنَّ الضرر الذي يلحق الطائفتين سينجم عنه ضررٌ يلحقُ بِمَنْ لَمْ يكن ضمن الطائفتين .

والحكم الذي نستنبطه من هذا الالتفات هو أنَّ الشرع جاء للوقاية وليس للعلاج ، وهذا مصداقاً

---

(1) لقواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه : ص : 31 .

للقاعدة الأصولية التي تقول : " دَرْءُ المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح " (1). مصْدَاقاً للقاعدة القرآنية : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة : 208] ، وقوله تعالى : ﴿والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء : 128]

وفي سورة الذاريات ورد الالتفات في قوله تعالى : ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات : 10 – 14] حيث عدل عن الغيبة إلى الخطاب ، وفي هذا العدول دلالة على حكمٍ ثابت لا يتغيَّر . أمَّا (ذوقوا) وهو فعلُ أمرٍ دلَّ على استمرارية العذاب جزاءً لِمَا كانوا يقترفونه في الحياة الدنيا ، وفي مواجهتهم بالخطاب أثَرٌ بليغ في نفس المخاطب .

وما نستنبطه من هذا الالتفات ، هو أنَّ الله عزَّ وجلّ يرهِّب العصاة ، ويُرغِّب في الطاعات.

ونظيره في القرآن الكريم ، الآية الأولى من سورة النحل ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل : 01].

وفي سورة الذاريات نفسها ورد قوله تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات :20، 21] ، ولنا في هذا ضربان من القول :

القول الأوَّل : هو التلوين في الخطاب ، إذا اعتبرنا أنَّ الموقنين هم جماعة العلماء ، والضمير في (أنفسكم) يعود على النَّاس كافة .

القول الثاني : إذا أخذنا الآية ما قبل الأخيرة من سورة فصِّلت ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : 53] ،فنجد في هذه الآية الأخيرة حصول الانتقال من الخصوص (فئة العلماء المتأملين المتدبرين للآيات الكونية) ، إلى العموم المتمثِّل في النَّاس جميعهم .

---

(1) المرجع السابق . ص : 107 .

ولأنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه الإنسان ، وعلَّة ذلك أنَّ المظروف أَجَلُّ من الظرف ، وجعل للمظروف وسائل الاستبصار لمعرفة الظرف ، حتى قيل : أنَّ العالم الأكبر قد طُوِيَ في النفس البشرية .

ومن أحكام هاتين الآيتين القاعدة القرآنية الكبرى :﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : 20] .

وهناك نكتة لطيفة تتمثّل في أنَّ الفعل (قُتِلَ) جاء بمعنى الدعاء ، ويُعلِّله قوله تعالى:﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس :17] ، فالداعي هو الله عزّ وجلّ والاستجابة حاصلة لا محالة .

أمـا سورة الرحمن فقد ورد فيها الالتفات في قوله تعالى :﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : 33] ، إذ خاطب الثقلين (الجنّ والإنس) قبل هذه الآية ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 32] ثُمَّ جمع الخطاب ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا ﴾ ، وهذا التلوين في الخطاب حمل التفاتاً بديعاً رصيناً كرصانة النسق القرآني الّذي لا تنفكُّ جوانبه ولا تنقضي عجائبه ، لِيُبيِّنَ عند عتبات التأمُّل الأولى استغراقاً تامّاً لا يقبل الاستثناء ألبتَّة تحت أيّة طائلة إلاّ استثناء العلم الّذي أقرَّه الله سبحانه وتعالى لعباده ومخلوقاته .

هـذا الاستغراق في العجز يُدلُّنا على طلاقة القدرة الّتي هي غنيَّةٌ عن عَجْزِنا وحَرْدِنا ، وعلى السَّمت التربوي الّذي ليس لنا في التخلّي عنه من بدٍّ ؛ فقد ذهب بعض العلماء مذهباً بيَّنَ أنَّ كلمة (معشر) اسمٌ جمعي كالقوم والنّاس ونحو ذلك ، فاقتضت الجمع (استطعتم) ، وهذا الطّرح لا لبس فيه ولا نافلة قول ، ولكنَّ المقام يفرض علينا التعامل مع النَّص القرآني من حيث هو وحيٌ مُنزَّلٌ من ربِّ العزَّة ومفصَّلٌ من لَدُن حكيم خبير ، تعاملاً ينأى عن ضيق الحدود إلى سبيل الغفور الودود ، وأنْ نجزم على أنَّ كلَّ كلمة في مكانها المطابق لها ، فهو كتابٌ حكيم أنزله ربٌّ حكيم على رسولٍ حكيم .

وما يدفعنا إلى قولنا هذا هو حصر هذه الآية [33] بين لازمتين من لوازم سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فالقاعدة البيانية المستخلصة هي : شمولية التحدّي للثقلين كليهما، وشمولية عجزهما دونما استثناء ، والاستثناء من قيُّوميته تعالى حتّى تنتفي عن هذا كلّه عبادة الأسباب ، وحصرها في جندية الله يُصَرِّفُهَا كيفما شاء ، فبيده الأمر كلُّه ، والحمد لله من قبل ومن بعد .

وإذا انتقلنا إلى سورة المجادلة في قوله تعالى :﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : 21] نجد الالتفات عن الاسم الجليل (الله) إلى التكلُّم (لأغلبنَّ أنا ورُسُلي) ، وأكّدَه بضمير الفصل (أنا)

فإنَّ كلمة كَتَبَ وردت بمعنى فَرَضَ وأوجَبَ وقضى ، وذلك على ذاته المقدَّسة ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : 56] ، فلفظ (الرسل) عام لا يقتصر على أصحاب الرسالات والصحف ، فالطير الأبابيل والرياح وغيرهما هي رسل أيضاً ، وسند ذلك البناءُ الصَّرفيُّ للرّسل (مع تكسير) .

فالغلبة كُتِبَتْ في اللّوح المحفوظ ، لا تبديل للأمر ، لذلك جاء فعل الغلبة مضارعاً وجواباً لقسمٍ، ومُؤَكَّداً بالنون ، وبالتوكيد اللّفظي (أنَا) ، دَرْءاً للشَّك ، وجَلْباً لليقين ، وأنَّ العاقبة للمتّقين .

ومن أحكام هذا الالتفات قوله تعالى :﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء :81]

وقوله تعالى :﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد : 17] ، بمعنى أنَّه لا بقاء للباطل ، والحقّ ظاهر إلى يوم القيامة لا محالة .

ومن لطائف سورة المجادلة أنَّ لفظ الجلالة (الله) ذُكِرَ في كلِّ آياتها ، كما أنَّ لفظ (أغلبنَّ) دلَّ على صراع بين طرفين على الأقلّ ، أي قوتين متساويتين في المقدار، مختلفتين في الاتجاه ، كما أنَّ هذا الفعل جاء لازماً في حين أنَّه يقتضي مفعولاً يقع عليه فعل الغلبة ؛ والسبب في ذلك هو أنَّ قوة الله لا تقابلها قوة ، فقدرته سبحانه وتعالى مطلقة ، وفي هذا المقام يصير ذِكرُ المفعول إلحاداً في أسمائه تعالى .

وتضمَّنت سورة عبس التفاتاً بديعاً تتفرَّع عنه أحكامٌ فقهية لطيفة ، ففي قوله تعالى :﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس:01 - 04] .

فهـذا التوجيه القرآني بشأن حادث ابن أم مكتوم رضي الله عنه ، نزل في وقته المناسب تماماً ، لم يتأخَّـر عـنه ولم يتقدّمه ، حيث تتدخَّل السماء لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر ، ولِتَضَعَ معالم الطريق كلّه .

فإنَّ هذا التوجيه الّذي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم تعقيباً على حادث فردي ورد هكذا على طريقة القرآن الإلهية في اتخاذ الحادث الفردي والمناسبة المحدودة ، فرصةً لتقرير الحقيقة المطلقة ، والمـنهج المطرد ، بهدف أنْ يستمدَّ النّاس قيمهم وموازينهم من السماء ، طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كلّه .(1)

فـالملاحظ أنَّ العبارة مُحيطٌ بها المعنى البلاغي ، فلم يقل : عَبَسْتَ وتولّيْتَ ، وإنّما جاء بضمير الغائـب ، وذلـك حتى لا يعرضه إلى ضمير المواجهة في (عبس وتولى) ، وحتى يفهم منها أنّه يعرض فيها منواله عليه الصلاة والسلام للدعوة " كأنّه يقول: يا أمّة محمد انظروا إلى الرسول ، كان يَغار على الدعوة ، فكيف عبس وتولى أن جاءه الأعمى ؟ ، وما هو الطريق السهل الموصل إلى آخره ؟ ، ومَنْ يريد أن يتخذ الطريق الصعب؟.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ ، والتصـدّي هنا يحتاج إلى قوّة مقاومة ؛ فالحقُّ سبحانه وتعالى تلطَّفَ على الرسول صلى الله عليه وسلم تلطُّفاً حتى في أسلوب الخطاب في السورة ، ثُمَّ عَقِبَ بَعْدَ القصَّةِ الحُكْمُ المُبِيِّنُ رأيَ السماء في هذا التصرّف ، الّتي أعلنت المبدأ الّذي يكون عليه الإسلام ، وهو مبدأ الدعوة ، ثُمَّ بيَّتْ حيثيات ذلك المنهج." (2)

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: 05] هكذا قال الحقُّ سبحانه وتعالى لنبيِّه وصفيِّه، ولَما انقطع الوحي برهة من الزَّمن ، بعدما انساب فيه وألِفَهَ ، اهتمَّ واغتمَّ ، ثُـمَّ نزلت سورة الضحى فكبَّر

---

(1) انظر السيّد قطب :في ظلال القرآن : 30 / 3822 - 3834 .

(2) عن محمد متولي الشعراوي : المختار من تفسير القرآن الكريم :1 / 95 - بتصرف - ط .1407 هـ / 1987 م . دار الشهاب .

النّبيّ صلى الله عليه وسلم فرحاً ، وراح يدعو النّاس إلى الإيمان لِيَذُوقُوهُ ويَلِجُوا النّور الّذي أتى به من النّور الّذي عَمَّ السماوات والأرض بكلّ ما أوتي من قوّة ، لا يألو في سبيل رسالته جهداً ، ولا يَمنعه مانعٌ ، ومن فرط حبّه لله ولرسالته حمَّل نفسه مشقّةً ، إذْ ذهب مخاطباً وداعياً صناديد قريش الذين هم عِليّة القوم وذؤابة العرب ، دعاهم إلى السلم ظنّاً منه صلى الله عليه وسلم أنّهم إذا أسلموا فسوف يُسلِمُ النّاس كلّهم ، وينخرطون بأزواجهم وذريّاتهم وعبيدهم ومواليهم في هذا الدين ، فجاءه وهو منشغلٌ في دعوتهم إلى الإيمان رَجُلٌ أعمى عاشقٌ لِما جاء به من تعاليم ونواميس ، يُريد أن يتعلّم ويذوب في الإسلام ذوباناً ، لِيُبَدِّلَ البصيرة بفقدان البصر ، وليكون حدثه بضعف مركزه حدثاً يُتلى قرآناً إلى يوم القيامة .

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ، بلاغة لا تضاهيها بلاغة ، وإِجْمَالٌ لا يحتاج إلى تفصيل ، وإيجازٌ لا يُفَسِّرُهُ إطناب ؛ فالالتفات هنا ذو وجهين : من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الماضي إلى المضارع .

الوجه الأوّل : من الغيبة (عبس) إلى الخطاب (يدريك) ، نشعر خلال هذه السورة كلّها بعتاب فاق كلّ مدارك التصورات ، ونلمس عند العتبات الأولى للفكر البشري حُبّاً متدفّقاً ، وإشفاقاً غير متناه ؛ فاللوم لَوْمَان ؛ لومٌ لك ، ولومٌ عليك ، فالأوّل إشفاقٌ ، والثاني تقريعٌ وتوبيخٌ ؛ فالله سبحانه وتعالى أمر نبيَّه بتبليغ رسالته ؛ أن يؤمنوا بالله وحده ، ولا يُشركوا به شيئاً ، وما طالَبَهُ قَطُّ بعددٍ مُعيَّنٍ من المؤمنين كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " لأَنْ يَهدِيَ الله بك رجلاً واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم ".(1)

ومن إفراط حبِّ النّبيّ لله تعالى والإخلاص له حمَّلَ نفسه صلى الله عليه وسلم اجتهاداً مُضنياً وعِقَاباً كَؤُودَةً ، لَمّا توجَّهَ إلى سادة قريش يدعوهم إلى الإيمان ، فرجل القول ليس كرجل العمل ، وليس كرجل الجهاد ؛ والأبْصَرُ والأحْكَمُ هو الّذي يبذُلُ اليسير من الجهد لِيربَحَ نتائج عظاماً ، ومحاصيل جساماً .

---

(1)رواه البخاري :3 / 1096 ، 1357 ، و 4 / 1542 .تحقيق د.مصطفى ديب البغا .الطبعة الثالثة .دار ابن كثير .اليمامة .بيروت .لبنان .

وفي (عبس وتولى) تجريد ، فكأنّما الله عزّ وجلّ دافع عن نبيّه دفاعاً عظيماً ، إذْ دافع عن المؤمنين عامّة ، والنّبيّ سيّد المؤمنين ، فحاصر العُبوس والتولّي وجرّدهما، وهو سبحانه وتعالى مُشْفِقٌ عليه، فالرسالة حملها يَنُوءُ بالعُصْبَة أولي القوّة، بل بالنّاس جميعاً، بل وبالسماوات والأرض فالإكراه على الإيمان غير وارد ، والسيطرة على النّاس منتفية ، قال الله تعالى :﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : 99] .

الوجه الثاني : من الماضي (عبس وتولى) إلى الحاضر (يدريك) ، فالفعل الماضي بأنواعه المعروفة عند علماء الصّرف ، فِعْلٌ يقيني على العموم ، إذْ لا تبديل لِمَا مضى ، فالإنسان لا يمتلك من وقته إلاّ الحاضر ، فالماضي مُدَّخرٌ في كتاب ، والمستقبل في علم الغيب عند الله سبحانه وتعالى. ففي زمن التكلّم يستطيع المرء أنْ يُوجّهَ طاقته ، ويُنجزَ عمله ، ففيه يمارس حرّيته وإرادته عبر تدفّقِ هذا التيار الزمني ، لِيُغيِّرَ ما يُغيِّرُ ، ويواصل ما يواصل ، وما كانت السوانح إلاّ لِتُغْتَنَمَ .

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه :" اغتنم خمساً قبل خمسٍ : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناءك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك." هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرِجَاه. (1)

فالالتفات يُرينا هذا الانتقال اللّين السلس دونما فَصْمٍ ، ولا قصمٍ لِنستشعر السعةَ الّتي أتى بها هذا الدِّين ، من غير يأسٍ يائسٍ ، ولا طموحِ آملٍ ، في قسطٍ مُقسطٍ، وعدل معتدلٍ.

فـ (عبس وتولى) حدثهما حصل في لأواءٍ ، حملهما النّبيّ ؛ و (وما يدريك) محا الله عن نبيّه هذه المشقّة ، حبّاً له ، لأنّ الأمانة في ختامها ، والختام يقتضي خلاصةً جامعةً لِمَا سَبَقَ من الرسالات يحملها بأمرِ الحقّ خيرُ الخلق صلى الله عليه وسلم ، مبلّغاً وهادياً إلى الله بإذنه سبحانه وتعالى . فالأمر عظيمٌ ، والهادي مُبرّأٌ من كلّ عيبٍ ، ولا بُدَّ أن يقفَ أمام الكون صافياً صفاء الماء الزُلال ، نَقيّاً نقاوة الغيث السيّال كما قال حسان بن ثابت :

خُلِقْتَ مُبَرَّءاً من كلّ عيبٍ كأنّكَ قدْ خُلِقْتَ كما تَشَاءُ (2)

---

(1) أخرجه النيسابوري في : المستدرك على الصحيحين :4 / 341 .تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا .الطبعة الأولى 1411 هـ / 1990 م – دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .

(2) الديوان : ص: 10 . طبعة : 1386 / 1966 م – دار بيروت – لبنان .

فالعبوس والتولّي من وجهٍ آخر يدلاّن على بشرية النّبيّ صلى الله عليه وسلم ، لِيُوقِنَ النّاسُ أنّ التكاليف الّتي أتى بها ، هي وحيٌ من عند الله تعالى ، مستَطاعٌ القيام بها ، لذا فالاستحالة منتفيةٌ ، حتى لا يقول قائلٌ إنّ هذه التكاليف والطاعات بل العبادة كلّها ، موجهةٌ لغير البشر ، للملائكة مثلاً ، فالقدوة موجودة ، والاستطاعة كامنة ، والاحتكاك بينهما يُولِدُ أمّةً تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمنُ بالله تعالى ؛ فبشريته كمالٌ وأسوةٌ حسنةٌ لِمَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر .

فَـإِنْ تُفِقِ الأَنَامَ وأنتَ مِنْهُم فإنّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ (1)

وسبب التعبير بالفعل المضارع (يدريك) بدل الماضي (أدراك) أنّ الفعل (أدراك) فيه دلالة على تَحقُّقِ وقوع الإدراك ، أما الفعل (يدريك) فالإدراك فيه لا يتحقّق ، لأنّ القلوب بأصابع الرحمن بها الهداية والغواية (الضلال) ؛ ويُقوّي هذا المعنى قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ [الأحزاب :63] ، فعبَّرَ بـ (يدريك) لعلّة جهل الإنسان بقيام الساعة ، وهذا خلاف لما جاء في أول سورة القارعة والحاقة والطارق ، وأواخر الانفطار والمرسلات والبلد والقدر والهمزة .

فالحكم المستنبط من هذا الالتفات : " المشقّة تجلب التيسير (2)

وما يدعّم ذلك من آيات قرآنية قوله تعالى :

- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : 185] .
- ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة : 286].
- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء : 28] .
- ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة : 06].
- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : 78].

---

(1) شرح ديوان المتنبي :2 / 737 .

(2) القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه : ص : 80 .

وفي صحيح البخاري (ت 256هـ) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّ الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة ." (1)

أمَّا ما تضمَّنته سورة الكوثر من أحكام فهو عجيبٌ ، وكنَّا قد بيَّنا سابقاً أسرار الالتفات فيها؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر : 01 ، 02].

إذْ تُسَمَّى هذه السورة سورة النحر ، وهي أقصر سورة في القرآن الكريم من حيث حروفها وكلماتها ، ولكنَّها ضمّنت دُرّاً كريماً ، يُبْهِرُ العقولَ تارةً ، ويَسُرُّ النفوسَ تارةً أخرى .

جاءت مقابلةً للّتي قبلها ، لأنَّ سورة الماعون السابقة لها وصَفَ الله تعالى فيه المنافق بأربعة أمور : البخل وترك الصلاة ، والرياء ومنع الزكاة ، فذكر الله عزَّ وجلَّ في سورة الكوثر الإعطاء وهو يُقابل البخلَ (إنَّا أعطيناكَ) الكوثر ، أي الخير، وفي مقابلة ترك الصلاة هناك قال هنا: (فصَلِّ) ، أي دُمْ على الصلاة ، وفي مقابلة الرياء ، قال : (لِرَبِّك) أي لرضاه لا للنّاس، وفي مقابل الماعون ، قال: (وانحر) ، وأراد به سبحانه وتعالى التصدُّق بِلُحُومِ الأضاحي .

كما أنَّ هذه السورة اشتملت على بشارة النّبيّ صلى الله عليه وسلم بأنَّه أُعْطِيّ الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، وأُمِرَ بأنْ يشكرَ الله تعالى على ذلك ، بالإقبال على العبادة ، وأنَّ ذلك هو الكمال الحقّ ، لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة ، وهم مغضوب عليهم من الله تعالى ، لأنَّهم أبغضُوا رسوله الكريم ، وغَضَبُ الله بترٌ لهم إذا كانوا بمحل السُّخط من الله ، وأنَّ انقطاع الولد الذكر ، فليس بتراً ، لأنَّ ذلك لا أثر له في كمال الإنسان (2).

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ كلام مسوقٌ مساق البشارة ، وإنشاء العطاء ، لا مساق الإخبار بعطاءٍ سابقٍ ، وضمير العظمة (النون) مُشعِرٌ بالامتنان بعطاءٍ عظيمٍ .

---

(1) صحيح البخاري : 1 / 23 .

(2) انظر التحرير والتنوير : 30 / 577 .

والّـذي يُقيِّضـنا هو الالتفات من جمع المتكلّم (أعطيناك) إلى المفرد الغائب (ربّك) ، ففعل الإعطـاء لـيس كفعل الإيتاء ، إذْ أنَّ الإعطاء خاصٌّ ، وإشارة الآية إلى أنَّ ذلك إيتاء على جهة التملـيك ، قال الله تعالى : ﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بعد قوله على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص : 39 و 35] إنَّ المُعْطَـى وإن كـان كثيراً في نفسه ، قليلٌ بالنسبة إلى شأنه صلى الله عليه وسلّم ، بناءً على أنَّ الإيتاء لا يستعمل إلى في الشيء العظيم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقـرة : 258] و ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبـأ : 10] و ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجـر : 87] ، فالإيتاء في آية الحجر للنبيّ ولأمته ، أمَّا إعطاء الكوثر فله وحده صلى الله عليه وسلّم . فالمقـام يقول أنَّ الإعطاء للنبيّ صلى الله عليه وسلّم ، والّذي تجريه الربوبية ، يُؤَسِّسُ معانيَ يستشفُّها المؤمن الصادق ، أنَّ مقابل المِنَّة شكرٌ ، ومقابلَ النعمة حمدٌ لضمان بقائهما ؛ وهذا مُـؤدَّاهُ إلى اسـتنباط مـا يأتـي : ميزان الإسلام أن يُعْطِيَ المَرْءَ من الحقوق مثلَ ما عليه من الواجـبات (1) ، فحـقُّ الـنبيِّ على ربِّه الإحاطة الشاملة، وواجبه عبادة الله تعالى في حدودها الكاملة.

ونختـتم هذا الفصل بما نراه التفاتاً جديداً ولطيفاً ورد في القرآن الكريم ، ويتمثل فيما جاء في سورة فصِّلت في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصّلت : 20 ، 21] إذ أفرد السمع وجمع الأبصار والجلود ، والسياق يقتضي قوله (شهد عليهم سمعهم وبصرهم وجلدهم) ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لماذا خَصَّ الجلودَ بالمساءلة دون السـمع والأبصـار في قوله : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ وكان يُفترض أن يقول (وقالوا لسمعهم وأبصارهم وجلودهم لِمَ شهدتم علينا) ؟ ، ولعلَّ في جمع الفعل (شهدتم) عـودة

---

(1) القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه : ص : 311 .

على السمع والأبصار أيضاً وليس الجلود وحدها ، وإلاّ كان الفعل (شهدتم) يأتي مفرداً (وقالوا لجلودهم لِمَ شَهِدتِ علينا) ؛ فما العلّة في تخصيص الجلود بالذكر دون السمع والأبصار .

وما يمكن الإشارة إليه هو أنَّ السمع في القرآن الكريم يُذكَرُ مفرداً بخلاف الجوارح الأخرى كما هو في الآيـــة ، والآية السابعة [07] من سورة البقرة ، وفي هذا الإفراد قال الفخر الرازي : " إنما جمع القلوب والأبصار ووحد السمع لوجوه: أحدها: أنه وحَّدَ السمع لأن لكل واحد منهم سمعاً واحداً، كما يقال: أتاني برأس الكبشين، يعني رأس كل واحد منهما، كما وَحَّدَ البطن في قوله: «كلوا في بعض بطنكم تعيشوا» يفعلون ذلك إذا أمنوا اللبس، فإذا لم يؤمن كقولك . فرشهم وثوبهم وأنت تريد الجمع رفضوه .

الثاني: أن السمع مصدر في أصله ، والمصادر لا تجمع يقال: رجلان صوم، ورجال صوم، فروعي الأصل، يدل على ذلك جمع الأذن في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: 05] .

الثالث: أن نُقدِّر مضافاً محذوفاً أي : وعلى حواس سمعهم. الرابع قال سيبويه: إنه وحد لفظ السمع إلا أنـــه ذكر ما قبلة وما بعده بلفظ الجمع، وذلك يدل على أن المراد منه الجمع أيضاً، قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة : 257] ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشَّمَآئِلِ﴾ [المعارج :37] "(1) .

وقـــال أبـــو حـــيان : " وقـــرأ ابن أبي عبلة : أسماعهم ، فطابق في الجمع بين القلوب والأسماع والأبصـــار. وأما الجمهور فقرؤوا على التوحيد، إما لكونه مصدراً في الأصل فلمح فيه الأصل، وإمـــا اكـــتفاء بالمفرد عن الجمع لأن ما قبله وما بعده يدل على أنه أريد به الجمع، وإما لكونه مصدراً حقيقة وحذف ما أضيف إليه لدلالة المعنى أي حواس سمعهم." (2)

ويُعتبرُ السمع الحاسّة الوحيدة الّتي لا يختلف حولها النّاس ، حيث أنَّ الإنسان لا يستطيع التحكُّم فـــيها ، بخلاف البصر إذ نستطيع غضّه ؛ كما أنَّ السمع هو الحاسّة الأولى الّتي تعمل في الإنسان بعد ولادته مباشرةً ، وهي أوَّل حاسة يفقدها عند احتضاره بخلاف حاسّة البصر الّتي هي آخـــر

---

(1) مفاتيح الغيب :2 / 291 .

(2) البحر المحيط : 1 / 81 .

حاسّـــة تنبـــئ عن فقده للحياة تماماً . ولأنَّ مسار الإنسان في حياته بدءاً بخلقه حتّى موته تقتضي النقيض ، فالْخَلْقُ تَمَّ بمراحل هي البداية بالتراب ثُمَّ الحمأ المسنون ، فالصلصال ، ثُمَّ نفخ الروح ، ونقيض ذلك خروج الروح ثُمَّ انحلال الجسد ، وهذه العملية تجسَّدت في عملية البناء ، تبدأ من الأرض (من أسفل) وفي الهدم تبدأ من أعلى . والمخلوقات الحيّة بمجرد أن تفقد السمع تُصبح في حالة نوم أو موت لذلك قال الله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف : 11].

ولأهمية السمع قدَّمه على بقية الحواس ، وقد أشار إلى ذلك الطاهر بن عاشور مُستفيداً ممَّا قاله سابقوه إذْ قال : " وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصـــاحبه من البصر فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع." (1)

ومـــا يهمَّنا هنا ليس إفراد السمع ، وإنّما اهتمامنا يكمن في تخصيص الجلود بالذكر دون السمع والأبصار، ونراه التفاتاً جديداً لَمْ يُطْرَق سابقاً ، ونعتبره التفاتاً ضِمْنياً .

إنَّ الحواس تشهدُ على الإنسان يوم القيامة ، يوم يَطْلُبُ من ربِّ العزَّة أنْ يكون الشاهد مِنْ نفسه لا مـــن غـــيره فيختم على فيهِ ؛ فينطق السمع والأبصار والجلود (اللَّمس) شاهدين عليه ، ثُمَّ يلتف بالخطاب إلى الجلد دون السّمع والبصر لِمَ شهدتم علينا ؟ ؛ وهذا الالتفات الوارد في الآية لبـــيان مكانـــة الجلد في استجماع كلِّ الذنوب والآثام ، إذا اعتبرنا الجلدَ هو الفَرْجُ وهذا على مذهب ابن عباس رضي الله عنهما ، فقد قال الفخر الرازي : " نُقِلَ عن ابن عباس أنَّه قال: المراد مـــن شهادة الجلود شهادة االفروج ،قال وهذا من باب الكنايات كما قال: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ [البقـــرة: 235] وأراد النكاح ، وقال: ﴿ أَوْ جَاءَ مِنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ [النساء: 43] والمراد قضاء الحاجة وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه» وعلى هذا

---

(1) التحرير والتنوير : 1 / 258 .

التقدير فتكون هذه الآية وعيداً شديداً في الإتيان بالزنا، لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالكف، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ." (1)

ولا يعني هذا أنَّ ذِكْرَ الجُلودِ في القرآن الكريم يعني الفروج دائماً فقد قال الله تعالى :﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾[النساء : 56] .

فالاختصاص بمساءلة الجلود (الفروج) لخطورة الزِنَا وما يترتَّب عن هذه الجريمة من وبالِ الأدواء ، وخللٍ في الأنساب وضياع الأصالة والمروءة ، وما يترتَّب عن ذلك من المفاسد ، و ما جاءت الشريعة إلاّ لِمَقاصِدَ خمسٍ والنَّسل من بينها .

والقاعدة الفقهية الّتي نستنبطها من هذا كلّه هي : " الأصل في الأبضاعِ الْحُرْمَةُ "(2) ، وهذا أفضل قولٍ في سبب مساءلة الجلود دون السمع الأبصار ، إذا اعتبرنا عودة الضمير (هم) في (شَهِدْتُمْ) على الجلود وحدها .

وقد شرح الدكتور محمد بكر إسماعيل هذه القاعدة بقوله : " ومفهوم القاعدة : أنَّ الأساس الّذي يرجع إليه الفقيه في شأن الفروج هو الاحتياط ، فإنَّ الشأن فيها أنْ تُصانَ عن كلِّ ما يُؤَدِّي إلى شبهة تلحق بالعرض عاراً ، أو تحلّ قريباً من ساحته .(3)

---

(1) مفاتيح الغيب : 27 / 562 .

(2) القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه : ص : 342 .

(3) المرجع نفسه . ص : 342 .

الخاتمة

نتائج البحث

الخاتمة

وفي الأخير ها نحن نختم هذا البحث ، بعد أن تأمَّلنا صوراً من أسلوب الالتفات في القرآن الكـــريم ، وفتَّشنا في كتب القدامى من أرباب البلاغة وعلماء اللّغة ومدونات التفسير ، إذ بذلوا جهـــوداً معتبرةً في تأصيل هذا الفن البديعي ، فوجدناهم جَميعاً ينطلقون من مصدر واحدٍ وهو القرآن الكريم ، محاولين تقصِّي أسرار الالتفات ولطائفه ، وخلصنا إلى ما يلي :

إنَّ القـــرآن الكريم دقيق في اختيار ألفاظه وصوغ أسلوب ، فتراكيبه تذهل العقول ، وتسحر النفوس ، فما ينطق عن الهوى .

وما هذا الأسلوب إلاَّ غيضٌ من فيضٍ ، إذ جعل أرباب البلاغة يتعجَّبون في أسراره ، ويلتبس عليهم الأمر ، إلى حدِّ التسليم بقول (والله أعلم) .

ولقـــد رأيـــنا كيف كان الطريق شاقاً في الوصول إلى مفهوم واحدٍ لأسلوب الالتفات ، وكيف اختلفوا حول تحديد المصطلح ، فمنهم مَنْ لم يسمه باسمه كسيبويه وأبي عبيدة والفرَّاء وابن جنِّي ، مع أنَّهم وقفوا على أسراره ولطائفه ، ومنهم مَنْ أطلق عليه اسم الاعتراض كقدامة بن جعفر ، كمـــا أطلقوا عليه اسم الاستدراك ، بالرغم من أنَّ الأصمعي حدَّد اسمه من قبلُ ؛ ثُمَّ استقرَّت التســـمية يوم جاء ابن المعتّز ، وألَّفَ كتابه المعروف بـــ (البديع) ، وتبعه في ذلك مَن جاء بعده من أهل البلاغة ، كابن الأثير في المثل السائر ، والسكّاكي في مفتاح العلوم ، اللذين أحدثا ضجَّة كـــبيرة في علم البلاغة ، ويرجع لهما الفضل الكبير في إرساء علوم البلاغة ، والّتي منها أسلوب الالـــتفات ؛ وصـــار بعد ذلك للالتفات مفهومان حسب شروطه ، فكلُّ التفات عند الجمهور هو التفات عند السكّاكي دون عكس .

فكانت جهود هؤلاء العلماء مطيَّةً أساسية لعلماء التفسير بدايـــة بالزمخشري ، فالرازي ، إلى أن جاء أبو حيان الأندلسي الّذي وجدناه لا يترك موطناً للالتفات فـــي القرآن الكريم إلاَّ ووقف

عليه ، تارة يفصّلُ وتارةً أخرى يشير دون تفصيل ، وتبعه في ذلك أبو السعود والآلوسي والطاهر بن عاشور ، إلا أنَّ الفرق بين هؤلاء المفسرين يكمن في تخريجاتهم لأسرار الالتفات ، فاتفقوا على صورٍ منه واختلفوا في أخرى .

وأهمُّ ما نستخلصه من تلك التخريجات لأسلوب الالتفات أنَّ القرآن الكريم يخاطب العقول، كما يخاطب القلوب ، كلٌّ حسب مقتضاه ، فخطابه للكافر ليس كخطابه للمؤمن ، والتفاته لأرباب الكفر ليس كالتفاته لعامة الكفار ، فالطغيان في الكفر يقتضي الردع والزجر ، والطعن في آيات الله يتطلّب التبكيت والسخط ، كما أنَّ خطاب الله عزَّ وجلَّ لأنبيائه ليس كخطابه لعامة النّاس من المسلمين ، فالأنبياء ذاقوا الأمرَّ من أقوامهم ليُبلّغوا رسالات ربِّهم ، فاستحقُّوا خطاب اللّين والرأفة ، وتشريفهم في العالمين ، حتى في مواطن العتاب كان الخطابُ خطابَ محبَّةٍ ورأفة ، بل وتوجيه ، لأنَّ الأنبياء هم قدوةُ النّاسِ ، فكان ذلك التوجيه بالعتاب لا يخصُّ النبيَّ بعينه ، بل هو لكلِّ مَن نَحَا ذلك النحو، باعتبار الأنبياء معصومين عن الخطأ .

وعليه فإنَّ لأسلوب الالتفات حركة في نفس السامع أو القارئ ، تبعث فيها نشاطاً ، وتدرأ عنها السآمة لتجدِّد حيويته ، وهذا ما قاله الزمخشري وغيره ، وعابه عليه ابن الأثير ، وفي كلٍّ الأحوال لا يختلفان ، لأنَّ ثَمَّةَ توافقاً في الغاية .

أما الجديد في الالتفات ، فيكمن في تلك الأطروحة الّتي رأيناها جديرة بالاهتمام والبحث ، وتتجلّى في إمكانية استثمار أسلوب الالتفات في استنباط الأحكام الفقهية والبيانية .

هذا إذا اعتبرنا أنَّ الاجتهاد حاصلٌ في كلِّ زمانٍ ومكان ، للدّلالة على مرونة الشريعة ووسطيّتها، فما قدّمناه غيض من فيض هذا الدِّين ، إقراراً بالقاعدة القرآنية الّتي تقول : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] .

إنَّ الالتفات الّذي قُلْنَا عنه : إنَّهُ بديعُ البديعِ ، وجهٌ من وجوه الفصاحة الّتي تميَّزتْ بها لغة الضاد عن غيرها ، فهذا حقلٌ غيرُ مدروسٍ بِمَا فيه الكفاية لهذا العصر ، لأنَّ معينه لا ينضب .

ونُشْدَانُنَا من هذا البحث الأخير هو دعوة المهتمين بالعلوم الشرعية إلى الالتفات إلى هذا الالتفات للتَّبحُّرِ واستنباط ما يُوافقُ مقتضيات الأحوال ، من فُتيَا وما قارب ذلك .

فلا غرْوَ ، إنَّ كتابَ اللهِ لا يَخْلَقُ بكثرةِ الرَدِّ ، ولا تنقضي عجائبه ، فَلْنَعُدَّ الالتفات واحداً منها ، قصد استثماره سَمْتاً يهدي إلى الحقِّ ، ويدفع التناقضات الّتي يتخبَّط فيها كثير من النَّاس ، وحتى المتديِّنون منهم .

إنَّ دعوتنا الضمنية إلى المجالس العلمية الّتي حملت على عاتقها أمانة البحث المنهجي (الأكاديمي) إلى رصدِ ما يكفي من وسائل ماديّة وذلك خدمة لكتاب الله ، لَتَرْجُوهَا بِإلْحافٍ أنْ تنظرَ في هذا وذاك ، باعتبار النّصيحة .

فهذا البحث المتواضع يرومُ مِنْ قرَّائه بعد تصحيحه واعتماده جوّاً من نقاشٍ حميمٍ بعيد عن الْمِرَاء، الّـذي لا يُسْـمِنُ ولا يُغـني من جوعٍ ، لِدَفْعِ النفوس إلى الأولويات من الأمور ، لا سفاسفها وتُرَّهاتها .

إنَّ عصرَ هذه الحياة بمظاهرها الجليَّة والمعقَّدة تذرُ العقل حيران لا يعرف يُمناه من يُسراه في بعض الأحـايين ، بعـد سردِ تساؤلاتٍ بقيت غير مشفوعةٍ بردودٍ لا سيما الّذي يريد اتِّقاء الشبهات لِيَسْتَبْرِأَ لدينه .

فالخطاب الديني يمرُّ بأزمة التبليغ ، لا يَمُرُّ تياره إلى سامعيه ، وما كان العددُ مقياساً للحقِّ قطُّ ، ولـن يكـون أبداً ، فالعبرة بالجوهر لا باللِّحاء ؛ فمُرادنا من هذا انتفاضٌ عن بعض هذا الرغام الْمُسدِّ للأفهام .

إنَّ النتائج الّتي توصّلنا إليها تبقى غيرَ كافية ، إلاّ إذا قُدِّمتْ للباحثين في الحقل القرآني ، حتى يُسْـتَنْبَطَ منها ما يُستَنْبَطُ للإجابة عن تساؤلاتِ هذا العصر ؛ فلو أخـذنا علـى سبيل المثال : رجلٌ صعد إلى القمر كيف يقضي صلاتَهُ ؟

ولا يفوتـــنا أن نُشيرَ إلى ما أدرجناه من أنواعٍ جديدة من الالتفات ، كالالتفات من المؤنَّث إلى المذكَّـــر ، ومنه إلى المؤنَّث ، وأيضاً الالتفات الضّمني المتمثّل في ذكر أمورٍ متعدِّدة ثُمَّ يلتفت إلى إحداها ويُخصِّصه بالاهتمام .

هـــذا هو كلامُ ربِّي عزّ وجلّ ، وهذا هو أسلوب الخطاب القرآنـــي ، ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف : 109] .

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان : 27] .

* * *

تراجم الأعلام

1 _ ابن أبي الإصبع : (595 _ 654 هـ / 1198 _ 1256 م)

عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني البغدادي البصري شاعر من العلماء بالأدب . مولده ووفاته بمصر وهو غير ابن أبي الإصبع أحمد بن محمد 255ه الذي ذكره ابن النديم في الفهرست و ياقوت في معجمه . له تصانيف منها (بديع القرآن / خ) ، (تحرير التحبير /خ) ، (الجواهر السوانح في سرائر القرائح /خ) .

2 - ابن الأثير الكاتب : (558 _ 638 هـ / 1163 _ 1260 م)

نصر الله بن محمد بن محمد الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين وزير من العلماء الكُتاب المترسلين ، ولد في جزيرة ابن عمر ، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه المؤرخ (علي) و المحدّث (المبارك) . واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وولي الوزارة للملك الأفضل بن صلاح الدين في دمشق . ولم تحمد سياسته . فخرج منها مستخفيا في صندوق مقفل ثم انتقل إلى خدمة الملك الظاهر غازي (صاحب حلب)سنة 607 ه . ولم تطل إقامته فيها و تحول إلى الموصل ، فكتب الإنشاء لصاحبها محمود بن عز الدين مسعود فبعثه رسولا في أواخر أيامه إلى الخليفة فمات ببغداد. كان قوي الحافظة من محفوظاته شعر أبي تمام و المتنبي و البحتري . من تآليفه : (المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر) ، (المعاني المخترعة) في صناعة الإنشاء (الوشي المرقوم في حل المنظوم) (الجامع الكبير) في صناعة المنظوم و المنثور ، (البرهان في علم البيان/خ) ،(ديوان رسائل / خ) .

3- ابن جني (327 _392 هـ / 938 _ 1002 م) :

عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح من أئمة الأدب و النحو ، وله شعر ، ولد بالموصل و توفي ببغداد عن نحو 65 عاما . و كان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي . و تصانيفه

كثيرة ، كان المتنبي يقول :" ابن جني أعرف بشعري مني " .من مؤلفاته (مَن نسب إلى أمه من الشعراء / خ) ، (المبهج) ، (في اشتقاق أسماء رجال الحماسة) ، (المحتسب / خ) ، (في شواذ القراءات) ، (سر الصناعة / خ)في اللغة ، (الخصائص) في اللغة ، (اللمع / خ) .

4- ابن رشيق القيرواني : (390_ 463 هـ / 1000 _ 1071 م)

الحسن بن رشيق القيرواني أبو علي أديب ، نَقَّاد ، باحث . كان أبوه من موالي الأزد ولد بالمسيلة (بالمغرب) و تعلم الصياغة ، ثم مال إلى الأدب و قال الشعر ، فرحل إلى القيروان سنة 406 هـ و مدح ملكها ، واشتهر فيها . وحدثت فتنة فانتقل إلى جزيرة صقلية ، أقام ب(مازر) (mazzara) .إحدى مدنها إلى أن توفي . من مؤلفاته (العمدة في صناعة الشعر و النقد) (أنموذج الزمان في شعراء القيروان) (قراضة الذهب)في النقد ، (الشذوذ في اللغة)، (ديوان شعره)، (ميزان العمل في تاريخ الدول)، (شرح موطأ مالك)، (الروضية الموشية في شعراء المهدية)، (تاريخ القيروان)، (المساوي) في السرقات الشعرية .

5- ابن السكّيت (186_ 224 هـ/ 802 _ 858 م) :

يعقوب ابن إسحاق أبو يوسف ابن السكّيت إمام اللغة و الأدب أصله من خوزستان بين البصرة و فارس ، تعلم ببغداد و اتصل بالمتوكل العباسي، فعهد إليه بتأديب أولاده و جعله في عداد ندمائه ثم قتله لسبب مجهول. قيل : سأله عن ابنيه المعتز و المؤيد أيهما أحب إليه أم الحسن والحسين فقال ابن السكّيت : والله إنَّ (قنبرا) خادم عليٍّ خيرٌ منك و من ابنيك فأمر الأتراك ، فداسوا بطنه أو سلوا لسانه و حمل إلى داره فمات ببغداد . من كتبه : (إصلاح المنطق) قال المبرد : ما رأيت للبغداديين كتابا أحسن منه . وله (الألفاظ) ، (الأضداد) ، (القلب والإبدال)، (شرح ديوان بن الورد) ، (شرح ديوان قيس بن الخطيم)، (الأجناس) ، (سرقات الشعراء)، (الحشرات)، (الأمثال)، (شرح شعر الأخطل)، (تفسير شعر أبي نواس) نحو 800

6_ ابن عاشور : (؟ – 1284 هـ / ؟ – 1868 م) :

محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور : نقيب أشراف تونس وكبير علمائها في عهد الباي محمد الصادق " باشا " . ولي القضاء سنة 1267 هـ ، ثمَّ الفتيا سنة 1277 هـ فنقابة (نقابة الأشراف) . وتوفي بتونس ، له كتب ، منها " شفاء القلب الجريح –ط " في شرح البردة ، و " هدية الأديب – ط "حاشية على القطر لابن هشام ، في النحو ، و" الغيث الإفريقي – خ " حاشية على عبد الحكيم على المطوّل ، غير تامة ، ومثلها " حاشية على المحلى على جمع الجوامع ، و" حاشية على ابن سعيد الأشموني " ، و" حاشية على شرح العصام لرسالة البيان " ، وأورد له النيقر (في عنوان الأريب) نظماً حسناً .

7 _ابن فارس : (329 _ 395 هـ / 941 _ 1004 م)

أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين من أئمة اللغة و الأدب . قرأ عليه البديع الهمذاني و الصاحب بن عباد و غيرهما من أعيان البيان . أصله من (قزوين) و أقام مدة في همذان ثم انتقل إلى (الري) فتوفي فيها و إليها نسبته . وله شعر حسن . من مؤلفاته (مقاييس اللغة) في 6 أجزاء ، (المجمل /خ) ، (الصاحبي) في علم العربية ، ألفه لخزانة الصاحب بن عباد. وله (جامع التأويل) في تفسير القرآن ،4 مجلدات ، (النيروز /خ) ، (الاتباع و المزاوجة) ، (الحماسة المحدثة) ، (الفصيح) ، (تمام الفصيح) ، (متخير الألفاظ) ، (فقه اللغة) ، (ذم الخطأ في الشعر) ، (اللامات /خ) ، (أوْجز السِير لخير البشر) في 8 صفحات ، (كتاب الثلاثة /خ) في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة .

8- ابن قتيبة الدينوري (213 _ 276 هـ/ 828 _ 889 م)

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أو محمد من أئمة الأدب ، ومن المصنفين المكثرين ، له تصانيف في الأدب و القرآن و الحديث و قد تحامل في بعضها على غير العرب . ولد ببغداد

سكن الكوفة ، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها توفي ببغداد . من كتبه (تأويل مختلف الحديث) ، (أدب الكاتب) (المعارف) ، (المعاني) في ثلاثة مجلدات ، (عيون الأخبار) ، (الشعر و الشعراء) (الإمامة و السياسة) و للعلماء نظر في نسبته إليه (الأشربة) ، (الرد على الشعوبية) ، (فضل العرب على العجم) .

9- ابن المعتز : (247 _ 296 هـ / 861 _ 909 م) :

عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي ، أبو العباس . الشاعر المبدع ، خليفة يوم و ليلة . ولد ببغداد ، و أولع بالأدب ، فكان يقصد فصحاء الأعراب و يأخذ عنهم . آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي ، و استصغره القواد فخلعوه و أقبلوا على المعتز فلقبوه (المرتضي بالله) و بايعوه بالخلافة . فأقام يوم و ليلة ، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه . وعاد المقتدر ، فقبض عليه و سلمه إلى خادم له اسمه مؤنس فخنقه يوم الخميس الثاني من ربيع الثاني 296 هـ . و للشعراء مراثٍ كثيرة فيه . و له ديوان شعر في جزأين . صنف كتبا منها : (البديع) (الآداب) (الجامع في الغناء) الجوارح والصيد)(فصول التمثيل) (حلى الأخبار) (أشعار الملوك) (طبقات الشعراء) .

10_ أبو حيان : (654 – 754 هـ) :

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني، النفْري، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها، بعد أن كف بصره. اشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه: " البحر المحيط ــ ط" في تفسير القرآن، ثماني مجلدات، و" النهر ــ ط" اختصر به "البحر المحيط"، و" مجاني العصر" في تراجم رجال عصره، ذكره ابن

حجـر في مقدمـة "الـدرر" وقال إنه نقل عنه، ولم يذكره في ترجمة أبي حيان، و" طبقات نحاة الأنـدلس" و" زهـو الملك في نحو الترك" و" الإدراك للسان الأتراك ـ ط" و" منطق الخرس في لسان الفرس" و" نور الغبش في لسان الحبش" و" تحفة الأريب ـ ط" في غريب القرآن، و" منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك ـ خ" و" التذييل والتكميل ـ خ" في شرح التسهيل لابن مالـك، نحـو، و" عقـد اللآلئ ـ خ" في القراءات، و" الحلل الحالية في أسانيد القرآن العالية" و"التقـريب ـ خ" بخطه، و" المبدع ـ خ" في التصريف، و" النضار" مجلد ضخم ترجم به نفسه وكـثيراً مـن أشياخه، و"ارتشاف الضَّرب من لسان العرب ـ ط" و" اللمحة البدرية في علم العربية ـ خ" وله شعر في " ديوان ـ خ" مرتب على الحروف.

11- أبو السعود : (898 – 982 هـ / 1493 – 1574 م)

محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولـد بقرب القسطنطينية، ودرس ودرّس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم إيلي. وأضيف إليه الإفتاء سنة 952 هـ. وكان حاضر الذهن سريع البديهة: كتب الجواب مراراً في يوم واحد على ألف رقعة باللغات العربية والفارسية والتركية، تبعاً لما يكتبه السائل. وهو صـاحب التفسير المعروف باسمه وقد سماه " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ ط" ومـن كتبه " تحفة الطلاب ـ خ" في المناظرة، و" رسالة في المسح على الخفين ـ خ" و" رسالة في مسـائل الوقـوف ـ خ" وأخرى في " تسجيل الأوقاف ـ خ" و" قصة هاروت وماروت ـ خ" وشـعره جـيد خلص كثير منه من ركاكة العجمة. وكان مهيباً حظياً عند السلطان، يؤخذ عليه الميل الزائد إلى أرباب الرئاسة ومداهنتهم. وهو مدفون في جوار مرقد أبي أيوب الأنصاري.

12- أبو عبيدة (110 _ 209 هـ / 728 _ 824 م)

معمـر المـثنى التيمي بالولاء ، البصري ، أبو عبيدة النحوي ، من أئمة العلم بالأدب و اللغة ، مولده ووفاته في البصرة . استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد عام 188ه . وقرأ عليه أشياء مـن

كتبه قال الجاحظ : لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه " . وكان إباضيا ، شعوبيا ، من حُفاظ الحديث قال ابن قتيبة " كان يبغض العرب و صنف في مثالبهم كُتُبا لم يحضر جنازته أحد لشدة نقده معاصريه . وكان مع سعة علمه ربما أنشد البيت فلم يستقم وزنه و يخطئ إذا قرأ القرآن نظرا . له نحو 200 مؤَلَف منها (نقائض جرير و الفرزدق) ، (المثالب) (ما تلحن فيه العامة) (المحاضرات و المحاورات / خ)(الخيل) (القبائل)، (الأمثال) .

13- الأخفش الأوسط : (؟ 215 هـ / ؟ 830 م)

سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ، ثم البصري أبو الحسن ، المعروف بالأخفش الأوسط، نحوي عالم باللغة و الأدب ، من أهل بلخ ، سكن البصرة ، ، أخذ العربية عن سيبويه . صنف كُتُبا منها : (تفسير معاني القرآن / خ) ، (شرح أبيات المعاني) ، (الاشتقاق) ، (معاني الشعر) ، (كتاب الملوك) (القوافي /خ). و زاد في العَروض بحر (الخبب) و كان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر ، فأصبحت ستة عشر .

14- أسامة بن منقذ (488 _ 584 هـ / 1095_ 1188م) :

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري ، أبو المظفر ، مؤيد الدول . أمير ، أديب ، شاعر من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة (شيزر) بقرب (حماة) من العلماء الشجعان له تصانيف في الأدب و التاريخ . ولد في شيزر و سكن دمشق و انتقل إلى مصر سنة 540هـ و قاد عدة حملات على الصليب في فلسطين ، وعاد إلى دمشق ، ثم برحها إلى حصن (كيفي) فأقام إلى أنْ ملك السلطان صلاح الدين دمشق ، فدعاه السلطان إليه فأجابه وقد تجاوز الثمانين فمات في دمشق . و كان مقربا من الملوك و السلاطين و في دائرة المعارف الإسلامية أنه في أثناء عودته من مصر إلى دمشق فَقَدَ مكتبته و كانت تربو على أربعة آلاف

مخطـــوط من مؤلفاته (لباب الآداب) (الاعتبار) (البديع / خ) ، (المنازل و الديار / خ) ، (النوم و الأحلام) ، (القلاع و الحصون) (أخبار النساء) (العصا) ، (ديوان شعر). ورقـــة ، (شـــرح شعر الأعشى) ، (شرح شعر زهير) ، (شرح شعر عمر بن أبي ربيعة)، (شرح المعلقات)، (غريب القرآن)، (النبات و الشجر) ، (الوحوش)، (معاني الشعر) .

15- الأصمعي : (122 _ 216 هـ / 740 _ 831 م) :

عبد الملك بن قريب بن علي بن أصيع الباهلي أبو سعيد الأصمعي ، راوية العرب ، و أحد أئمة العلم باللغة و الشعر و البلدان . نسبته إلى جده (أصمع) . مولده ووفاته في البصرة . كان كثير الـتطواف في الـبوادي يقتبس علومها ، ويتلقى أخبارها ، ويتحف الخلفاء فيُكافأ عليها بالعطايا الوافـرة .أخـباره كثيرة جدا و كان الرشيد يسميه (شيطان الشعر) . قال الأخفش : ما رأي أحـدا أعلـم بالشعر من الأصمعي) و قال أبو الطيب اللغوي :كان أتقن القوم للغة و أعلمهم بالشـعر و أحضرهم حفظا)و كان الأصمعي يقول : أحفظ عشرة آلاف أرجـوزة . تصانيفه كثيرة منـها (الإبل) (الأضداد) (خلـق الإنسان) (المترادف / خ) (الفرق) أيْ الفرق بـين أسمـاء الأعضاء للإنسان و الحيوان ، كتاب (الخيل)، (الشاء) (الدارات) (النبات و الشجر) .

16- الأعشى : (؟ _ 07 هـ / ؟ _ 628 م) :

مـيمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي أبو بصير ، المعروف بالأعشى قيس ، ويقال له أعشى بكر بن وائل الأعشى الكبير من شعراء الطبقة الأولى و أحد أصحاب المعلقات . كان كثير الوفود على الملوك من العرب و الفرس غزير الشعر يسلك فيه كل مسلك و ليس أحد ممن قبله أكثر شعرا منه و كان يغني بشعره فسمي صناجة العرب قال البغدادي " كان يفدُ على

الملوك و لاسيما ملوك فارس ، فكثرت الألفاظ الفارسية في شعره . عاش طويلا و أدرك الإسلام ولم يسلم . و لقب بالأعشى لضعف بصره و عَمِيَ في أواخر حياته . مولده و وفاته في قرية (منفوحة) باليمامة قرب مدينة الرياض و فيها داره و قبره .

17 - الآلوسي : (ت 1270 هـ) :

محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي ، شهاب الدين، أبو الثناء : مفسر، محدث ، أديب ، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهداً. تقلد الإفتاء ببلده سنة 1248 هـ. وعزل، فانقطع للعلم. ثم سافر (سنة 1262 هـ) إلى الموصل،فالآستانة، ومر بماردين وسيواس، فغاب 21 شهراً وأكرمه السلطان عبد المجيد. وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفي. من كتبه " روح المعاني ـ ط" في التفسير، و"نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول ـ ط" رحلته إلى الآستانة. و" نشوة المدام في العود إلى دار السلام ـ خ" و" غرائب الاغتراب ـ ط" ضمنه تراجم الذين لقيهم، وأبحاثاً ومناظرات، و" دقائق التفسير ـ خ" و" الخريدة الغيبية ـ ط" شرح به قصيدة لعبد الباقي الموصلي، و" كشف الطرّة عن الغرّة ـ ط" شرح به درة الغواص للحريري، و" مقامات الهمذاني ـ ط" في التصوف والأخلاق، عارض بها مقامات الزمخشري،و" الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية ـ ط" و"حاشية على شرح القطر ـ ط" في النحو، و" الرسالة اللاهورية ـ ط"، ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة "آلوس" في وسط نهر الفرات. على خمس مراحل من بغداد، فرّ إليها جد هذه الأسرة من وجه هولاكو التتري عندما دهم بغداد، فنسب إليها. ولصاحب الترجمة شعر لا بأس به، وإبداع في الإنشاء.

18-الثعالبي أبو منصور : (350_ 429 هـ / 661 _ 1038 م)

عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي من أئمة اللغة والأدب من أهل نيسابور كان فراءا يخيط جلود الثعالب فنُسِبَ إلى صناعته و اشتغل بالأدب و التاريخ فنبغ و صنف الكتب

الكثيرة الممتعة في الأدب و التاريخ والسياسة من كتبه : (يتيمة الدهر) في أربعة أجزاء ، (فقه اللغـــة) (ســـحر الـــبلاغة) و رسالة (من غاب عنه المطرب) ، (غرر أخبار ملوك الفرس) (لطائف المعارف) (ما جرى بين المتنبي و سيف الدولة) (طبقات الملوك) (الإعجاز والإيجاز) (خـــاص الخـــاص) (نثـــر النظم و حل العُقد) (مكارم الأخلاق) (ثمار القلوب في المضاف المنســـوب) (سر الأدب) ،(الكناية و التعريض)ويسمى النهاية في الكناية ، (المؤنس الوحيد) (التجنيس) (غرر البلاغة) (برد الأكباد) (المثال) واسمه (الفرائد و القلائد) .

19- ثعلب : (200 _ 291 هـ / 816 _909 م) :

أحمد بن يحي بن يزيد بن سيار الشيباني بالولاء أبو العباس المعروف بثعلب . إمام الكوفيين في النحو و اللغة ، كان راوية للشعر ، محدثا ، مشهورا بالحفظ و صدق اللهجة و ثقة الحجة ولد ومات في بغداد أصيب في أواخر عمره بالصمم ، فصدمته (فرس) فسقط في هوة فتوفي على الأثر . له (الفصيح) (قواعد الشعر) رسالة (شرح ديوان زهير) و (شرح ديوان الأعشى)، (مجالس ثعلب) ، (المجالس) ، (معاني القرآن) ، (ما تلحن فيه العامة) معاني الشعر) (الشواذ) . (إعراب القرآن).

20- الجاحظ (163 _255 هـ / 780 _ 869 م)

عمـــرو بـــن بحـــر بن محبوب الكناني الليثي أبو عثمان الجاحظ كبير أئمة الأدب و رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة مولده و وفاته في البصرة . فلج في آخر عمره و كان مشوه الخلقة و مات والكـــتاب على صدره ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه قال (دخلت على المتوكل لأعلم أولاده ، فلمـــا استحضـــرني استبشـــع منظري فأمر لي بعشرة آلاف دينار و صرفني) له عدة تصانيف (الحيوان) 4 مجلدات ، (البيان و التبيين) (سحر البيان /خ) ، (التبصّـــر بالتجارة)

(التاج / خ) ، (البخلاء) (المحاسن والأضداد) (مجموع رسائل) (ذم القواد) (تنبيه الملوك) (النبي و المتنبي) (مسائل القرآن) (الدلائل و الاعتبار في النظر في معرفة الصانع و إبطال مقالة أهل الطبائع) (فضيلة المعتزلة) .

21- الجرجاني عبد القاهر: (؟ _ 471 / ؟ _ 1078م)

عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني أبو بكر واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة من أهل جرجان (بين طبرستان و خراسان) له شعر رقيق من كتبه (أسرار البلاغة) (دلائل الإعجاز) (الجمل / خ)في النحو ، (التتمة) (المغني في شرح الإيضاح) في ثلاثين جزءا اختصره في شرح آخر سماه (المقتصد/ خ) (إعجاز القرآن)، (العمدة) في تصريف الأفعال و (العوامل المئة) .

22- جرير : (28 _ 110 هـ /648 _ 728 م)

جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي أبو حرزة من تميم أشعر أهل عصره ولد ومات في اليمامة و عاش عمره كله يناضل شعراء زمانه و يساجلهم فلم يثبت أمامه غير الفرزدق و الأخطل . كان عفيفا وهو أغزل الناس شعرا .

23- حسان بن ثابت (؟ _ 54 هـ / ؟ _ 673 م)

حسان بن ثابت بن المنذر الجزرجي الأنصاري أبو الوليد شاعر النبي و أحد المخضرمين عاش 60 سنة في الجاهلية و مثلها في الإسلام . وكان من سكان المدينة . و اشتهرت مدائحه في الغسانيين ملوك الحيرة قبل الإسلام و عمي قبل وفاته. توفي في المدينة. قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاثة كان شاعر الأنصار في الجاهلية و شاعر النبي في النبوة و شاعر اليمانيين في الإسلام. وقال المبرد " أعرق قوم في الشعراء آل حسان فإنهم يعدون ستة في نسق كلهم شاعر وهو سعيد بن عبد الرحمان بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام .

24 – الزركشي : (745 – 794 هـ / 1344 – 1392 م) :

محمد بن بهادُر بن عبد الله الزركشي ، أبو عبد الله بدر الدّين ، عالم بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل ، مصري المولد والوفاة ، له تصانيف كثيرة في عدة فنون منها " الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة – ط " و " لقطة العجلان – ط " في أصول الفقه ، و " البحر المحيط – خ " ثلاث مجلدات في أصول الفقه ، و " إعلام الساجد بأحكام المساجد – خ " ، و"الديباج في توضيح المنهاج – خ " فقه ، و " المنثور – خ " يُعرَف بقواعد الزركشي في أصول الفقه ، و" التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح – خ " و " ربيع الغزلان " أدب .

25 _الخازن : (678 _ 741 هـ / 1279 _ 1340 م):

هو علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي (نسبة إلى شيحة من عمل حلب) البغدادي أبو العلاء أبو الحسن . مفسر فقيه ، محدث ، مؤرخ ، ولد ببغداد و قدم دمشق وولي خزانة الكتب بسمسيساطية .

من تصانيفه " لباب التأويل في معاني لتزيل " شرح عمدة الأحكام للحافظ بن عبد الغني القدسي و سماه " عمدة الأفهام في شرح الأحكام " ، " الروض و الحدائق في تهذيب سيرة خير الخلائق محمد المصطفى سيد أهل الصدق و الوفا " ، " مقبول المنقول " في عشر مجلدات جمع فيه بين مسند الشافعي و أحمد و السند و الموطأ و الدراقطني .

26- الزمخشري : (467 _538 هـ / 1074 _ 1143 م) :

محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري جار الله أبو القاسم . من أئمة العلم بالدين و التفسير و اللغة والأدب ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) و سافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلُقِّبَ بجار الله . وتنقل في البلدان ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي بها له ديوان شعر . و كان معتزلي المذهب مجاهرا شديد الإنكار على المتصوفة أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف و غيره له : (الكشاف) (المقدمة) معجم عربي فارسي مجلدان ، (مقدمة الأدب) (الفائق) في غريب الحديث ، (المستقصي) في الأمثال ، (رؤوس المسائل /خ) ، (أساس البلاغة) (ربيع الأبرار) (القسطاس).

27 - زهير (؟ _ 13ق هـ / ؟ _ 609 م)

زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني من مضر . حكيم الشعراء في الجاهلية و من أئمة الأدب لَن يفضله على شعراء العرب كافة . قال ابن الأعرابي : كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره : كان أبوه شاعرا و خله شاعرا و أخته سلمى شاعرة و ابناه كعب وبجير شاعرين و أخته الخنساء شاعرة . ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة و كان يقيم في (الحاجر) من ديار نجد . و استمر بنوه فيه بعد الإسلام . قيل كان ينظم القصيدة في شهر و ينقحها و يهذبها في سنة فكانت قصائده تسمى الحوليات .

28 - السُّبكي : (727 – 771 هـ / 1327 – 1370 م) : (1)

عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السّبكي ، أبو نصر ، قاضي القضاة ، المؤرّخ الباحث ، ولد في القاهـــرة ، وانـــتقل إلى دمشق مع والده ، فسكنها وتوفي بها ، نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر) ، وكان طلق اللّسان ، قويّ الحجة ، انتهى إليه قضاء القضاة في الشام ، وعُزِلَ ، وتعصّـــب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالكفر واستحلال شرب الخمر ، وأتوا به مقيّداً مغلولاً من الشـــام إلى مصر ، ثُمَّ أُفرج عنه ، وعاد إلى دمشق، فتوفي بالطاعون ، قال ابن كثير : جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يُجرى قاضٍ مثله .

مـــن نصانيفه " طبقات الشافعية الكبرى – ط " ستة أجزاء ، و " معيد النعم ومبيد النقم – ط " و" جمـــع الجوامـــع – ط " في أصـــول الفقه ، و " منع الموانع – ط " تعليق على جمع الجوامع ، و"توشـــيح التصحيح – خ " في أصول الفقه ، و " ترشيح التوشيح وترجيع التصحيح – خ "في فقـــه الشـــافعية ، و " الأشباه والنظائر –خ " فقه ، و " الطبقات الوسطى – خ " و " الطبقات الصغرى – خ "

---

(1) وجدنا في كتاب عروس الأفراح أنّ تاريخ مولده سنة 719 هـــ، يُنظر عروس الأفراح: 1 / 14 ، وينظر الأعلام لخير الدين الزركلي: 4 /335. ط3 . 1389 هـ/ 1969 م .بيروت . لبنان .

29 - السكاكي : (555 - 626 هـ / 1160 - 1229 م) :

يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكّاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب سراج الدّين ، عالم بالعربية والأدب ، مولده وفاته بخوارزم ، من كتبه " مفتاح العلوم " و " رسالة علم المناظرة ".

30 - سيبويه : (148 - 180 هـ / 765 - 796 م) :

عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، أبو بشر ، الملقّب سيبويه ، إمام النحاة ، ، ولد في إحدى قرى شيراز ، وقدم البصرة ، فلزم الخليل بن أحمد ، له كتاب في النحو يسمى " الكتاب "، رحل إلى بغداد فناظر الكسائي ، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم ، وعاد إلى الأهواز فتُوفي بها، وقيل وفاته وقبره بشيراز .

31 - السيوطي : (849 _ 911 هـ / 1445 _ 1505 م) :

عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي جلال الدين ، إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو 600 مصنف . نشأ في القاهرة يتيما . مات والده وعمره 05 سنوات ولما بلغ 40 سنة اعتزل الناس و خلا بنفسه في روضة المقياس على النيل منزويا . و كانت الأغنياء و الأمراء يزورونه و يعرضون عليه الأموال و الهدايا فيردها و طلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه و أرسل إليه الهدايا فردها و ظل على ذلك حتى توفي . و كتابه (المنح البادية) أنه كان يلقب بابن الكتب لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ففاجأها المخاض فولدته وهي بين الكتب . له (الإتقان في علوم القرآن)(الأحاديث المنيفة / خ) (الأرج في الفرج)(الادّكار في ما عقده الشعراء من الآثار/ خ (إسعاف المبطئ في رجال الموطأ) (الأشباه والنظائر) (الاقتراح) في أصول النحو (الإكليل في استنباط التنزيل) (الألفاظ المعربة/خ) (الألفية في مصطلح الحديث) (الألفية في النحو) (إنباه الأذكياء لحياة الأنبياء)(رسالة بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) (تفسير الجلالين) (تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك) (الجامع الصغير) (جمع الجوامع) (الحاوي للفتاوي) (حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة) .

32 - الشنقيطي : (1325 - 1393 هـ / 1907 - 1973 م) :

حمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي: مفسر ، مدرّس من علماء شنقيط (موريتانيا). ولد وتعلم بها ونشأ في بيت علم (نساءً ورجالاً) . وحج سنة 1367 هـ، واستقر مدرساً في المدينة المنورة ، ثم الرياض (1371 هـ) وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة (1381 هـ) وتوفي بالمدينة المنورة في السابع عشر من ذي الحجة . له كتب: منها » أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ ط» منه ،لم يتمّه وأكمله بعده تلميذه الشيخ عطية محمد سالم ـ رحمهما الله ـ ، و« منع جواز المجاز ـ ط» و« منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ـ ط» صغير، و« دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ـ ط» ، و« آداب البحث والمناظرة ـ ط» جزآن ، و« مذكرة في المنطق ـ خ» و« رحلة خروجه من بلاده إلى المدينة ـ خ» وله نظم في أنساب العرب ، ورجز في فروع المذهب المالكي ونظم في الفرائض و"مذكرة أصول الفقه" على "روضة الناظر" .

33 - الشوكاني : (1173 - 1250 هـ / 1760 - 1834 م):

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مفسر محدث، من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان، باليمن) ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة 1229 هـ ، ومات حاكماً بها. وكان يرى تحريم التقليد. من كتبه: " نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار ـ خ " ثماني مجلدات، و " البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ ط " مجلدان، و " الأبحاث العرضية، في الكلام على حديث حب الدنيا رأس كل خطية ـ خ ". و " إتحاف الأكابر ـ ط " وهو ثبت مروياته عن شيوخه، مرتب على حروف الهجاء، و"الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ـ ط " و التعقبات على الموضوعات ـ خ" و " الدرر البهية في المسائل الفقهية ـ خ" و" فتح القدير ـ ط " في التفسير، خمسة مجلدات، و " إرشاد الفحول ـ ط " في أصول الفقه، و"السيل الجرار ـ ط " جزآن، و " إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات" رداً على موسى بن ميمون الأندلسي (اليهودي في ظاهر المستند، والزنديق في باطن

المعتقد، كما يقول صدّيق حسن خان) و " تحفة الذاكرين ـــ ط " شرح عدة الحصن الحصين، و"التحف في مذهب السلف ـــ ط " رسالة، و " الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ـــ ط " رسالة، وغير ذلك، ولتلميذه محمد بن حسن الشجني، كتاب " التقصار ـــ خ " في سيرته وذكر مشايخه وتلاميذه.

34- صلاح الدين الصفدي : (696_764 ه /1296 _ 1363 م)

خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي صلاح الدين أبو الصفاء أديب مؤرخ كثير التصانيف الممتعة، ولد في (صفد) بفلسطين و إليها ينتسب و تعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها ثم ولع بالأدب و تراجم الأعيان وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر و حلب ثم وكالة بيت المال في دمشق فتوفي له زهاء 200 مصنف وله شعر فيه رقة و صنعة . له (نكت الهيمان) ترجم به فضلاء الأعيان ، (ألحان السواجع /خ) (رسائل لبعض معاصريه) (التذكرة /خ) (الغيث المسجم في شرح لامية العجم)(جنان الجناس) (نصرة الثائر) في نقد المثل السائر ، (تشنيف السمع في انسكاب الدمع) (دمعة الباكي) (أعيان العصر/خ) في التراجم .

35- الصولي : (؟ ـــ 335 هـ / ؟ _ 964 م)

محمد بن يحي بن عبد الله أبو بكر الصولي الشطرنجي نديم . من أكبر علماء الأدب ، نادم ثلاثة من خلفاء بني العباس هم الراضي ، و المكتفي و المقتدر وله تصانيف و رسائل . وكان من أحسن الناس لعبا بالشطرنج نسبته إلى جده (وصول تكين) توفي في البصرة مستترا . من مؤلفاته : (الأوراق/ خ) في أخبار آل العباس و أشعارهم ، (أشعار أولاد الخلفاء) ،و (أخبار الراضي والمتقي) ، (أخبار الحلاج) ، (شرح ديوان أبي تمام) (أخبار الشعراء المحدثين) (الغُرر) (أخبار إبراهيم بن المهدي/ خ) (أخبار بن هرمة) (أدب الكتاب / خ) (أخبار القرامطة) (الوزراء) (أخبار أبي تمام) (وقعة الجمل) رسالة صغيرة (أخبار أبي عمرو بن العلاء) .

36- العسكري أبو هلال (؟ _ 395 هـ / ؟ _ 1005 م) :

الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري أبو هلال ، عالم بالأدب ، شاعر ، لغوي مفسر ، نسبته إلى عسكر مَكرَم من كور الأهواز . وهو ابن أخت (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) و تلميذه . قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني فيها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه : " وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة 395 هـ من كتبه : (التلخيص) في اللغة ، (معجم / خ) في اللغة ، (جمهرة الأمثال) (الحث على طلب العلم) رسالة وكتاب (الصناعتين النظم والنثر) ، (شرح الحماسة) (الأوائل) ، (الفرق بين المعاني) (العمدة) (ما تلحن فيه الخاصة) (المحاسن) في تفسير القرآن في 5 مجلدات ، (من احتكم من الخلفاء إلى القضاء) (التبصرة) (ديوان شعره) (الفروق) (ديوان المعاني) في جزأين .

37- قدامة بن جعفر : ؟ _ 337 هـ / ؟ _ 948 م) :

قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي أبو الفرج . كاتب من البلغاء و الفصحاء المتقدمين في علم المنطق و الفلسفة . كان أيام المكتفي بالله العباسي و أسلم على يده . له كتب وتصانيف (الخراج) (نقد الشعر) (نقد النثر) سماه كتاب البيان ، (جواهر الألفاظ) (السياسة) (البلدان) (زهر الربيع) في الأخبار و التاريخ (نزهة القلوب) (الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام) .

38 _ القرطبي : (؟ - 671 هـ / ؟ - 1273 م) :

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخره. مؤلفاته: جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً، سماه كتاب الجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان، واستنباط الأدلة ، وذكر

القـــراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ وله كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وكتاب الـــتذكار في أفضل الأذكار، وكتاب شرح التقصى. شيوخه: سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه، "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم". وحدث عن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري، وحدث أيضاً عن الحافظ أبي الحسن علي بن محمد بن علي بـــن حفـــص اليحصبي وغيرهما. وكان مستقراً بمنية ابن خصيب، وتوفي ودفن بها في ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة 671 هـ ، رحمه الله تعالى وغفر له.

39- المبرد : (210 _ 286 هـ / 826 _ 899 م) :

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المبرد إمام العربية ببغداد ، أحد أئـــمة الأدب و الأخـــبار مولده بالبصرة ووفاته ببغداد قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس : " المبرد بفـــتح الـــراء المشددة عند الأكثر و بعضهم يكسر " . له (الكامل) (المذكر و المؤنث / خ) (المقتضـــب / خ) (التعازي و المراثي / خ) (شرح لامية العرب) (إعراب القرآن) (طبقات النحاة البصريين) (نسب عدنان و قحطان) رسالة ، (المقرب) .

40- المظفر العلوي : (؟ _ 656 هـ / ؟ _ 1258 م) :

المظفـــر بن الفضل بن يحي أبو علي العلوي الحسيني أديب عراقي ألف للوزير محمد بن العلقمي كتاب (الإغريض في نصرة القريض) في الأحمدية بتونس . و في خزانة الرباط (الفهرست) في الشعر و الشعراء .

41- النابغة : (؟ _ 18ق هـ / ؟ _ 605 م)

زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري أبو أمامة شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ و يعرض عليه الشعراء قصائدهم. كان حظيا عند النعمان بن المنذر حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة زوجة النعمان فغضب منه ففر إلى الشام ووفد على الغسانيين بالشام ثم رضي عنه النعمان فعاد . عاش طويلا .

42 - النّسفي : (؟ – 710 هـ / ؟ – 1310 م) :

عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي،أبو البركات، حافظ الدين: فقيه حنفي، مفسر، من أهل إيذج (من كور أصبهان) ووفاته فيها. نسبته إلى "نسف" ببلاد السند، بين جيحون وسمرقند. له مصنفات جليلة، منها "مدارك التنزيل ــ ط" ثلاثة مجلدات المشهور "بتفسير النسفي"، في تفسير القرآن، و "كنز الدقائق ــ ط" في الفقه، و "المنار في أصول الفقه ــ ط" في أصول الفقه، و"كشف الأسرار ــ ط" شرح المنار، و "الوافي ــ خ" في الفروع، و" الكافي ــ خ" في شرح الوافي، و "المصفى ــ خ" في شرح منظومة أبي حفص النسفي، في الخلاف، و"عمدة العقائد ــ خ.

43- النويري : (677 _ 733 هـ / 1278 _ 1333 م) :

أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري شهاب الدين النويري عالم بحاث غزير الاطلاع ، نسبته على نويرة (من قرى بني سويف) بمصر . مولده و منشؤه (بقوص). اتصل بالسلطان الملك الناصر ووكله السلطان في بعض أموره و تقلب في الخدم الديوانية . وباشر نظر الجيش في طرابلس و تولى نظر الديوان بالدقهلية و المرتاحية .وكان ذكي الفطرة حسن الشكل و له نظم يسير و نثر جيد له (نهاية الأرب في فنون الأدب) توفي في القاهرة .

* * *

الفهارس

فهرس الشواهد القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الشواهد الشعرية

فهرس الموضوعات

فهرس الشواهد القرآنية

الآيات	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	02 ، 05	12 ، 86 ، 131
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	05	88 ، 89
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾	07	89
سورة البقرة		
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . . .﴾	03 ، 04	53
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ .	17	110
﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾	22	71
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾	23	71
﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ . . . .﴾	27 ، 28	89
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا . . .﴾	29	122
﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . . .﴾	38	111 ، 122
﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى . . .﴾	73	45
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ . . .﴾	83	44 ، 91
﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ . . .﴾	87	102
﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .	91	102
﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ .	102	102

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ... ﴾	105 ، 106	72
﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .	111	143 ، 111
﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ .	143	143 ، 133 ، 132
﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ... ﴾	145 ، 146	58
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾	172	45
﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾	185	158
﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ... ﴾	200	57
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾	208	152
﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾	229	133 ، 125
﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ... ﴾	233	146
﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾	235	162
﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ... ﴾	237	91
﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾	253	146
﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾	257	161
﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾	265	92
﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾	281	24
﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾	282	44
﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	286	158

		سورة آل عمران
59	09	﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾
13	13	﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ... ﴾ .
92	28	﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ... ﴾ .
47	57 ، 56	﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ... ﴾
104	59	﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾
150	103	﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾
92	106	﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم ... ﴾
90	110	﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ .
90	112	﴿ ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ... ﴾ .
133	140	﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ .
48	151	﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ... ﴾ .
93	179	﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾
60	194	﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾
		سورة النساء
158	28	﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾
46	30	﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .
136	35	﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ... ﴾ .
162	43	﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ... ﴾
61	47	﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم ﴾ .
163	56	﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ﴾

﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ... ﴾	64	62
﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ... ﴾	83	93
﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما ... ﴾ .	128	135
﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ .	166	133
سورة المائدة		
﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ... ﴾ .	02	136
﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ .	06	158
﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ .	12	73
﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ .	38	119 ، 13
سورة الأنعام		
﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾	48	112 ، 104
﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾	48	112
﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ... ﴾	54	141
﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ .	72 ، 71	37
﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العلمين ... ﴾ .	75	82
﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ .	99	73 ، 71

﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول . . . ﴾	64	62
﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . . . ﴾	83	93
﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما . . . ﴾ .	128	135
﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ .	166	133
سورة المائدة		
﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . . . ﴾ .	02	136
﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ .	06	158
﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ .	12	73
﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ .	38	13 ، 119
سورة الأنعام		
﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾	48	104 ، 112
﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾	48	112
﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة . . . ﴾	54	141
﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ .	71 ، 72	37
﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العلمين . . . ﴾ .	75	82
﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ .	99	71 ، 73

سورة الأعراف

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ... ﴾	11	136
﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾ .	29	99 ، 04
﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾	44	100
﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ... ﴾	48	101
﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .	56	40
﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ... ﴾ .	57	74
﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾	110	108
﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾	127	51
﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾	156	141
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴾	158	46
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ... ﴾	172	150 ، 136

سورة التوبة

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾	04	96
﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾	40	55
﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ .	40	55
﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾	62	116
﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾	111	137 ، 94

		سورة يونس
﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ .	21	15 ، 03
﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ .	22	63 ، 24 ، 14 ، 13
﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .	23	66 ، 65
﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾	61	112
﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . . ﴾	78	109 ، 108 ، 05
﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ . . . ﴾	83	113
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا . . . ﴾ .	87	120 ، 06
﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .	87	120
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾	99	157
		سورة هود
﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ . وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ . . . ﴾ .	54 ، 53	100 ، 04
﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾	61	137
﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ .	98	102
		سورة يوسف
﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .	04	122
﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ .	23	114

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ... ﴾	33	115 ، 114
﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ... ﴾	51	115
سورة الرعد		
﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾	17	154
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ... ﴾	41	48
سورة إبراهيم		
﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾	07	139
﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا ﴾	31	38
﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .	34	38 ، 139
سورة الحجر		
﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .	79	127
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ .	87	160
سورة النحل		
﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾	01	152
﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... ﴾ .	02	81
﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .	18	140 ، 139
﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ .	51	80

﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾	57	94
﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ .	65	142
﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه ... ﴾ .	66	141 ، 129
سورة الإسراء		
﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... ﴾	01	82
﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ... ﴾	02	96
﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾	44	142
﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾	81	154
﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ .	100	144
سورة الكهف		
﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾	11	162
﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .	47	101
﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾	49	106
﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾	49	146
﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾	77	145
﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها ... ﴾	82 ، 81 ، 79 ، 80	145
﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾	109	ز ، 168

سورة مريم		
﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾	88 ، 89	07 ، 95
﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾	94	139
سورة طه		
﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى . . . ﴾	1 ، 2 ، 3 ، 4	49
﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي . . . ﴾	29، 30 ، 31، 32	119
﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾	47	118
﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾	49	06
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً . . . ﴾	53	77
﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى . . . ﴾ .	54 ، 55	77
﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . . . ﴾	72 ، 73	02 ، 08 ، 55
﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾	117	117
سورة الأنبياء		
﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ . . . ﴾	78	121
﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ .	92	150
﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . . . ﴾ .	93 ، 94	04 ، 66
سورة الحج		
﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ . . . ﴾	02	123
﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .	19	121
﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .	78	158
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .	83	104

سورة المؤمنون		
﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ... ﴾ .	21	129 ، 141
﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ .	52	150
﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ... ﴾ .	52 ، 53 ، 54	66
سورة النور		
﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ... ﴾	12	67
﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ .	31	146
﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ ﴾	40	64
﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾	41	88
﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾	46	146
﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾	59	146
﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ .	64	69
سورة الفرقان		
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ... ﴾ .	45	85
﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .	74	147
سورة الشعراء		
﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ .	15	121
﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	16	118
﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ... ﴾	20 ، 21 ، 22	124
﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾	84	147
﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾	100 ، 101	125

		سورة النمل
78 ، 74	60	﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . ﴾
102 ، 05	87	﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾
102	90	﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾
		سورة القصص
94	08	﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾
124	20	﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .
123	56	﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .
09	59	﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ .
		سورة العنكبوت
50	18	﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ .
153	20	﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
137	40	﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً . . . ﴾
		سورة الروم
150 ، 40	30	﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ .
94	34	﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾
69	39	﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ . . . ﴾

سورة لقمان		
﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ . . . ﴾	10	74
﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾	27	136 ، 168
﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾	28	136
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ . . . ﴾ .	32 ، 31	68
سورة الأحزاب		
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ . . . ﴾ .	50	69
﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ .	50	69 ، 148
﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . . ﴾ .	52	148
﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .	56	154
﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ .	63	158
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . . . ﴾ .	71 ، 70	148
سورة سبأ		
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ .	10	160
﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . . . ﴾ .	25 ، 24	41

سورة فاطر		
﴿ واللّٰهُ الّذي أرسَلَ الرياحَ فتُثيرُ سحاباً فسُقناهُ بلدٍ ميّتٍ . . . ﴾ .	09	05 ، 07 ، 105
﴿ ألَمْ ترَ أنّ اللّٰهَ أنزلَ منَ السّماءِ ماءً فأخرجنا بهِ ثمراتٍ مُختلفاً ألوانُها ﴾ .	27	74
سورة يس		
﴿ وكُلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ ﴾	12	139
﴿ وجاءَ منْ أقصى المدينةِ رجلٌ يسعى . . . ﴾	20 ، 21	39 ،42 ،43 ،150
﴿ ومالي لا أعبدُ الذي فطرني وإليهِ ترجعونَ ﴾	22	03 ، 57 ، 150
﴿ وآيةٌ لهمُ الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حباً . . . ﴾	33 ، 34 ، 35 ، 36	49
سورة الصافات		
﴿ وأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلونَ . . . ﴾	27 ، 28 ، 29 ، 30	56
﴿ فحقَّ علينا قولُ ربّنا إنّا لذائقونَ ﴾ .	31	55 ، 56
فلمّا بلغَ معهُ السّعيَ قالَ يا بُنيَّ إنّي أرى في المنامِ أنّي أذبحُكَ فانظرْ ماذا ترى ﴾ .	102	105
﴿ إنّي أرى في المنامِ أنّي أذبحُكَ ﴾ .	102	05
سورة ص		
﴿ وانطلقَ الملأُ منهم أنِ امشوا . . . ﴾	06	96
﴿ وهلْ أتاكَ نبأُ الخصمِ إذ تسوّروا المحرابَ ﴾ .	21	121
﴿ قالَ ربِّ اغفرْ لي وهبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ منْ بعدي إنّكَ أنتَ الوهّابُ ﴾ .	35	160
﴿ هذا عطاؤنا فامْنُنْ أوْ أمسِكْ بغيرِ حسابٍ ﴾ .	39	160
سورة الزمر		
﴿ قلْ يا عبادِيَ الذينَ أسرفوا على أنفسِهم لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّٰهِ . . . ﴾ .	53	50
﴿ ألا للّٰهِ الدينُ الخالصُ ﴾ .	53	147

		سورة فصلت
161	05	﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ .
68	09	﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ . . . ﴾ .
142	11	﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾
122 ، 04	12	﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا . . . ﴾ .
68	13	﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .
160	21 ، 20	﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ . . . ﴾ .
102	21	﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ .
152	53	﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .
		سورة الشورى
146	52	﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ .
		سورة الزخرف
74	11	﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .
70	69 ، 68	﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ .
04	71 ، 70	﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ . . . ﴾ .
		سورة الدخان
50	06 ، 05	﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .
94	من 43 حتى 50	﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ . . . ﴾

		سورة الفتح
151 ، 51	02 ، 01	﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ . . . ﴾ .
51	09 ، 08	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . . . ﴾ .
		سورة الحجرات
70	07	﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ . . . ﴾
151	09	﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ .
		سورة الذاريات
152	21 ، 20	﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .
51	58 ، 57	﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . . . ﴾ .
		سورة النجم
82	18	﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ .
		سورة الرحمن
109	من 19 إلى 23	﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . . . ﴾
129	34، 33 ، 31،32	﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . . . ﴾
153	32	﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .
153	33	﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ .
129 ، 06	34 ، 33	﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . . . ﴾

		سورة الحديد
70	12	﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم . . . ﴾ .
		سورة المجادلة
154	21	﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .
		سورة الصف
150	3 ، 2	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾
138	10	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .
127	13	﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
		سورة الجمعة
116	11	﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا . . . ﴾ .
		سورة الطلاق
113 ، 05	01	﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ .
		سورة التحريم
119 ، 13	04	﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾
		سورة المعارج
161	37	﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾

سورة نوح		
﴿ مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾	13	40
سورة المزمّل		
﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾	05	155
سورة القيامة		
﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ... ﴾ .	34	94
سورة الإنسان		
﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ... ﴾	20 ، 21	95
﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ... ﴾ .	21 ، 22	04
سورة النبأ		
﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .	40	106
سورة عبس		
﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾		
﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ .	02 ، 01	155 ، 95
﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾	03 ، 02	156 ، 155 ، 95
سورة التين	17	153
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .	05 ، 04	97
﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .	07	97

		سورة الزلزلة
106	08 ، 07	﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .
		سورة العاديات
97	08 ، 07 ، 06	﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ...﴾ .
		سورة الكوثر
159، 53 ، 08 ، 03	02 ، 01	﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ .
* * *	* * *	* * *

أوّل الحديث	الصفحة
اغتنم خمساً قبل خمسٍ : شبابـــك قبل هرمك ...	157
إنَّ الدين يسر ...	159
لأَنْ يَهدِيَ الله بك رجلاً واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم	156

فهرس الشواهد الشعرية

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
أتنسى إذْ تُودِّعنا سُلَيمى	البَشامُ	جرير	13
إذا وَعَدَ السَرَّاءَ أَنْجَزَ وَعْدَهُ	مَانِعُهُ	السري الرفاء	60
بأني قدْ لَقِيْتُ الغُولَ تَهْوِي	صَحْصَحان	تأبّط شرّاً	105
فأَضرِبُها بلا دَهَشٍ فخَرَّتْ	جِـرَان		
تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْـمَد	تَرْقُـدِ	امرؤ القيس	12 ، 30 ، 31
وبَاتَ وبَاتَـتْ لَهُ لَيْلَةٌ	الأَرْمَدِ		
وذَلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِـي	الأَسْوَدِ		
خُلِقْتَ مُبَرَّءاً من كلّ عيبٍ	تَشَاءُ	حسّان بن ثابت	157
شَطَّتْ مـزَارُ العاشقين فأصبحت	مَحرومِ	عنترة	14
طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ	مَشِيبُ	علقمة بن عبدة	34 ، 55
تُكَلِّفُنِي لَيْلَى وقَدْ شَطَّ وَلْـيُـهَا	خُطُـوبُ		
فَـإِنْ تُفِقِ الأَنَامُ وأنتَ مِنْهُم	الْغَزَال	المتنبي	158
فيها خطوط من سواد وبلق	البهق	رؤبة	116
قِـفْ بالدِّيَـار الَّتِي لم يعفها القِدَمُ	الدَّيَـمُ	زهير	16
لا خيلَ عندك تَهديها ولا مال	الخالُ	المتنبي	33
لَلُبْـسُ عبـاءة وتقـرّ عينـي	الْشُفُوفِ	ميسون بنت بحدل	99

مَتَى كان الخِيامُ بذي طُلُوحٍ ؟	الخيام	جرير	16
وإنّي لَمن قومٍ كأنّ نفوسنا	العظمـــا	المتنبي	24
ودِّعْ هُريرةَ إنّ الركب مرتَحِلُ	الرجلُ	الأعشى	33
وكم من عائب قولاً سليماً	السقيم	المتنبي	22
ومـــا كُنـــتُ مُـــذْ أبصرتني فـــي خصومـــة	قاضيا	ذو الرّمة	14
ويَطْلُبُ عِنْدَ النّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ	الْضَرَاغِمُ	المتنبي	30
نَـــحْـــنُ بِمَا عِنْدَنَا وأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ	مُخْتَلِفُ	قيس بن الخطيم	116
يا دار ميَّة بالعلياء فالسَّنَـــد	الأَبَـــد	النابغة الذبياني	14
من آل أبـــي موسى ترى القوم حوله	بازيـــا		

﴿ مكتبة البحث ﴾

- القرآن الكريم برواية حفص .

1 - الآلوسي شهاب الدين محمود البغدادي : تفسير روح المعاني.دار إحياء التراث العربي.بيروت.لبنان.

2 - ابن أبي الأصبع :تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر.ط 1 1963 م.مصر بتحقيق د. حفني محمد شرف .

3 - ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . نهضة مصر 1959 م.

4 - ابن جني : المحتسب.تحقيق محمد عبد القادر عطا .ط1 .1419هـ/1998م دار الكتب العالمية.بيروت لبنان .

5 ------ : الخصائص : دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . 35

6 - ابن قتيبة تأويل : مشكل القرآن .الطبعة الأولى.1423 هـ / 2002 م دار الكتب العلمية .بيروت.لبنان.

7- ابن قيّم الجوزية : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي .ط.1 .1418هـ/ 1997م - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

8 ----------المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان.دار الكتب العلمية . بيروت .لبنان

9 - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم . دار الفكر . بيروت . لبنان .

10 - ابن المعتز : البديع .الطبعة الأولى : 1422 هـ / 2001 م . مؤسسة الكتاب الثقافية .بيروت . لبنان .

11 - ابن منظور : لسان العرب . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان

12 - إسماعيل محمد بكر : القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه.ط1 1417 هـ /1997 م دار المنار.

13 - الأعشى : الديوان . تحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت . لبنان .

14 - امرئ القيس . الديوان . ط 1 . 1419 هـ / 1992 م - المكتب الإسلامي - بيروت . لبنان .

15 - الأندلسي أبو حيان : تفسير البحر المحيط . طبعة 1412هـ/ 1992 م .دار الفكر . بيروت.لبنان.

16 - الأنصاري أبو يحيى زكريا :فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن .تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني ط2 : 1408هـ/ 1989م . مكتبة الرحاب . الجزائر العاصمة . الجزائر . .

17 - أبو السعود : تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . دار المصحف . مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد . القاهرة .مصر .

18 - أبو عبيدة معمر بن المثنى : مجاز القرآن . ط2 . 1981 م مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان

19 - التفتازاني سعد الدين :مختصر السعد ط 1423 هـ/ 2003 م المكتبة العصرية . صيدا . بيروت .

20 - باشا ابن كمال : تلوين الخطاب. تحقيق الدكتور عبد الخالق بن مساعد الزهراني .1421 هـ/ 2001م.

21 - الباقلاني : إعجاز القرآن . ط 4 . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . لبنان .

22 – البخاري علاء الدين عبد العزيز بن أحمد : كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي .الطبعة الثالثة . 1417هـ/1997 . دار الكتاب العربي . بيروت .

23 – البخاري : صحيح البخاري .تحقيق د.مصطفى ديب البغا .الطبعة الثالثة .دار ابن كثير .اليمامة . بيروت لبنان .

24 – البرقوقي عبد الرحمن : شرح ديوان المتنبي :. طبعة 1422هـ / 2002م . دار الفكر.بيروت.لبنان .

25 – بركات محمد : دراسات في البلاغة . الطبعة الأولى . 1403ه / 1984 م . دار الفكر . عمان . الأردن

26 – البكري أبو عبد العزيز: معجم ما استعجم . دار عالم الكتب .طبعة 1422 هـ / 2001 م .بيروت.لبنان

27 – بن عاشور الطاهر: تفسير التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر – تونس . 1984

28 – تأبّط شرّاً : الديوان : ط1 .1424هـ/ 2003 م .دار المعرفة .بيروت.لبنان .اعتنى به : عبد الرحمن مصطاوي.

29 – الجاحظ : البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون .الطبعة الثانية . 1960 م .

30– جرير : الديوان . دار صادر و دار بيروت . 1384 هـ / 1964م . بيروت .

31 – حسان بن ثابت :الديوان. طبعة : 1386 / 1966 م – دار بيروت – لبنان .

32 – حسين عبد القادر :أثر النحاة في البحث البلاغي.مطبعة نهضة مصر.الفجالة.القاهرة 1975م

33 – حسين عبد القادر : فن البلاغة: مطبعة الأمانة . مصر .

34 – حمدي أبو علي محمد بركات :فصول في البلاغة للدكتور – الطبعة الأولى 1403 هـ / 1982م. مدار الفكر للنشر والتوزيع . عمان .

35 – حمادي إدريس : الخطاب الشرعي وطرق استثماره.الطبعة الأولى 1994 م – المركز الثقافي الغربي للطباعة والنشر – بيروت .لبنان .

36 – الحلبي نجم الدين بن الأثير: جوهر الكنز " تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة " تحقيق الدكتور محمد زغلول سلاّم .منشأة المعارف بالإسكندرية . (دون تاريخ) .

37 – حنفي محمد علي بن علي بن التهانوي : اكشاف اصطلاحات الفنون ..ط1 .1418هـ/ 1998م.دار الكتاب العلمية .بيروت . لبنان .

38 – خفاجي عبد المنعم وصلاح الدين محمد عبد التواب : الحياة الأدبية في عصري الجاهلية والإسلام . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة .

39 – الزجاج : إعراب القرآن.ط 1963 . المؤسسة المصرية .

40– الزركشي : البرهان في علوم القرآن.منشورات المكتبة العصرية . صيدا . بيروت.لبنان .

41 – الزمخشري :تفسير الكشاف . – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان .(د .ت)

42 – السُّبكي بهاء الدين :عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح.دار الكتب العلمية.بيروت . لبنان .

43 – السكاكي : مفتاح العلوم . الطبعة الثانية 1407هـ / 1987 م . دار الكتب العلمية.بيروت.لبنان.

44 – السيوطي جلال الدين :المزهر في علوم اللغة وأنواعها .ط 1 . 1998م دار الكتاب.بيروت. لبنان .

45 – السيوطي جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن :تحقيق محمد سالم هاشم . ط 1424هـ/ 2003م . دار الكتب العلمية .بيروت .لبنان.

46 ———————: معترك الأقران . ط 1 .1423 هـ / 2003م .دار الكتب العلمية . بيروت. لبنان.

47 – شريقن مصطفى : أسلوب الالتفات في القرآن الكريم وأسراره. رسالة ماجستير . إشراف الدكتور. عبد الكريم بكري . معهد اللغة والأدب العربي . جامعة وهران .

48 – الشعراوي محمد متولي : أسئلة حرجة وأجوبة صحيحة ..ط 1982م . دار العودة . . القاهرة . مصر .

49 ———————: على مائدة الفكر الإسلامي . ط 1982م . دار العودة . القاهرة . مصر .

50– الشنقيطي محمد الأمين : أضواء البيان في تفسير القرآن .ط 1415هـ/1995م.دار عالم الفكر.بيروت . لبنان .

51 – الشوكاني محمد بن علي بن محمد : إرشاد الفحول دار المعرفة بيروت – لبنان .

52 ———————: تفسير فتح القدير الطبعة الثالثة 1417 هـ/ 1997م.دار المعرفة . بيروت.لبنان .

53 – الشيخلي بهجت عبد الواحد :بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز– الطبعة الأولى 1422 هـ / 2001 م – مكتبة دنديس – الأردن . عمان .

54 – ضيف شوقي : البلاغة تطور وتاريخ :. ط 3 . دار المعارف . مصر

55 – عبد الباقي محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. ط1422 هـ / 2001م.دار الحديث. القاهرة

56 – عتيق عبد العزيز :في تاريخ البلاغة العربية :.دار النهضة العربية . بيروت . لبنان .

57 – العسكري أبو هلال : الصناعتين.الطبعة الثانية : 1404 هـ / 1984م . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان

58 – علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم : تفسير الخازن المسمى "لباب التأويل في معاني التنزيل ".ط1 1415 هـ / 1995 م – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .

59 – علقمة بن عبدة . الديوان . شرح الأعلم الشنتمري . تحقيق : لطفي الصقال – مطبعة الأصيل – حلب . 1389 هـ/ 1969 م

60 – عنترة بن شدّاد : الديوان : دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت . لبنان .

61 – الفخر الرازي :تفسير مفاتيح الغيب .الطبعة الثالثة . (د . ت) . دار إحياء التراث العربي . بيروت لبنان .

62 – الفرّاء أبو زكريا يحيى بن زياد : معاني القرآن ..ط 3 – 1403 هـ / 1983 م – عالم الكتب. بيروت. لبنان.

63 – القرطاجني الحازم : منهاج البلغاء: ط . 3 . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان .

64 – القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . طبعة 1387هـ/ 1967م دار الكاتب العربي .القاهرة .

65 – القرطبي أبو عبد الله : تفسير الجامع لأحكام القرآن.دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

66 – القزويني جلال الدين :الإيضاح في علوم البلاغة.الطبعة الثالثة .1419 هـ / 1998 م بيروت. لبنان .

67 – قلقيلية عبده عبد العزيز : البلاغة الاصطلاحية للدكتور ط.4 .1421 هـ / 2001م .دار الفكر العربي .

68 – القيرواني ابن رشيق :العمدة في محاسن الشعر وآدابه .الطبعة الأولى.1424هـ / 2003م .بيروت.لبنان

69 – مطلوب أحمد :معجم المصطلحات البلاغيّة و تطوُّرها . مكتبة لبنان . ناشرون .

70 – المنجد في اللغة والأعلام . الطبعة السابعة والعشرون – 1984 م – دار المشرق . بيروت . لبنان .

71 – النّسفي عبد الله بن أحمد : تفسير مدارك التنزيل لعبد الله بن أحمد النّسفي . دار الكتاب العربي . روت لبنان .

72 – النّورسي بديع الزمان : كليات رسائل النور .المكتوبات . ترجمة : إحسان قاسم الصّالحي .ط 2 : 1413 هـ / 1992 م – دار سوزلر للنشر – القاهرة . مصر . (حقوق الطبع محفوظة للمترجم) .

73 – النابغة الذبياني :الديوان . تحقيق كرم البستاني . دار صادر / دار بيروت ط 1383هـ / 1963م بيروت . لبنان .

74 – النيسابوري في : المستدرك على الصحيحين .تحقيق مصطفى عبد القادر عطا .ط1 1411 هـ / 1990 م .دار الكتب العلمية . بيروت .لبنان .

الأقراص المضغوطة

75 – جامع التفاسير (قرص مضغوط) . الإصدار الرابع . 2003 م شركة العريس للكمبيوتر . بيرو .لبنان .

الموقع على الأنترنت : www. elariss. Com

76– القرآن والكون (قرص مضغوط) للدكتور "زغلول النجار". إنتاج شركة مكة للبرمجيات بواسطة الشركة الهندسية لتطوير نظم الحاسبات RDI . القاهرة . مصر.

الموقع على الأنترنت : WWW. ALEIJAZ.ORG / ARABIC _ MAIN . HTM

77 . الموسوعة الشعرية إصدار 2003 م (قرص مضغوط). إشراف الدكتور محمد أحمد السويدي . لجنة الموسوعة : مجموعة دكاترة . المجمع الثقافي السوري : 1997 – 2003م .

الموقع على الأنترنت :. www. cultural . org . ae

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ب
المقدمة	د
المدخل	02
الفصل الأوّل	
الالتفات من منظور علماء اللّغة	
1 – نشأة الالتفات والاصطلاح عليه	12
2 – غائية الالتفات وأسراره البلاغية	20
3 – قضايا اختلافية حول الالتفات :	27
أ – حول موقع الالتفات في علوم البلاغة	27
ب – حول التفاتات امرئ القيس	30
ج – بين الالتفات والتجريد	33
الفصل الثانـــي	
الالتفات في القرآن الكريم من خلال مدونات التفسير	
الالتفات في القرآن الكريم من خلال مدونات التفسير	37
أ – الضرب الأوّل : الالتفات بالضمائر :	37
1 – الالتفات من التكلّم إلى الخطاب	37
2 – من التكلّم إلى الغيبة	44
3 – من الخطاب إلى التكلّم	55
4 – من الخطاب إلى الغيبة	57
5 – من الغيبة إلى التكلّم	71
6 – من الغيبة إلى الخطاب	86

الفصل الثالث

الالتفات بالأفعال وبالأعداد

الضرب الثانـــي :

الالتفات بالأفعال : 99

1 – الرجوع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر 99

2 – الرجوع عن الفعل المضارع إلى فعل الأمر 100

3 – التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي 100

4 – التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل 102

الضرب الثالث :

الالتفات بالأعداد : 108

1 – الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب التثنية 108

2 – الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع 110

3 – الانتقال من خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد 116

4 – الانتقال من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع 119

5 – الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الواحد 122

6 – الانتقال من خطاب الجمع إلى خطاب الاثنين 125

الفصل الرابع

استنباط الأحكام من خلال أسلوب الالتفات 131

الخاتمة 165

تراجم الأعلام 170

الفهارس

فهرس الشواهد القرآنية 189

فهرس الأحاديث النبوية 207

فهرس الشواهد الشعرية 208

مكتبة البحث 210

فهرس الموضوعات 214